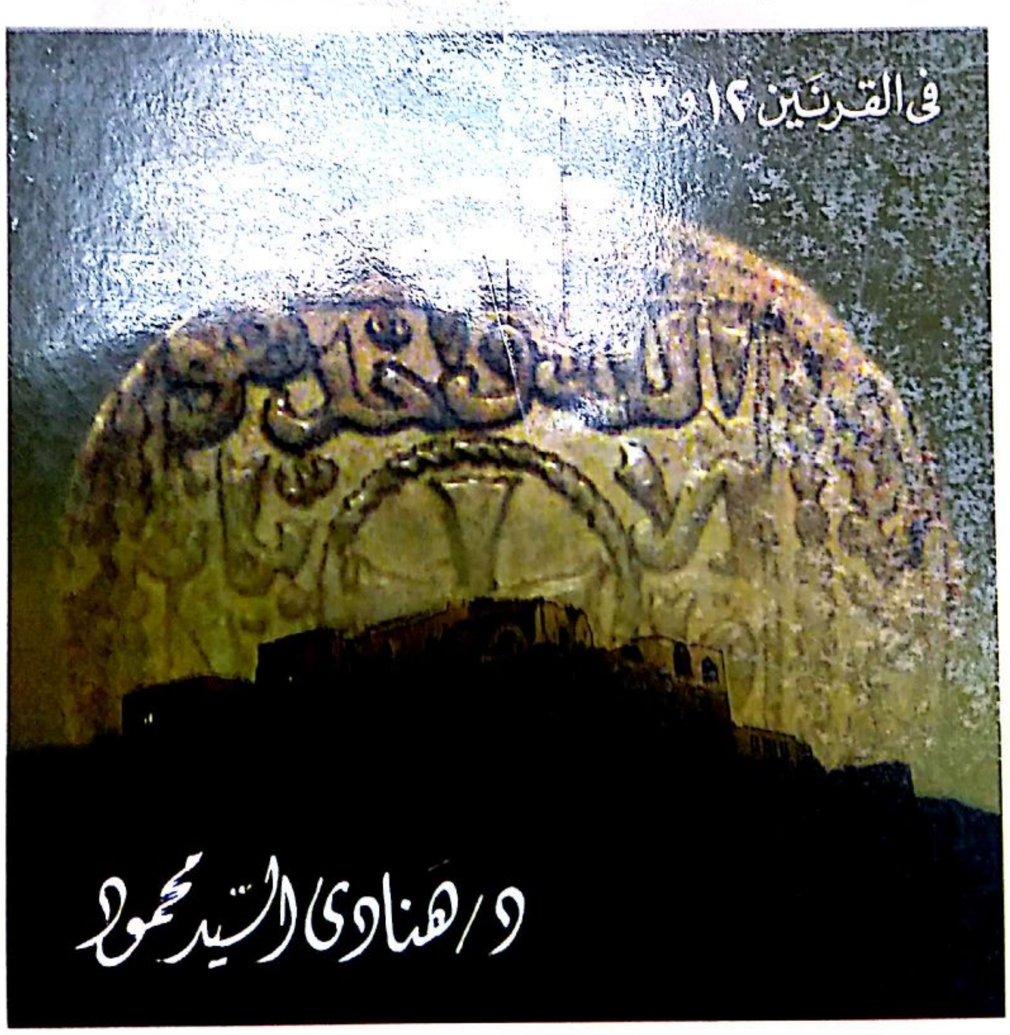

حركة الحج
إلى مملكة بيت المقدس الصليبية


في القرنين ١٢ و
د/ هنادي السيد محمود


دار الآفاق العربية

حركة الحج

إلى مملكة بيت المقدس الصليبية

في القرنين ١٢ و ١٣ ميلادي

د/ هنادي السيد محمود



إمام ؛ هنادى السيد محمود
حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية
فى القرنين (12-13 م)
تأليف : هنادى السيد محمود
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2013
486 ص ، 24 سم
1- القدس – تاريخ
2- الحج

تدمك :978-977-344-216-2
رقم الأيداع :2012/23123
الطبعة الأولى
2013/1434 م

نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 22617339 -00202
تليفاكس : 00202-22610164
Email: daralafk@yahoo. Com

دار الآفاق العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة يوسف: الآية ٧٦]

إهداء

إلى روح أبي الروحي ومعلمي

الأستاذ الدكتور/ أحمد رمضان أحمد

رحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته

كنت أتمنى أن تكون معي، ولكن لا راد لقضاء الله

لا أستطيع غير أن أترحم عليك، وأدعو لك بأن يجزيك الله خيراً بقدر ما علّمت من أجيال . . .

المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة موضوع: "**حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ**" لمحاولة تقييم حجم هذه الحركة منذ نشأتها حتى نهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

ومن الجدير بالذكر أن حركة الحج هذه كانت واضحة بشكل ملحوظ بالنسبة للحجاج المسيحيين، بينما لم تكن ظاهرة للحجاج اليهود؛ لأن الصليبيين حرموا عليهم دخول المدينة المقدسة طوال القرن الثاني عشر، وبالتحديد قبل موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، لكن الأمور تغيرت فيما بعد على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي سمح لليهود ليس بالزيارة فقط، ولكن بالإقامة أيضاً في القدس، حتى بدأت تظهر فيما بعد حركة للحج اليهودي الذي قاموا فيه بزيارة الخليل والحرم الإبراهيمي.

أما عن **الأسباب التي دفعت الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع** رغبتها في تقديم دراسة متخصصة عن حركة الحج في الفترة الأولى من الوجود الصليبي في بلاد الشام، حتى تتأكد من أثر حركة الحج على قوة وضعف الحركة الصليبية وخاصة، وأنه قد سبقتها دراسة قيمة لفترة متأخرة عن حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١-١٥١٧م/ ٦٩٠-٩٢٣هـ)، فإن دراسة فترة القرنين الثاني عشر والثالث عشر سيسد الفراغ الزمني عن حركة الحج، لتصبح الفترة كلها منذ القرن الثاني عشر حتى أوائل القرن السادس عشر قد خصصت لدراسة علمية متخصصة.

أما عن مشكلات الدراسة فهي:

أن معظم المصادر الإسلامية لا يوجد بها إشارات إلى حركة الحج المسيحي إلا في بعض نصوص المعاهدات والاتفاقيات بين الجانبين الإسلامي والمسيحي.

ومشكلة تجميع مادة علمية كانت بالغة الصعوبة نظراً لأن بعض الدراسات والمؤلفات المتخصصة لا تتوافر في المكتبات المصرية، بل في الخارج على الرغم من وجود شبكة معلومات (الانترنت)، بالإضافة إلى مشكلة ترجمة هذا الكم الهائل، وعرض المادة بعد ترجمتها.

عدم توافر مادة كافية عن هؤلاء الحجاج، وخصوصاً في القرن الثالث عشر الميلادي

بسبب المد الإسلامي والحروب بين الجانبين الإسلامي والصليبي، ونهاية هذا الوجود على هذه الأرض العربية الإسلامية، على الرغم من وجود نصوص لاتفاقيات ومعاهدات تسمح لهم بالزيارة والحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، بالإضافة إلى فتور الحماس الديني الذي انتاب الغرب الأوروبي في هذا القرن، مما جعل هؤلاء يتجهون إلى زيارة القديسيين المحليين في أوروبا، فلماذا إذن الذهاب إلى الشرق حيث الموت؟.

أما عن المنهج الذي سارت عليه هذه الدراسة: فوثائقي سردي، ووصفي، وتحليلي.

وقد قسمت البحث إلى: تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، تناولت في **التمهيد** دراسة تاريخ الحج قبل القرن الثاني عشر الميلادي من حيث مفهوم الحج في المسيحية، والحج من القرن الأول إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

وخصصت **الفصل الأول** لتداخل حركة الحج مع الحركة الصليبية من الجوانب الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية.

وتناولت في **الفصل الثاني** جهود مملكة بيت المقدس لتأمين حركة الحج، من حيث تأمين الطرق من وإلى مملكة بيت المقدس (طريق يافا – القدس)، وأيضاً الاستحكامات الحربية في كل من القرن الثاني عشر، والقرن الثالث عشر.

وعالجت في **الفصل الثالث** الحج إلى بيت المقدس، ويتضمن عدة عناصر في صورة رعاية الحجاج، وأهم المزارات، وأهم الطقوس.

أما **الفصل الرابع** والأخير فقد خصصته للحديث عن الآثار المترتبة على حركة الحج إلى الأراضي المقدسة، فألقيت الضوء على الآثار السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والحربية، والدينية.

وأخيراً، وضعت الباحثة **خاتمة** لبحثها تعرضت فيها لأهم القضايا والنقاط التي تم تحليلها، وأهم النتائج التي تم التوصل إليها، مع الإشارة إلى القضايا والنقاط المحورية التي تناولتها الباحثة بالمناقشة على مدى فصول الدراسة.

وأخيراً فإنني أحمد الله عز وجل، الذي مكنني من إنهاء هذا العمل، ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بخالص شكري وتقديري وعظيم امتناني إلى أبي الروحي وأستاذي الجليل، **الأستاذ الدكتور/ أحمد رمضان أحمد** أستاذ التاريخ الإسلامي (رحمه الله)، الذي

شُرفت بالتلمذ على يديه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، فكان له الفضل الأكبر في تكويني العلمي، ووضعني على أول طريق البحث العلمي في مجال الدراسات التاريخية، ولم يبخل أبداً علي بالنصح والتوجيه والإرشاد والتشجيع في كل مراحل إعداد الرسالة، ولا أملك إلا الدعاء له بواسع الرحمة والمغفرة فجزاك الله عني وعن زملائي من طلاب العلم خير الجزاء، وجعل الله له هذا العمل في ميزان حسناته وأسكنه فسيح جناته بإذن الله تعالى.

كما أتوجه بالشكر وعظيم امتناني إلى أساتذتي، **الأستاذة الدكتورة/ محاسن محمد علي الوقاد** أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ، والتي شملتني بعنايتها ورعايتها علمياً ومعنوياً بعد وفاة أستاذي الجليل (رحمه الله)، وقدمت لي كل عون وأمدتني بما أحتاج إليه من مصادر ومراجع، كما كان لها آثارها في إخراج هذا البحث، فأتمنى لها الصحة والسعادة وطول العمر.

كما أتوجه بالشكر إلى **الدكتور/ سند أحمد سند عبد الفتاح** أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بالكلية بالمشاركة في الإشراف على هذا البحث، والذي لم يدخر علي بأي توجهات علمية، كما قدم لي كثيراً من مصادر البحث التي كان لها أهميتها في استجلاء ما عرض من الأحداث، فله جزيل الشكر، ودعاء له بالصحة وطول العمر.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للسادة الأساتذة الدكاترة أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث.

الأستاذ الدكتور/ أسامة سيد علي أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية وعميد كلية الآداب بجامعة قناة السويس بالإسماعيلية على تفضله بقبول مناقشة هذا البحث، رغم ضيق وقته وكثرة مشاغله فله جزيل الشكر مقدماً على ما يقدمه لي من ملاحظات سأقوم بمشيئة الله بالاستفادة منها عند طباعة البحث.

وإلى **الدكتور/ عبد العزيز محمد رمضان عبد العزيز** أستاذ العصور الوسطى المساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس على تفضله بقبول المناقشة، رغم علمي بمدى مشغوليته، وكثرة أعبائه، وضيق وقته، فله مني جزيل الشكر والتقدير على قراءته للرسالة، وعلى الملاحظات التي ستكون نُصب عيني عند إخراج هذا البحث.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من عاونني في إخراج هذا البحث إلى النور وأخص

التعريف بالمصادر

يتناول هذا العرض التعريف بمصادر موضوع: حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس

الصليبية في القرنين (١٢-١٣م/٦-٧هـ)، وقد استلزم ذلك الرجوع إلى العديد من المصادر: اللاتينية، والعربية، والأجنبية، بالإضافة إلى كتب الرحلات والحوليات.

أولاً: المصادر اللاتينية:

من المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها الدراسة كتاب تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار (Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum) لوليم الصوري[1]، ويعد هذا الكتاب من أكثر المصادر اللاتينية دقة وشمولاً، وتكمن أهمية هذا المصدر في أنه يتناول فترة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠هـ، وقد اعتمد وليم في كتابه على مؤلفات بعض المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى، مثل فوشيه دي شارتر، وألبرت دي أكس، كما اعتمد على روايات شهود العيان والوثائق الملكية، والرسائل المتبادلة بين اللاتين في الشرق الأدنى والغرب الأوروبي.

(١) ولد وليم الصوري في بيت المقدس عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، وقد عاش هذا المؤرخ فترة شبابه في الشرق الإسلامي، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية، وتنقل وهو في مقتبل العمر بين مدن باريس وشارتر لتلقي العلم. ثم توجه إلى إيطاليا، وعاد إلى الأراضي المقدسة بعد عشرين عاماً. وعمل وليم الصوري في خدمة الملك عموري الاول (Amerlic I) ١١٦٣-١١٧٤م/٥٥٧-٥٧٠هـ وعمل مربياً لابنه بلدوين الرابع المجذوم، في الوقت الذي أخذ فيه يترقى في المناصب حتى أصبح مستشاراً للمملكة الصليبية ورئيساً لأساقفة صور عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ كما تم تكليفه بمهام رسمية وسفارات مهمة. ومن المرجح أن وليم الصوري مات عام ١١٨٤م/ ٥٨٠هـ انظر:

Krey "William of tyre the making of an Historian in the middle ages, in "S.", vol. XVI, 1947, PP.149-166; Crowford, "William of tyre and Maronites, "S." vol. XXX, 1999, P.222-228;

عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م (٢١)، ١٩٦٧م، ص١٨١-٢٠٠.

وقد رجعت الباحثة إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب

William of tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. By Babcock and Krey, New York, 1948.

ويعد ما كتبه وليم بداية من أحداث ١١٦٧م/٥٦٣هـ أكثر أجزاء مؤلفه قيمة تاريخية وأصالة، فقد كان شاهداً للعيان لما جرى في هذه الفترة، وكان محل ثقة البلاط الصليبي، ومستشاراً للمملكة، وصاحب النفوذ الكبير فيها الأمر الذي جعله مشاركاً في القرارات السياسية الصليبية.

وتكمن أهميته في توضيح أهمية بعض الحصون والقلاع التي استفادت منها الدراسة مثل حصن بيت جبرين، قلعة يبنى، قلعة تل الصافية، حصن تبنين، حصن تل المعشوقة، قلعة غزة، قلعة كوكب الهوا، وغيرها من القلاع والحصون الصليبية التي أمنت طريق يافا-القدس(طريق الحجاج)، وكذلك تأمين المملكة الصليبية بشكل عام.

ومن المصادر اللاتينية التي لا غنى عن الرجوع إليها كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين لبيت المقدس" للمؤرخ الصليبي فوشيه دي شارتر[1] Fulcher of Chartres، وقد اعتمدت على الترجمة الإنجليزية للكتاب وهي بعنوان A History of Expedition to Jerusalem، ويرجع أهمية الكتاب في أن صاحبه لم يدون سوى الأحداث التي شاهدها بنفسه، أو تلك التي ينقلها عن شهود عيان، أو التي جمعها من مصادر موثوق بها، لهذا اعتمد عليه عدد كبير من المؤرخين اللاتين المعاصرين، والذين جاءوا من بعده.

وتكمن أهمية هذا المصدر في ذكر خطاب البابا أوربان الثاني Urban II في كليرمونت ودعوته لتسليح الحجاج، وكذلك ذكره لحملة البنادقة التي أتت إلى فلسطين كحجاج وتجار في عام ٥١٧هـ/١١٢٣م، وكان على رأسها دوج البندقية دومينكو ميخائيل Dominic Michili ١١١٧-١١٣٠م، وعدد كبير من الحجاج المتطوعين، مع ملاحظة أن فوشيه قد أغفل حادثة اكتشاف رفات الأنبياء (عليهم السلام) في الخليل عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ وهذا

(١) ولد فوشيه بمدينة شارتر الفرنسية في الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٨-١٠٥٩م/٤٥٠-٤٥١هـ واشترك في الحملة الفرنجية الأولى في شهر أكتوبر ذو القعدة ١٠٩٦م/٤٨٩هـ وكان مرافقاً لبلدوين الأول، وأقام معه في الرها حيث كان يحكمها نحو عامين، ثم انتقل معه إلى بيت المقدس، وبقى ملازماً له حتى وفاته عام ١١١٨م/٥١١هـ ثم إن فوشيه مكث في بيت المقدس حتى عام ١١٢٧م/٥٢١هـ.

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. By Frances Rita Ryan, with an introduction by Harold, S. Fink, Konuville U.S.A 1969;

السيد الباز العريني، مؤرخو الحرب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص٣٧-٤٤؛ جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. الإسكندرية ١٩٦٣م، ص٦-٨.

أمر غريب بالنسبة لمؤرخ عاش في بيت المقدس، وليس ببعيد عنها.

ويلي كتاب فوشيه في الأهمية ما ألفه ألبرت دي أكس[1] Albert d' Aix تحت عنوان: تاريخ بيت المقدس Historia Hierosolymitani، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه من المصادر المهمة لدراسة الحملة الصليبية الأولى، وقيام مملكة بيت المقدس، وغزوات الصليبيين ضد البلدان الإسلامية، وحروبهم مع المسلمين، وعلى الرغم من أن ألبرت لم يأت إلى الشرق، إلا أنه وضع كتاباً مهماً عن الحملة الصليبية الأولى، وعن أحوال الصليبيين في الأراضي المقدسة، وقد اعتمد ألبرت في كتابه على ما سمعه ممن اشترك في الحملة الأولى، فضلاً عما استقاه من المصادر المعروفة، وبعض المراسلات، وقد أفاد الباحثة في إلقاء الضوء على تأمين حدود الكيان الصليبي بالتصدي للمقاومة الإسلامية عن طريق إنشاء العديد من القلاع الصليبية، التي تقوم بدورها في تأمين الحجاج الصليبيين.

ثانياً: كتب الرحلات:

ثم يأتي بعد ذلك، النوع الثاني من الكتابات اللاتينية في هذا المجال، ويتمثل في مؤلفات الرحالة الأوروبيين، وتأتي رحلة سايولف[2] الذي زار المنطقة في عام ١١٠٢-١١٠٣م/٤٩٥-٤٩٦هـ من أوائل الرحلات الأوروبية، نظراً لأنها تمت خلال السنوات الأولى من تاريخ الاستقرار الصليبي.

وتكمن أهميتها بصفة خاصة في أن صاحبها انفرد بالإشارة إلى أساليب المقاومة التي كان يتبعها أفراد المقاومة الإسلامية ضد القوات الصليبية من خلال نصب الكمائن، واتخاذ المناطق الجبلية الوعرة، والكهوف كمواضع مهمة لمراقبة تحركات الحجاج الصليبيين المسلحين، وتحين الفرص المناسبة لمهاجمتهم، وإيقاع خسائر بشرية جسيمة بين صفوفهم، أن

---

(1) ينتمي ألبرت إلى مدينة أكس شابل Aix La Chapelle أو آخن Aachen الألمانية، وكان هذا المؤلف كاهناً وأميناً لكنيسة أكس، ولم تمدنا المصادر الغربية المتوافرة أو المراجع الحديثة بأي معلومات أخرى عن اسمه الكامل أو عن أسرته، كما أن المصادر لم تشر إلى تاريخ ولادته أو وفاته، عن ذلك انظر: السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص٩٦-٩٨؛ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين، ص١٠-١١.

(2) من خلال الرحلة تبين أنه من إنجلترا، وأن سايولف مجرد لقب أطلق عليه، أما كونه من رجال الكنيسة أو من العلمانيين، فهذه ناحية ليس من اليسير التأكد منها، ولكن بصفة عامة تغلب عليه العاطفة الدينية بصورة واضحة. انظر: محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص٤٢.

هذه الصورة تفيد في الوقوف على الوضع الأمني المضطرب في بداية عهد مملكة بيت المقدس الصليبية، كما تفيد في التأكيد على أن هناك أشكال من المقاومة الشعبية الفلسطينية من المسلمين في مواجهة المعتدي الصليبي.

ومن المعالم العمرانية التي تناولتها رحلة سايولف، تلك المؤسسات الدينية، العامرة منها والدارسة، وأهمها كنيسة الضريح المقدس، التي حظيت باهتمام بقية الرحالة أيضاً، إضافة إلى كنيسة السيدة مريم، وكنيسة القديسة حنة St. Anna والدة السيدة مريم، وكنيسة الروح القدس Holy Ghost، وتعرض شذراً إلى مدخلات معمارية بسيطة للصليبيين في كنائس مثل الجثمانية Gethsemane بالقدس.

كما اهتم الرحالة بعدد من الأديرة، ومنها دير القديس سابا St. Sabbas الذي ذكر أنه ضم ثلاثمائة راهب يوناني Greek، ودير القديسة مريم المباركة العذراء The Blessed Virgin Mary، وثلاثة أديرة أخرى فوق جبل طابور Mt. Tabor بالخليل، وهي أديرة تحمل أسماء الأنبياء: عيسى وموسى وإلياس (عليهم السلام) فضلاً عن مستشفى يوحنا المعمدان John the Baptist الواقعة بالقدس، فكانت شهاداته مهمة في الوقوف على حركة التطوير للأبنية الدينية داخل القدس وغيرها من كنائس وأديرة، إذ أنها تسجل أول أوصاف لهذه الأماكن قبل أن تمتد إليها أيدي الصليبيين بالترميم، والتعديل، أو الإضافة أو الهدم، مما ييسر عليه الوقوف على ما أنجزه الصليبيون فترة غزوهم للمنطقة في هذا المضمار، وذلك من رجل كان شاهد عيان كاثوليكي العقيدة صليبي النزعة، فبدت كتاباته، وقد شكلت حلقة الوصل بين كتابات رحالة مسيحيين مبكرين والرحالة الصليبيين المعاصرين[1].

وتعد رحلة "الحاج الراهب دانيال الروس"[2] في الأراضي المقدسة، الواقعة بين عامي

---

(1) علي أحمد محمد السيد، أدب الرحلة مصدراً لتاريخ الحروب الصليبية (٤٨٨-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص٤٨-٤٩.

(2) لقد قدم مع العديد من الروس لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية منذ أن اعتنق الأمير فلاديمير الأول Vladimir I (٩٨٠-١٠١٢م) المسيحية وفرضها على شعبه، ومن المحتمل أنه قدم من مقاطعة تلرينكوف Tchernigov الروسية. ويفترض البعض أنه دانيال الذي عمل أسقفاً لمنطقة سوريف Suriev في عام

١١٠٦-١١٠٧م/٥٠٠-٥٠١هـ من الرحلات ذات الأهمية الكبيرة، فقد قام بزيارة فلسطين والأردن، ومعظم مدن الشام، واهتم بزيارة الأديرة، وتحتوي الرحلة على وصف لبيت المقدس، ووصف الآثار المقدسة، وأيضاً تفاصيل عن أحوال بلاد الشام تحت الحكم الصليبي.

تكمن أهمية الرحلة كذلك في أن صاحبها تعرض إلى مسألة الأمن في هذه المنطقة، وتحدث عن استمرار المقاومة الإسلامية فيها، حتى إنه لم يتمكن من مواصلة رحلته إلى البحر الميت، كما أنه عاد وسط مجموعة حجاج مسلحين إلى بيت المقدس، وقد كشف هذا الأمر عن عدم استقرار السيطرة الصليبية على مجمل فلسطين حتى بعد مرور حوالي عقد من الزمن على الغزو.

لقد اهتم الملوك اللاتين بالحج والحجاج، بدليل ما أشار إليه دانيال من أن الملك بلدوين الأول اصطحبه هو ورفاقه لزيارة الجليل، على الرغم من أنه من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، مما يدل على ذكاء القيادة السياسية في صورة الملك الصليبي بلدوين الأول في تدعيم تدفق الحجاج إلى الأراضي المقدسة من شتى الطوائف المسيحية، مما يدر دخلاً اقتصادياً كبير على المملكة الصليبية وخصوصاً في بداية العقد الأول من تاريخها في المنطقة.

أما عن رحلة الحاج فتيلوس[1] (١١١٨-١١٣٠م)، فتكمن أهميتها أنه قد زار المملكة في فترة حكم بلدوين الثاني، وتميزت هذه الرحلة بأنها ضمت معلومات مختصرة، ولم يسبق ذكرها في الرحلات التي سبقته إلى زيارة الأرض المقدسة، ومن ذلك إشارته إلى أن الفرنج أحيوا ذكرى دينية، تتمثل في استضافة النبي إبراهيم ﷷ للملائكة الثلاثة عند خيمته في ممري، حيث كان يقام احتفال سنوي مهيب في نفس المكان الذي أقيم فيه المذبح، فعرفت هذه المناسبة باسم عيد الثالوث المقدس Feast of the Holy Trinity.

١١١٥م، والذي توفي عام ١١١٢م انظر: سعيد البيشاوي وداود إسماعيل، ط. عمان ١٩٩٢م، ص٢٣؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس، ص٧٦.

(1) إن حجم ما نعرفه عن فتيلوس ضئيل، وهناك من يشير على أنه عمل رئيساً للشمامسة في أنطاكية، وقد قام برحلة خلال المرحلة من عام ١١١٨م إلى عام ١١٣٠م إلى مناطق مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك الصليبي بلدوين الثاني. انظر: محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى نماذج مختارة، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٥.

اهتم فتيلوس بالنشاط التجاري للحجاج الصليبيين، حيث سلط الضوء على مينائي: عكا، وصور، في مجال التجارة مع بلاد البحر المتوسط الأوروبية، وأكد على أن ميناء عكا يعد أكبر المواني الشامية على ساحل هذا البحر.

أما فيما يتعلق بالعمارة الصليبية، فقد تناول فتيلوس في رحلته الجانبين الديني والعسكري، فيما يختص بالجانب الأول، انفردت الرحلة بالإشارة إلى ما تم من تطوير في الهيئة الكهنوتية داخل كنيسة القيامة، وذلك بإمداد جماعة القساوسة فيها بمجموعة منشدين (جوقة من المرتلين)، وما صاحب ذلك من تعديلات داخل المبنى. كما أسهمت الرحلة في إلقاء الضوء على تكوينات دير بيثاني، فذكرت السرداب الذي جدد الصليبيون داخله ضريح النبي ليعازر، والقديسة مريم المجدلية، ووصف البساتين التي تضمها الدير.

واحتلت رحلة الرحالة الألماني يوحنا أوف ورزبرج John of Wurzberg(١١٦٠-١١٧٠م)[1]،مكانة متميزة من بين الرحلات التي قام بها الرحالة الأوربيون، وتكمن أهمية هذه الرحلة في إلقاء الضوء على الجانب الطبي للحجاج الصليبيين خلال القرن الثاني عشر الميلادي، والدور العلاجي الذي قام به فرسان الاسبتارية من خلال مستشفاهم الذي أسسه الأمالفيون في بيت المقدس.

وقد ذكر أن مستشفاهم في بيت المقدس – وهي التي شيدت بالقرب من الكنيسة – التي شيدت على شرف القديس يوحنا المعمدان St. John the Baptist، احتوت على حجرات عديدة، ضمت عدداً كبيراً ومتزايداً من المرضى، سواء من الرجال أو النساء، وهم يتماثلون للشفاء يومياً على نطاق متسع للغاية، وعندما كان يزور تلك المستشفى علم أن العدد الإجمالي لأولئك المرضى يقدر بألفين، ومنهم من يتوفاه الله ﷻ، وهؤلاء يبلغ عددهم أكثر من خمسين شخصاً بصورة يومية، غير أن هناك العديدين الذين يواصلون حياتهم بعد تماثلهم للشفاء، وتكشف هذه الإشارة عن دقة ذلك الرحالة الذي ذهب إلى تلك المستشفى، وقدم لنا أرقاماً ذات طابع إحصائي عن دورها العلاجي، ولذلك يعد شاهد عيان معاصراً للدور الطبي لتلك المؤسسة العلاجية، التي من الواضح أنها قامت بدور بارز في خدمة آلاف الحجاج

---

(1) رحالة ألماني، ينتسب إلى مدينة ورزبرج، التي تقع شمال بافاريا Bavaria على نهر المين Main، وهي عاصمة فرنكونيا السفلى Lower Franconia، وبعدت حوالي ١٠٠كيلو متراً، أو نحو ٦٢ ميلاً من مدينة فرانكفورت. محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ص٢٩.

المسيحيين المرضى الذين قصدوها للعلاج(1).

كذلك احتوت الرحلة على تناول عدد من الكنائس المسيحية في الأرض المقدسة والأديرة، مثل كنيسة المخلص وكنيسة الصعود، وكنيسة القيامة، وكنيسة مريم المجدلية. أما الأديرة فهناك دير القديس ساباس، ودير تم تكريسه للقديسة ماري St. Mary، وقد أقيم بالقرب من كنيسة القديس يوحنا.

أما فيما يختص برحلة يوفروسيني (2) Euphrosine (١١٦٢-١١٧٢م)، فقد احتوت رحلتها على العديد من الإشارات السياسية والاقتصادية، والدينية، مع ملاحظة أن الأخيرة تزايد أمرها في ثنايا الرحلة من خلال طبيعة تلك السيدة الروسية ذاتها ووصفها بأنها راهبة.

وقد قامت يوفروسيني بوضع مصباحاً ذهبياً(3) عند الضريح المقدس أثناء قيامها برحلتها، فقد كانت إمرأة وسط عدد كبير من الحجاج والرحالة الرجال، وقد ندرت في العصور الوسطى أن تصل إلينا رحلة امرأة أوروبية حجت إلى فلسطين، مما أعطى لتلك الرحلة أهمية خاصة. من زاوية وجود شخصيات نسائية قامت بالحج والتبرك بأضرحة القدسين، بالإضافة إلى كونها أيضا قديسة.

وتمثل رحلة الرحالة اليهودي الأسباني بنيامين التطيلى (١١٦٣-١١٧٠م)(4)، مكانة

---

(1) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوريبون في العصور الوسطى، ص٣٢-٣٣.

(2) يوفروسيني Euphrosine ابنة أمير بولوتسك Polotsk جورج فسيزلافيتش George Vseslavitch، يعود نسبها إلى الأمير الروسي فلاديمير Vladimir أمير كييف Kiev، الذي قام بدور بارز في تحويل روسيا إلى المسيحية لتتبع من بعد كنيسة بيزنطة الأرثوذكسية، وقد التحقت بسلك الرهبنة منذ نعومة أظفارها من خلال الأديرة التي انتشرت في ربوع بلادها في أعقاب تحولها إلى المسيحية، تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بعيدها في ٢٣ مايو من كل عام.

Euphrosine, Pelerinage au Palestine de L'Abbesse Euphrosine, Traduit par de Khitroux, R.O.L., T. III, Année 1895., P.32;

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوريبون في العصور الوسطى، ص٣٥.

(3) ومن المعروف أن مدينة بيت المقدس حينذاك انتشرت فيها المحال التي تبيع المصابيح، والصلبان، والتماثيل الدينية التي أقبل على شرائها واقتنائها الحجاج الذين قدموا من بقاع بعيدة لزيارة تلك المواقع، التي ارتبطت بذكريات المسيحية المبكرة، وقد ازدهرت تلك التجارة خلال المواسم والأعياد الدينية، حيث استقبلت مملكة الصليبيين أعداداً غفيرة منهم.

Euphrosine, Pelerinage au Palestine de L'Abbesse Euphrosine, P.33.

(4) هو الربى بنيامين التطيلي ووالده يدعى يونا Jonah، وقد ارتحل إلى الشرق من مدينة طليطلة Tudela،

متميزة بين الرحالة اليهود، وتكمن أهميتها في أن صاحبها عاصر الحروب الصليبية، وقام بزيارة مصر والشام في إطار رحلة كبرى طالت بلاداً عديدة؛ ومن ثم فهي تختلف عن الرحلات الصليبية، التي لم تتصف باتساع نطاقها، إذ تجاوزت الأراضي المقدسة، بل وهي تختلف أيضاً عن الرحلات اليهودية السابقة عليها من حيث عدم الاقتصار على الجانب الديني البحت، ومع ذلك احتوت الرحلة على كثير من الشواهد التي تبرز تعصب هذا الرحالة لليهود، وحرصه على أن يذكر مواطنهم وعددهم، ووضعهم العلمي والاجتماعي، وعلاقتهم بمن حولهم.

وتكمن أهمية الرحلة في ذكر تفاصيل عن مستشفين هناك، كان أحدهما يخص طائفة الاستبارية مكملاً الصورة، التي رسمها أقرانه من الرحالة الصليبيين، كما أشار إلى بوابات المدينة الأربع، وتحدث عن المعمار الديني الصليبي، ذكر عدداً من الكنائس والأديرة داخل القدس وخارجها، وذكر أن كنيسة سانت إبراهام في الخليل كانت معبداً لليهود قبل الغزو، ويزور اليهود مغارتها مقابل إتاوة كما تحدث عن حائط المبكى، الذي يسميه بالحائط الغربي (حائط البراق)، ودأب اليهود على زيارته، ولكنه في العادة لا يجد ما يجسد هذا النوع من المعمار الخاص باليهود، فيكتفي بذكر قبور آبائهم، كما هو الحال حين الإشارة لقبور جبل الكرمل القريب من حيفا، والثلاثة قبور الواقعة فوق جبل صهيون(1).

أما فيما يختص برحلة فتاحية الراتسبوني(2) (١١٧٤-١١٨٧م) فقد أمدتنا الرحلة بمعلومات فريدة عن الحرم الإبراهيمي، ومكوناته المعمارية التي أضيفت إليه من خلال الصليبيين، فقد ذكر أنه قدم مالاً لحارس المبنى، فأتاح له الفرصة النزول إلى الغرف السفلية

وتجول في العديد من المناطق سواء في أوروبا وأسيا وأفريقيا، وعاد أدراجه إلى أسبانيا عام ١١٧٣م، ويقال إنه خلال ما يقرب من سبع سنوات زار مئات المواقع في كافة أنحاء العالم القديم. انظر: ت عزرار حداد، ط. بغداد ١٩٤٥م؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوريبون في العصور الوسطى، ص٣٩.

(1) علي أحمد محمد السيد، أدب الرحلة مصدراً لتاريخ الحروب الصليبية، ص٨٧.

(2) هو ابن الربى يعقوب Jacob، أخ الربى إسحاق هالغان Issac Halvan، والربى نكمان الراتسبوني Nachman of Ratisbon، وقد ولد في راتسبون في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وأقام عدة أعوام في براغ Prague، ومنها بدأ رحلته إلى بولندا Poland، وأرمينية Armenia، وكييف Kiev، ثم إلى فارس، وبلاد الشام، واليونان، وغيرها.

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوريبون في العصور الوسطى، ص٥٣.

التي كان الصليبيون قد أدخلوا عليها تعديلات وإضافات جديدة، كما أبهر فتاحية بروعة الأبنية والرخام حول شجرة ممري في الخليل.

أما فيما يختص برحلة يوحنا فوقاس[1] ١١٨٥م، فقد جاءت بمعلومات وتفاصيل خاصة بالعلاقات بين رجال الدين اللاتين والبيزنطيين في تلك الفترة، خاصة في أمور الشعائر الدينية، وكذلك وصف الرحالة كنيسة المهد، وكنيسة القبر المقدس، وذكر أن القبر كان مزيناً بالذهب الذي أهداه الإمبراطور مانويل كومنين في وقت كانت فيه الكنيسة اللاتينية والبابوية هي صاحبة السيادة في بلاد الشام. وهذا يدل على نجاح الإمبراطور البيزنطي في حماية مصالح البيزنطيين تجاه اللاتين، وتناولت الرحلة أيضاً ذكر عدد من الأديرة قام بزيارتها الحجاج الصليبيين مثل: دير القديس ثيودوسيوس St Theodosius، ودير القديس يوثيميوس الكبير St. Ethymis the Great، ودير العمود، دير النبي Elias، دير الراعي، ودير القديس فاريتوس أوخاريستون St. Charitos أو Choriston.

أما عن رحلة بورشارد من جبل صهيون[2] (١٢٣٢م/٦٣٠هـ)، الذي قدم إلى الشرق ١٢٢٢م/٦١٩هـ زار مصر والشام، وأقام بالقدس وعكا، ودون مشاهداته في رحلته المسماة Description of the Holy Land، فتكمن أهميتها في احتوائها على معلومات تتعلق بوصف فلسطين وبلاد الشام، هذا بالإضافة إلى المدن المحيطة ببحيرة طبرية.

كما أشار بورشارد إلى اهتمام الحكام المسلمين بالحجاج القادمين من الغرب الأوروبي

(1) هو راهب كريتي عمل في خدمة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين Manual Comnenua (١١٤٣-١١٨٠م/٥٣٨-٥٧٣هـ)، زار الشرق عام ١١٨٥م/٥٨١هـ ويعتبر الرحالة فوقاس من أبرز الحجاج البيزنطيين الذين اهتموا بزيارة الأديرة اللاتينية، وتقصى أحوال البيزنطيين في الشرق في ظل حكم اللاتين.

(2) بورشارد الماني الجنسية، من بلدة ستراسبورغ أو من بلدة ماجديبورغ، التي وقعت على نهر إيلب على بعد ١٢٩كيلو متر جنوبي غرب مدينة برلين، وقد عاصر القرن الثالث عشر الميلادي، ارتبط برهبان الدومينكان الذين أسسهم القديس دومنيك عام ١٢١٥م. واتجه إلى الشرق في عام ١٢٣٢م، حيث قام بزيارة بلاد الشام ومصر، وأرمينيا، لقد مكث في دير جبل صهيون مدة عشر سنوات.
Grabois (A.), "Christian Pilgrims in The Thirteenth century and the Latin Kingdom of Outremer studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, presented to Joshua Prawer, Jerusalem 1982, P.287-288;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ص٨١.

لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، ولعل ذلك يرجع إلى ما يرتبط بموسم الحج من ازدهار التجارة وانتعاشها، ويلاحظ أن بورشارد أسهب في ذكر الآثار الدينية، وأن كان ما كتبه يتسم بالموضوعية إلى حد كبير، والجديد عند بورشارد أنه أخضع البقاع الإنجيلية المقدسة التي زارها للمشاهدة والاستنتاج بيد أنه دهش للاختلاف بين الواقع والإنجيل، وأرجع ذلك إلى ما طرأ من تجديدات وتبديلات في المقدسات، وهذا النهج كان بمثابة إرهاصات مبكرة لعلم الآثار بفارق زمني يبلغ مئات السنين[1].

الجدير بالذكر؛ أن توجه ذلك الرحالة يعبر عن تطور في النظرة الأوروبية تجاه الإسلام، ولا تقارب رؤيته بالصورة الذهنية المتعصبة التي نجدها في المدونات الصليبية، خاصة خلال القرن الثاني عشر الميلادي، كذلك نلمس نقداً ذاتياً لاذعاً للكيان الصليبي، فقد أشار بورشارد إلى أن اللاتين من أسوأ العناصر، واعتقد أن الآثام والخطايا التي ارتكبوها ستجلب عليهم العقاب الإلهي[2].

ثالثاً: المصادر العربية

أهمها كتاب "ذيل تاريخ دمشق" لصاحبه ابن القلانسي[3] الذي يعتبر من أهم الكتب العربية التي عالجت تاريخ بلاد الشام بصفة عامة، ودمشق بصفة خاصة، وتكمن أهميته في تناول تلك الفترة الحرجة التي شهدت نزوح وسيطرة السلاجقة على البلاد، وكذلك الغزو الصليبي للساحل والاستيلاء على بعض المدن. مع ملاحظة أن ابن القلانسي لم يشر إلى الخليل مباشرة إلا مرة واحدة باسم قبر الخليل ﵇، وذلك حينما سجل بإيجاز خبر ظهور أجساد الأنبياء "إبراهيم، إسحاق، ويعقوب" (عليهم السلام) في ٥١٣هـ/١١١٩م، وكان يقصد من ذلك تسجيل الحدث الذي أشارت إليه المصادر الصليبية بأنه اكتشاف لرفات

(1) علي أحمد محمد السيد، أدب الرحلة مصدراً لتاريخ الحروب الصليبية، ص٧٩.

(2) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ط. القاهرة ٢٠١٠م، ص٢١٩.

(3) ولد ابن القلانسي الدمشقي عام ١٠٧٩م/٤٧٢هـ اهتم بدراسة العلوم الدينية والآداب، وأمضى معظم حياته في ديوان الإنشاء بمدينة دمشق، وأصبح رئيساً للديوان، وكان دقيقاً وموضوعياً في كل ما تطرق إليه من كتابات، ولعل منصبه هذا جعله أكثر قرباً من الأحداث، ومكنته من الإطلاع على الوثائق والمراسيم. انظر: السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ط. الإسكندرية ١٩٨١م، ص١١٠؛ دائرة المعارف الإسلامية، ابن القلانسي، ج١، ط. القاهرة ب.ت، ص٣٧٥.

الأنبياء، والجدير بالذكر أن المؤلف أرجع الواقعة إلى أمور قدرية.

ثم يلي هذا الكتاب في الأهمية، ما ألفه ابن الأثير[١] (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) في كتابه الكامل في التاريخ، فهو يعد من أضخم الكتب التاريخية وأكثرها تنظيماً في المكتبة الإسلامية، وأهمها إذ إن ابن الأثير اعتمد في كتاباته على الكثير من المصادر الإسلامية المتخصصة، والكتابات المدونة في البلاد المختلفة، وقد تميز تاريخ ابن الأثير أنه تاريخ عام للأحداث التاريخية، مع التركيز على ما كان يدور في بلاد الشام من أحداث. وتكمن أهميته في ذكر الاتفاقات بين الجانبين الإسلامي والصليبي بشأن تأمين حركة الحجاج الصليبيين، ويتمثل ذلك في صلح الرملة عام ١١٩٢م/٥٨٨هـ، وكذلك معاهدة يافا عام ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ.

أما عن كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، فقد كان من أهمها الإدريسي[٢] (ت:ق ٦هـ/١٢م) في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وقد أفادنا في إلقاء الضوء على قلعة حيفا الواقعة على الساحل الفلسطيني، حيث تمتعت بأهمية اقتصادية كأحد المراكز الاقتصادية على الساحل الشامي، وقد وصف ميناءها بأنه ميناء حسن جيد لرسو السفن، كما أشار إلى تطور كنيسة القيامة على يد الصليبيين بقوله وعليها (أي المقبرة المقدسة) قبة معقودة، قد اتقن بنائها، وحسن تشيدها وأبدع تنمقها، ونظراً لما شهدته الكنيسة من نمو وتطور في تلك المرحلة، فقد غدت جديرة بأن تذكر بالكاتدرائية، وقد أشار الإدريسي إلى برج الأجراس عند وصفه للكاتدرائية، وحدد موقعه بدقة إلى جوار المدخل، بالإضافة إلى وصفه للخليل قائلاً:

---

(١) هو عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ولد في اليوم الرابع من جمادي الأول عام ٥٥٥هـ/الثاني عشر من مايو ١١٦٠م، وانتقل مع والده إلى الموصل، وكان إماماً في حفظ الحديث وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، كما كان خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس،ج٣، بيروت ١٩٦٨م، ص٣٤٨-٣٤٩، مقدمة كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، تحقيق عبد القادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) هو محمد بن محمد الشريف الإدريسي، ولد في مدينة سبتة المغربية عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، ودرس في جامعة قرطبة، ثم طاف في الأندلس وشمالي أفريقية وآسيا الصغرى، ويقال إنه زار فرنسا وإنجلترا، ثم لبى دعوة الملك روجار Roger الثاني فنزل في بلاطه بصقلية حيث كان التأثر بالمدينة الإسلامية لا يزال عظيماً انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص٦٤؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة، ب.ت، ص١٦١؛ محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص١٧.

وفي مسجدها قبر إبراهيم عليه السلام، وإسحاق عليه السلام، ويعقوب عليه السلام، وكل قبر من قبورهم تجاه قبر امرأته. والجدير بالذكر أن الرحالة أشار إلى مدينة الخليل باسم مسجد إبراهيم عليه السلام.

أما فيما يختص برحلة السائح الهروي[١] في الشام (٥٦٩-٥٧٠هـ/١١٧٣-١١٧٤م)، فقد انصبت الرحلة على ذكر المزارات الدينية والآثار، ومن اللافت للنظر أن هذا النهج لم يقتصر على الاهتمام بما يتعلق منها بالبقاع الإسلامية، إنما شمل عديداً من البقاع التي تتعلق بالتراث المسيحي أيضاً، وهذا دليل آخر على اتساع أفق الرحلة الإسلامية وتعدد ثقافتها، وبالتالي تنوع المادة التاريخية، الأمر الذي جعل من الرحلة الإسلامية مصدراً لكتابة تاريخ الحروب الصليبية في الجانب الديني على ذلك، نجد هناك ثلاثة مجموعات من البقاع التي تحمل ذكريات دينية، الأولى منها إسلامية، والثانية مشتركة بين المسلمين والمسيحيين، وربما أيضاً اليهود. أما المجموعة الثالثة فتخص المسيحيين بالدرجة الأولى، وفيما يختص بالبقاع الدينية الخاصة بالمسلمين، أشار كتاب "الإشارات إلى معرفة الزيارات" إلى أن بلاد الشام كانت موضع مئات من قبور الصحابة والأولياء والعلماء، وأضرحة للأنبياء (عليهم السلام).

أما عن المجموعتين الثانية والثالثة، اللتان تنصبان على المواضع المقدسة عند معتنقي الأديان الثلاثة، فقد حرص الهروي على زيارة الحرم الإبراهيمي في الخليل الذي كان قد حوله الصليبيون إلى كنيسة تدعى سانت إبراهام St. Ebraham نظراً لأنه شاع وقت الحروب الصليبية أنه تم اكتشاف مقابر للأنبياء في الموضع.

وأخبرنا الرحالة أن زيارة الحرم لم تنقطع إلى هناك في ظل الوجود الصليبي، كما أورد بعض الروايات ترجع إلى ما قبل الغزو عن محاولات قام بها مسلمون للدخول إلى مغارة الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) إضافة إلى زوجاتهم، وأبدى الرحالة اهتماماً شديداً بتتبع دقائق حادثة اكتشاف الصليبيين لرفات الأنبياء (عليهم السلام) رغم

---

(١) هو علي بن أبي بكر بن علي الهروي، ولد بالموصل، وأصل أسرته من هراة بإقليم خراسان، طاف ببلاد سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبيزنطة وجزر البحر المتوسط حتى صقلية، وتنقل في مزاراتها ومساجدها بل وكنائسها، وكان له نزعة صوفية، ووصل برحلته إلى الإسكندرية في عام ١١٧٤م، ووقع في أسر الفرنج عام ١١٩٢م، ثم قضى أيامه الأخيرة في حلب حتى توفي عام ١٢١٧م. انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص٨٩؛ أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص٢٨٥؛ محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ص٢٦٥.

مرور ما يزيد عن نصف قرن على هذا الحادث، حيث حرص على مقابلة شهود العيان من كبار السن من الفرنج المعاصرين، ذاكراً بعض أسمائهم، ناقلاً رواياتهم، بيد أنه فسر الحادثة بأنها جاءت نتيجة لوقوع انخساف في موضع المغارة، وكان دقيقاً في تحديد تاريخ ذلك، حيث حدده بعام ٥١٣هـ الموافق ١١١٩م. وفي هذا الصدد دقق الرحالة المسلم في نقل معلومات انفرد بها عما ورد بسائر المصادر العربية المتاحة، حيث أشار إلى اهتمام الملك بلدوين الثاني Baldwin II (١١١٨-١١٣١م) بالاكتشاف وإقدامه على اتخاذ إجراءات لحماية المغارة وما بها من رفات(١).

رابعاً: المعاجم الجغرافية وكتب البلدان

أما عن رحلة ابن جبير(٢) فهي تمثل أهمية كبيرة حيث أفاد هذا المصدر الباحثة في توضيح أهمية بعض الحصون والقلاع الصليبية مثل: تبنين، وهونين، وعكا التي شيدها الصليبيون لاستخدامها لتأمين حركة الحج.

أما بالنسبة لكتب المعاجم الجغرافية، وأهمها معجم البلدان لياقوت الحموي(٣) (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، فقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات عن أماكن بعض المدن والقلاع التي أفادت الدراسة، وكذلك أبو الفداء(٤) (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) في كتابه تقويم البلدان.

---

(١) علي أحمد محمد السيد، أدب الرحلة مصدراً لتاريخ الحروب الصليبية، ص٢٩-٣٠.

(٢) ولد ابن جبير في مدينة بلنسية الأندلسية ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ودون كتابه حوالي ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وتوفي ٦١٤هـ/أول سبتمبر ١٢١٧م عن ذلك انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص٧٠؛ السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص٢٢٠-٢٢١؛ ابن جبير، دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٢٣٧.

(٣) ولد ياقوت الحموي بين سنتي (١١٧٨-١١٧٩م/٥٧٤-٥٧٥هـ)، في بلاد الروم، وكان قد أسر وهو صغير، ثم اشتراه أحد تجار بغداد وعلمه لكي يعتمد عليه في تجارته وتنقل ياقوت بين العديد من الأمصار المختلفة، واعتمد في كتابه على الكثير من الكتب الجغرافية والتاريخية، وكان أميناً في نقله عن الجغرافيين والمؤرخين، وتوفي في عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م). انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص١٠٢-١٠٥؛ عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، ج١٣، ط. بيروت ١٩٥٧م، ص١٧٨-١٧٩؛ أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٧٧-١٧٨؛ محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ص٧٣-٧٤.

(٤) ولد أبو الفداء بدمشق عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، حيث استقر أهله بعد فرارهم من وجه المغول، وكان جده أميراً على حلب، وقد استعادت أسرته مجدها في عصر الناصر محمد بن قلاوون الذي عين أبو الفداء حاكماً

أما عن أهم المراجع الحديثة التي تم الاعتماد عليها، ما ألفه إبراهيم سعيد فهيم بعنوان: حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١-١٥١٧م/ ٦٩٠-٩٢٣هـ)، ج١، ط. الإسكندرية ٢٠٠٧م، ثم ما ألفه جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٧م، كذلك ما ألفه حسن عبد الوهاب، دراسات في التاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م، وكتاب علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، وكتابي محمد مؤنس عوض، الرحالة الأروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ط. القاهرة ١٩٩٢م، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، وأيضاً كتاب أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ترجمة علي السيد علي، ط. القاهرة ٢٠١٠م.

وبالنسبة للمراجع الأجنبية فقد كان من أهمها كتاب Attwater بعنوان The Penguin dictionary of Saints، وكذلك كتاب Benvenisti تحت عنوان The Crusaders in the Holy Land، وكتاب Conder بعنوان The Latin Kingdom of Jerusalem، وأيضاً كتاب Janin تحت عنوان Four Paths to Jerusalem (Jewish Christian, Muslim, and Secular Pilgrimages)، بالإضافة إلى العديد من المراجع والدوريات العربية والأجنبية التي ساعدت الباحثة في سد الكثير من الثغرات في موضوع الدراسة.

عام ٧١٠هـ/١٣١٢م، ثم صار ملكاً عام ٧١٢هـ/١٣١٢م، وانتهى الأمر بتنصيبه سلطاناً لمملكة حماة، ولقب بالملك المؤيد عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م. انظر: أحمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٩٧.

تمهيد

تاريخ الحج قبل القرن الثاني عشر الميلادي

تتناول الباحثة في هذا التمهيد دراسة تاريخ الحج قبل القرن الثاني عشر الميلادي من حيث مفهوم الحج في المسيحية، والحج من القرن الأول إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

الرغبة في الحج من الأمور المتأصلة في الطبيعة البشرية، فالطواف بالأراضي التي وقف عليها أولئك الذين نجلهم ونحترمهم، ومشاهدة المواضع التي ولدوا بها، وتعرضوا للعذاب فيها، بما يجعلنا نشعر بما يربطنا بهم من صلة روحية، ويعتبر رمزاً على ما نكنه لهم من ولاء(١).

لقد اختلفت رؤية الإسلام عن المسيحية فلقد نص القرآن الكريم صراحة على القيام بالحج كفرض واجب الأداء على كل مسلم متى استطاع إليه سبيلاً، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي أشارت إلى هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ....﴾(٣)، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٤).

أما بالنسبة للديانة المسيحية فيعتبر الحج المسيحي لبيت المقدس من الطقوس المستحدثة، فليس في صلب الدين المسيحي ما ينص على وجوب الحج على المسيحيين، لذلك فإن مسألة حج الأوروبيين إلى الديار المقدسة في فلسطين كان مبعثه مزيجاً من ارتباط تاريخي فيما يتعلق بحياة السيد المسيح، والمكان الذي بعث فيه، مع ارتباط روحاني في قدسية هذه المناطق، خصوصاً بعد انتشار الكتب الدينية التي أخذت تفيض في وصف السيد المسيح وولادته وأقواله، ثم اضطهاده وصلبه من قبل اليهود، كل ذلك خلق تشوق لدى المسيحيين لزيارة فلسطين التي شهدت بزوغ فجر المسيحية الأولى(٥).

---

(١) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م، ص٨٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيات ٩٦-٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

(٥) تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج (من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نورالدين)،

وعلى الرغم من ذلك فإن فكرة الحج لأماكن المعابد والشهداء لقيت صراعاً منذ فجر العصور الوسطي، فلم يكن أباء الكنيسة يؤيدون هذا الاتجاه(١) بما يصاحبه من وجهة نظرهم من تعرض الحجاج للأخطار، فبذلوا المحاولات لضبطه فقد دعا القديس باخوميوس(٢) (حوالي ٢٩٢-٣٤٥م) من مصر العليا إلى عدم تشجيع الحج باعتباره إحدى الصور المتبقية من العادات الوثنية، ولذلك عندما أحس بقرب نهايته، أوصى تلميذه وخليفته ثيودور بأن يحمل جسده بعد موته ويدفنه في مكان مجهول، حتى لا يتخذ الناس قبره مكاناً للعبادة أو الحج(٣).

ذكر القديس جيروم St. Jeremo(٤) على الرغم من قيامه بالحج بعد ذلك القول، "إن

ط. بني غازي ١٩٨٣م، ص٥١-٥٢.

(١) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٨٨.

(٢) القديس باخوميوس ولد في الجزء الأخير من القرن الثالث في إحدى بلدان إقليم طيبة القديم يقال لها كينوبوسكيون Kynoboskion، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد في قنا، خدم في الجيش الروماني، وفي هذه الفترة تعرف على جماعة مسيحية لأول مرة في مدينة لاتوبوليس (إسنا الحالية)، وأنه بمجرد تركه الخدمة العسكرية اعتنق المسيحية، جمع حوله جماعة من النساك وأقنعهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة الجماعية، وبذلك أنشأ ديره الأول عام ٣٢٣م عند تبنيس Tabennisi بالقريب من دندرة الحالية وبذلك بدأ نظام رهباني جديد يعرف بالرهبنة الجماعية الكاملة وسرعان ما انتشر النظام الباخومي الجديد حتى ليقال إنه عند وفاة باخوميوس عام ٣٤٥م كان قد شمل نظامه أديرة كثيرة في أماكن متفرقة في الصعيد الأعلى. وكان الطابع المميز لهذه الحركة الديرية هو خضوعها لنظام عام موحد يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد. مصطفى العبادي، الإمبراطورية الرومانية (النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية)، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٣) عزيز سوريال عطيه، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ط٢ القاهرة ١٩٩٠م، ص٢٨؛ إبراهيم سعيد فهيم، حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١-١٥١٧م/ ٦٩٠-٩٢٣هـ)، ج١، ط. الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص٩١.

(٤) ولد القديس جيروم في "إستريدو Strido بأقليم دالماشيا Dalmatia عام ٣٤٢م، وتوفي في بيت لحم عام ٤٢٠م، ويحتفل بعيده في ٣٠سبتمبر، والقديس جيروم يوسبيوس هيرونيموس كان أكثر آباء الكنيسة تفقهاً ويعد ضمن العلماء الكبار للإنجيل، نشأ مسيحي، درس لمدة ٨ سنوات في روما ولكنه لم يعمد حتى أصبح عمره يقترب من الثامنة عشر عاماً، في عام ٣٧٤م توجه إلى بلاد الشام وأمضى بضع سنوات مع النساك في الصحراء شرق أنطاكيا، وهناك درس العبرية على يد حاخام عبري، ثم تتلمذ على يد "جريجوري النازيانزي" وأصبح كاهناً في أنطاكيا من عام ٣٨٢ إلى عام ٣٨٥م عمل سكرتيراً للبابا "داماسوس" Damasus في روما، والذي وجهه نحو ترجمة النسخة اللاتينية للعهد الجديد، كما أصبح جيروم قائداً لمجموعة من نساء روما اللاتي انصرفن إلى حياة التصوف والدراسة، وعند وفاة "داماسوس" رجع جيروم

الوصول للجنة من إنجلترا أسهل من الوصول إليها من بيت المقدس فهناك عدد لا يحصى من القديسين الذين لم يروا أبداً بيت المقدس"[1]، أما أوغسطين[2] المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية فقد أدان الحج، واعتبره مضيعة للوقت وخطر يجب تحاشيه[3].

ويبرز لنا رأي القديس جريجوري أوف نيسا Gregory of Nyssa[4] وهو أن الارتحال إلى بيت المقدس لا جدوى منها، وأنها مدينة مثل غيرها من المدن مليئة بالتجار

إلى الشرق وتبعته القديسة باولا والقديسة أوستركيوم، والعديد من أتباعه، وفي عام ٣٨٦م، استقروا جميعهم في بيت لحم، حيث ساعد ثراء باولا على دفع مستلزمات الأبنية التي أقاموا فيها، وكان الرجال والنساء على التوالي يعيشون حياة دينية منظمة.

Attwater, the Penguin dictionary of Saints, London 1975, P.180-181; Diana Webb, Medieval European Pilgrimage C.700-C.1500, New York 2002, P.3;

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوريبون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٣٠ هامش (٩).

(1) إبراهيم سعيد فهيم، حركة الحج الأوروبي، ج١، ص٩١.

(2) القديس أوغسطين ولد عام ٣٥٤م في تاجستا شرقي نوميديا Numidia (شرقي الجزائر اليوم) وعاش في شمال إفريقيا، حيث أصبح أسقفاً لمدينة هيبو Hippo، وظل هناك إلى أن مات في عام ٤٣٠م، ألف كتابه الشهير مدينة الله De Civitate Dei، وبدأ في كتابته عام ٤١٣م وانتهى منه عام ٤٢٦م وقارن فيه بين مدينة الله والمدينة الأرضية، صاحب الإطار اللاهوتي للكاثوليكية المعروف بالنظام الأوغسطيني، والذي استمر حتى عصر الإصلاح الديني. لمزيد من التفاصيل انظر: اعترافات القديس أغوسطينوس، ترجمة يوحنا الحلو، ط. بيروت ١٩٦٢م، ص١-٦؛ اسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص١٣٤-١٣٨؛

Mer Alfred Baudrillart Dictionnaire d' Histoire et de Géographie Eccléstatiques, Vol. VI، Paris 1931، P.440-445.

(3) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٠.

(4) القديس جريجوري أوف نيسا Gregory of Nyssa، ولد في قيسارية Caeserea في كبادوكيا Coppodocia عام ٣٣٥م، وتوفي في عام ٣٩٥م، يحتفل بعيده في ١٠ يناير، كان الأخ الأصغر للقديس بازل الكبير St. Basil the Great درس علم الخطابة وقد تزوج من أمرأة تدعى ثيوسيبيا Theosebeia، وكان القديس جريجوري النازيانزي Gregory of Nazianzus يقدر جداً الرجل وزوجته، وبالتالي تسمى باسمه، كرس إمكانياته في خدمة الكنيسة، حوالي عام ٣٧١م عين جريجوري اسقفاً لـ"نيسا" من قبل أخاه بازل. إن العديد من كتابات القديس جريجوري تفوق غيره من الأباء الكبادوقيين في عمق وثراء فلسفته اللاهوتية، إحدى رسائله كانت تظهر اهتمام خاص فيما يخص العادات الدينية للحج والتي كانت تنتشر في نهاية القرن الرابع الميلادي.

Attwater, the Penguin dictionary of Saints, P.158.

والعاهرات[1].

وكذلك اتخذ القديس يوحنا ذهبي الفم[2] موقفاً مشابهاً، فعلى الرغم من أنه كان يود ألا تحول واجباته الكنيسية بينه وبين السفر إلى فلسطين، إلا أنه كان يسخر من صورة العالم الذي يتحرك بأسره ويسافر إلى فلسطين... لا لشيء سوى إلقاء نظرة على تل يعقوب على حد قوله[3].

لقد أنكر آباء الكنيسة الأوائل قيمة الحج بادئ الأمر، ولكنهم أقروها منذ القرن الخامس الميلادي أو منذ القرن الرابع، وانتهى الأمر بأن أصبحت الكنيسة تطلب إلى الخطاة من أتباعها أن يكفروا عن خطاياهم بالحج إلى فلسطين.

وهكذا بعد أن كان الحج في أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصي للقديسين، جعلت الكنيسة منه نظاماً أساسه تكليف المرء بالحج إلى أمكنة معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له

---

(1) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ترجمة محمد مؤنس عوض، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية "فصول مختارة"، ط. رام الله ٢٠٠٤م، ص٤٠.

أشار كونستابل في صفحتين عن عبارات مقتبسة من كتابات رجال الكنيسة تشير إلى أن هذا الفكر قد استمر حتى القرن الحادي عشر الميلادي مثال ذلك:

أن فكرة رحلة الحج الحقيقية بالنسبة للرهبان والراهبات تكمن في محل اقامتهم وليس في الرحلة ذاتها.

Constable (G.), Monachisme et Pèlerinage au Moyen Age, Religious Life and Thought (11th-12th centuries), London 1979, PP.15-17.

إبراهيم سعيد فهيم، حركة الحج، ص٩١ هامش (٢).

(2) القديس يوحنا خريسوستوم (الذهبي الفم) John Chrysostom ولد في أنطاكية Antioch عام ٣٤٧م، وتوفي في "كومانا" في بونتوس عام ٤٠٧م، ويحتفل بعيده في ١٣سبتمبر، يوحنا خريسوستوم (الذهبي الفم) كان الابن الوحيد لضابط في الجيش الإمبراطورى، ونشأ كمسيحي (رغم أنه لم يعمد حتى سن البلوغ)، كانت وجهته نحو القانون وكان تلميذاً تحت إشراف الواعظ الوثني الكبير ليبانوس ولكنه بعد أن تصوف في الجبال لبضع سنوات، التحق بأبرشية أنطاكية، وهناك اكتسب شهرة متزايدة كواعظ لمدة اثنتي عشر سنة، وفي عام ٣٩٨م انتخب أسقفاً للقسطنطينية، كرم القديس يوحنا كريزوستوم كأحد الحكماء الكبار للكنيسة اليونانية، وفوق كل هذا كان على جانب كبير من البلاغة والفصاحة، كان في مواعظه يستعرض كتب العهد القديم والعهد الجديد وخاصة رسائل بولس، كان هدفه شرح الكتاب المقدس بأسلوب يتسنى لمستمعيه.

Attwater, the Penguin dictionary of Saints, P.194.

(3) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص٣٠.

خطاياه لسنة واحدة أو سبع سنوات أو لمدى الحياة، وأصبحت هذه الفروض واضحة الحدود في سنة ١٠٥٩م[1].

وأصبح مصطلح Peregrinus ومعناه "الغريب" وهو ذلك الشخص الذي ترك موطنه، وسافر بعيداً عنه[2] يأخذ فيما بعد مدلولاً دينياً بمعنى الحج، وكان هذا المصطلح معروفاً عند مسيحية القرون الأولى، وهو عبارة عن نوع من الطواف والتجوال بعيداً عن حياة المجتمع الروماني متخذاً سلوكاً روحانياً، ثم تطور في مرحلة تالية ليتخذ مظهراً رهبانياً[3]، وما لبث هذا المفهوم أن تبلور في شكله النهائي، وذلك مع بداية القرن الرابع ليعني الرحيل للصلاة وزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين[4].

ورغم أن الحج لم يكن فريضة دينية على المسيحيين – كما سبق القول – إلا أن الرغبة في القيام بزيارة أضرحة القديسين، تعتبر عاطفة قوية متأصلة في النفس البشرية، فإن المثول في الأراضي التي ولدوا ثم عاشوا وماتوا فيها تعطي المرء شعوراً بالاتصال الروحي بهم، وبالتالي شعور القيام بعمل ديني له ثوابه وآثاره في تقربهم من الله. لقد كان هذا هو الشعور بالنسبة للقديسين فإنه من الغنى عن البيان وصف شعور المسيحيين إزاء فكرة الحج إلى الأراضي التي يعتقدون بأن السيد المسيح قد قدسها بوجوده فيها[5].

لقد واجه هؤلاء الحجاج صعوبات كثيرة في القرون الثلاثة الأولى من بداية ظهور المسيحية، فقد اعتبر الأباطرة الرومان المسيحية عدواً لهم، وتهديداً خطيراً لوحدة الإمبراطورية الرومانية، فقد دمرت القدس على أيدي قائدين رومانيين هما تيتوس Titus[6]

(1) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٤٣م، ص٤٢.

(2) Sigal (P.A.), les Marcheus de Dieu, Paris 1974, P.5.

(3) Constable (G.), Monachisme et Pèlerinage au Moyen Age, P.4.

(4) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ج١، ص٨١.

(5) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م، ص٩-١٠.

(6) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٨٧؛ جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م، ص١٦٤؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥، ص٣٩.

Tibawi (A.L.), Arabic and Islamic Themes, London 1976, P.357, Herbert (L.W.), Jerusalem, The Biblical world, Vol.26, No.5, (Nov.1905), P.329;

عام ٧٠م وهادريان عام ١٣٠م[1].

وعلى الرغم من ذلك، توجهت بعض الرحلات الفردية إلى بيت المقدس خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، ففي عام ٣١م، وصل أحد رجال الدين الفرنسيين إلى بيت المقدس، وتحدث عن دم النبي يحيى[2] ﷺ، ولكنه لم يترك أي أثر مكتوب وحوالي عام ١٠٠م سافر القديس بروشور St Prochor أحد مسيحي نيقوميديا إلى أنطاكية، حيث توفي هناك[3].

Marbel Dietz, Travel wandering and pilgrimage in late antiquity and The Early Middle Ages, Vol.I, Princeton 1997, P.157.

(١) أكمل الإمبراطور الروماني أبليوس هادريان ما بدأه تيتوس، فحاصر ما بقى من القدس وهدم كل شيء في المدينة، ولم يترك فيها يهودياً واحداً، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان، ووضع فيه تمثالاً لهذا الإله كالتمثال القائم في معبد الكابيتول، وقرر تغيير كل شيء في هذه المدينة حتى اسمها، الذي أصبح مكوناً من اسمه وهو اسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير، فسماها إيليا كابيتولياً ومنع اليهود من دخولها، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك، ثم سمح لهم بالمجيء إليها يوماً واحداً في السنة، والوقوف على جدار بقى قائماً من السور في الجزء الغربي من المدينة، وهو الذي يسمى "الجدار الغربي" ويسميه اليهود "حائط المبكى"، وظل حظر السكن بالقدس قائماً على اليهود قروناً طويلة.

حسن ظاظا، القدس مدينة الله أم مدينة داود، ط. الإسكندرية ١٩٧٠م، ص٣٢؛

Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints dans Dictionnaire d' Archéologie Chretienne, T.14, Paris 1939, P.68; Marbel Dietz, Travel wandering and pilgrimage, P.157-158; Janin (H.), Four paths to Jerusalem, London 2002, P.57.

إلا أن التسامح الإسلامي، سمح لليهود بزيارة أورشليم فقط دون السكن، وبمضى الوقت أجيز لمن أراد منهم الإقامة فيها ولم يمنعوهم من البكاء خارج سور هادريان، وكانوا يفسرون سبب البكاء بأنه التوبة إلى الله وطلب الغفران.

أحمد رمضان، بيت المقدس والخليل، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الأول، ط. القاهرة ١٩٨٢م، ص٥٨.

(2) القديس يوحنا المعمدان، هو أحد رجال الدين من يهوذا، وعاش خلال الفترة التي سبقت ظهور السيد المسيح مباشرة وقد حمل على عاتقه مهمة التبشير بالسيد المسيح ﷺ حتى ظهر حيث قام بتعميده، وقد لقى مصرعه على يد هيردوس، عنه انظر: متى الإصحاح (١) من ١-٦، الإصحاح (٣) من ١٣-١٧؛ مرقس، الإصحاح (٦) من ١٤-٢٩؛ لوقا، الإصحاح (٩) من ٧-٩؛ بطرس الجميل وآخرون، كتاب السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، ج١، ط٢ القاهرة ١٩٦٩م، ص١١؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ص٦٦ حاشية (٥٤).

(3) Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, P.68-70;

وفي بداية القرن الثالث الميلادي وجد عدد من الأشخاص ذهبوا إلى فلسطين للحج منهم الأسقف فرميليان Firmilian وهو رجل دين من قيسارية Caesarea بآسيا الصغرى[1]. وهناك أسقف كبادوكي، وهو الكسندر Alexander الذي زارها بعد فرميليان بسنوات قليلة[2]، حيث وجد أسقفها المسمى نارسيس رجلاً مسناً ومريضاً، فنزل على طلبه بأن يخلفه وهو ما تم في نفس العام[3].

انتهى عصر الاضطهاد للمسيحيين باعتراف الإمبراطور قسطنطين الكبير Constantine the Great (٣٠٦-٣٣٧م) بالمسيحية كديانة مرخصة للإمبراطورية الرومانية، فاتبع سياسة متوازنة تجاه القوى الدينية، وذلك بموجب مرسوم ميلان الشهير عام ٣١٣م؛ وهكذا تغير الموقف تماماً، وبدأ الظهور الحقيقي لحركة الحج في المسيحية، ووجد الحجاج التسهيلات اللازمة من الأباطرة الرومان لزيارة الأماكن المقدسة، وكان من الطبيعي أن تتهافت القلوب إلى بيت المقدس، أقدس الأماكن قاطبة في العقيدة المسيحية[4].

ومع ذهاب الإمبراطورة هيلينا Helena[5] والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير فيما بعد

إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٣.

(1) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ص١٧؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٣٩.

(2) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج فيما قبل عام ١٠٩٥، ص٣٩.

(3) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٤.

(4) Maravel (P.), Lieux Saint et Pèlerinages d' Orient, Paris 1985, PP.66-67.

(5) ولدت القديسة هيلانة عام ٢٥٥م في دريبانوم Drepanon (هيلينوبوليس) Helenopolis في أسيا الصغرى، Asia Minor، وتوفيت في عام ٣٣٠م، ويحتفل بعيدها في ١٨ أغسطس، أتخذها الأمبراطور قسطنطين كلوروس زوجة له، وولد لهما ابناً سمى قسطنطين في عام ٢٧٤م، ولكن في عام ٢٩٢م طردت هيلانة لأسباب سياسية، ومن غير المعروف متى أصبحت مسيحية، ولكن عندما أصبح ابنها إمبراطوراً من قبل الجيش الروماني عام ٣٠٦م عامل أمه بمنتهى التكريم، وأثناء عمرها المتقدم قامت بزيارة مطولة إلى الأرض المقدسة، حيث صرفت مبالغ هائلة في إغاثة الفقراء وقامت بالعديد من الأعمال الخيرية وساعدت في تأسيس كنائس في المناطق المقدسة.

Eusebius Extracts from Eusebius life of Constantine, Trans. by John H. Bernard, B.D., in Palestine pilgrim's text Society, Vol. I. London 1896, P.11; Attwater, the Penguin dictionary of Saints, PP.162-163;

إسحاق عبيد، "قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم حقيقة، مجلة كلية الآداب م(١٧)،

في رحلة حج إلى فلسطين في عام ٣٢٥-٣٢٦م ازدادت حركة الحج إلى الأماكن المقدسة، ويقال أن الإمبراطورة عثرت هناك على موضع الجلجثة، وهو مكان صلب السيد المسيح[1] وفق الاعتقاد السائد عند المسيحيين[2]، ولقد قام ابنها الإمبراطور قسطنطين ببناء كنيسة[3] في ذلك المكان تم الانتهاء منها في عام ٣٣٥م وأطلق عليها اسم كنيسة القيامة، أو الضريح المقدس، وقبل ذلك كان قسطنطين قد أنشأ كنيسة المهد في بيت لحم حيث ولد السيد المسيح[4].

وعلى ذلك صار الحج إلى تلك البقاع تقليداً قائماً لدى الحجاج الأوروبيين، فازداد عدد من ذهب إلى الأرض المقدسة من كافة أنحاء القارة الأوروبية، يقتفون أثر الإمبراطورة هلينا، ولاسيما بعد أن حددت لهم الأماكن المقدسة التي نص عليها في الإنجيل[5].

من الجدير بالذكر أن نوضح أن الحج المسيحي بمعناه الدارج في القرون الثلاثة الأولى

جامعة عين شمس ١٩٧٠م، ص٥-٢١؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٣٩.

(1) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٨؛ Herbert (L.W), Jerusalem, the Biblical world, P.330.

(2) انظر سورة النساء، الآية رقم ١٥٧ حيث قال عز من قائل: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾.

(3) حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٤٧م، ص١٦؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٨٨؛ رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج١، القاهرة ١٩٧٤م، ص١٢٤؛ رأفت عبد الحميد، كنيسة بيت المقدس في العصر البيزنطي، المجلة التاريخية المصرية م(٢٥)، عام ١٩٧٨م، ص٧١؛ مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية (الفرسان الإسبتارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. الرياض ٢٠٠٤م، ص٨٥؛

An Anonymous life of Constantine "in Jerusalem pilgrims before the Crusades by John Wilkinson, London1977, PP.202-204; Tibawi (A.L.), Arabic and Islamic Themes, P.307. Schein (S.), Pilgrimage, in The Crusades an Encyclopedia, Vol. III, California 2006, P.958.

(4) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص٨٨.

(5) Eusebius, Extracts from Eusebius life of Constantine, P.2-11; إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٥.

كان نوعاً من السفر المدفوع برغبة دنيوية أكثر منه كعقيدة(١)، وبمطلع القرن الرابع الميلادي، ونتيجة لما قامت به الإمبراطورة هيلينا من زيارة للأراضي المقدسة بدأت جماعات محدودة العدد من المسيحيين الأوروبيين في التوافد إلى الشرق للحج إلى المحارم المقدسة.

وقد كانت أول رواية مكتوبة عن رحلة حج لحاج فرنسي مجهول من مدينة بوردو Bordeaux(٢) جنوب فرنسا، وذلك في عام ٣٣٣م، ويعد كتابه أقدم مرشد للحجاج المسيحيين الذاهبين إلى فلسطين في ذلك الحين، وقد قدم هذا الكتاب للحجاج وصفاً مختصراً لأبرز المزارات المقدسة(٣).

كان لفشل الإمبراطور جوليان المرتد Julian the Apostate (٣٦١-٣٦٣م) في إعادة الوثنية مرة أخرى إلى الإمبراطورية الرومانية الأثر الكبير في زيادة الحماس للمسيحية وللحج، ففي عام ٣٧٠م قدم أحد أساقفة جزيرة قبرص(٤) للحج لبيت المقدس بصحبة أمه تريفيل Triphylle، وبعده بثلاثة أعوام أتت للقدس، وواصلت رحلتها إلى مصر النبيلة الرومانية القديسة ميلاني St. Melanie(٥). أما في عام ٣٨٢م، فقد حضر لبيت المقدس القديس بروفير St.Prophyre الذي أصبح أسقف غزة - ومعه تلميذه مرقص

---

(1) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٦.

(2) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة، وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر، محمد عناني، ط. القاهرة ١٩٩٨م؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٣٩؛

Wilkinson (J.), Jerusalem pilgrims before the Crusades, P.1.

تقع مدينة بوردو Bordeaux غرب فرنسا على خليج بسكي.

(3) Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, PP.76-78; Roussel (R.), Les Pèlerinages à travers les Siecles, Paris 1954, P.45; Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.63;

رحلة الحاج بوردو كانت صعبة، فقد كان يقطع ٢٠ ميل يومياً وقضى ما يقرب من ٣٢٨ يوماً على الطريق، وبقى في الأراضي المقدسة لمدة ٩٥ يوماً؛

Janin (H.), four paths to Jerusalem (Jewish, Christian, Muslim and Secular Pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE, London 2002, P.60.

(4) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٧.

(5) Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saint, dans Dictionnaire d' Archèologie Chretienne, P.82.

Marcus(١).

وفيما بعد عام ٣٨٥م، حجت بدورها إلى فلسطين ومصر سيدة فرنسية تدعى القديسة سيلفيا St. Silvia(٢) ومن المحتمل أن تكون قد قدمت من فرنسا أو أسبانيا أو منطقة تطل على المحيط الأطلنطي(٣).

ويعد القديس جيروم من أهم الشخصيات التي حجت إلى بيت المقدس في تلك الفترة(٤)، وكان قد أمضى فترة من الوقت في صحراء شمال بلاد الشام عند منطقة قنسرين من أجل أن يعد نفسه ليكون راهباً، ثم دخل في الحياة الديرية، وفي عام ٣٨٥م، غادر روما إلى الشرق، وفي نفس العام ذهب إلى أنطاكية لاستقبال سيدتين من نبيلات روما، هما أم وابنتها كانتا قد قررتا القدوم إلى الشرق للحج، ولكي تمضيا بقية عمرهما كراهبتين هناك، وكان اسم الأم بولا Paula(٥) والابنة إيستوكيوم Eustochium(٦).

---

(1) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٧.

(2) سيلفيا الأقطانية: من أسرة فرنسية نبيلة، اعتنقت المسيحية ورأت ضرورة زيارة الأماكن المقدسة التي عاش فيها السيد المسيح، فأبحرت من غالة عام ٣٨٥م إلى القسطنطينية ومنها إلى الشام عبر أسيا الصغرى حيث قامت بزيارة تلك الأماكن.

St. Silvia, Pilgrimage of S. Silvia of Aquitania to the Holy Places (Circa 385 A.D.,) Trans. By John H. Bernard, B.D., in Palestine Pilgrim's Text Society, Vol. I, London 1891, PP.1-12.

نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص٤٨؛ عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٩؛ محمود سعيد عمران، مصر والشام في كتب الرحالة الأجانب في العصر البيزنطي، ضمن كتاب بحوث في مصادر العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص٨-١٨.

(3) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٨.

(4) Brownrig (R.), Come, See the Place A pilgrim Guide to the Holy Land, London 1985, P.110;

عبدالله بن عبد الرحمن الربيعي، الدوافع الدينية للحركة الصليبية، ضمن ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، إتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٨٤-٨٥.

(5) القديسة بولا هي رئيسة دير، ولدت في روما عام ٣٤٧م وتوفيت في بيت لحم عام ٤٠٤م، ودفنت القديسة بولا بالقرب من مكان ميلاد يسوع أسفل كنيسة المهد، يوم عيدها ٢٦ يناير، تزوجت من عضو مجلس الشيوخ "توكسوتيوس Toxatius" الذي توفى تاركاً لها خمسة أطفال وعمرها لا يتعدى الثالثة

ومن أنطاكية شرع الثلاثة في رحلة الحج التي وصفها القديس جيروم في خطابين، كتب أحدهما عام ٣٩٣م، وفيه خاطب النبيلة الإيطالية مارسيلا Marcella ليدعوها للقيام بنفس الرحلة، شارحاً ما ستغتنمه من مكاسب روحية إذا ما أقبلت لزيارة فلسطين[٢]، غير أنه لم يسهب في التفاصيل، كذلك جاء الخطاب الثاني عرضاً لرحلة الحج التي قام بها مع بولا وابنتها، بعد تسعة عشر عاماً[٣]، وتأتي أهمية القديس جيروم ودوره في تطور فكرة الحج إلى بيت المقدس من خلال انتشار فكرته القائلة أن المسيحي لن يخسر شيئاً إذا لم يحج إلى الأماكن المقدسة[٤] فقوبل رأيه بالتحمس الشديد، وأدى ذلك إلى تضاعف عدد الحجاج الغربيين إلى المدينة المقدسة، وشجعهم على ذلك دعم السلطات البيزنطية مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين، فقد شيدت لاستقبالهم في بيت المقدس وما حولها ما يقارب مائتي

والثلاثون عاماً، وبناء على تأثير صديقتها القديسة "مارسيلا"، وأيضاً القديس جيروم، انسحبت إلى الحياة العلمية، وفي عام ٣٨٥م قررت الاستقرار إلى جوار القديس جيروم في بيت لحم وأخذت معها ابنة واحدة وهي القديسة "إيستوكيوم"، وترأست بولا النسوة في مجموعة القديس جيروم وأنشأت لهن مقراً اجتماعياً، وأنشأت آخر للرجال، وكذلك استراحة للحجاج وتولت الرعاية الشخصية للقديس جيروم، تعلمت بولا اليونانية ودرست العبرية حتى تستطيع ترتيل المزامير بكلماتها الأصلية.
Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, P.260-261.

(1) ولدت القديسة إيستوكيوم في روما عام ٣٦٨م وتوفيت عام ٤١٩م يحتفل بعيدها في ٢٨ سبتمبر، والقديسة إيستوكيوم إحدى بنات القديسة بولا، رافقت أمها الأرملة في عام ٣٨٥م للعيش بالقرب من القديس جيروم في بيت لحم، وللأكثر من ٣٥ عاماً كانت إيستوكيوم التلميذة المفضلة له أثناء حياتها الدينية والتعليمية درست اليونانية والعبرية وساعدت القديس جيروم في عمله التوراتي، وعند وفاة بولا عام ٤٠٤م أخذت القديسة إيستوكيوم على عاتقها رعاية جماعة البنات المكرسات والأرامل اللاتي تضرعن لحياة الرهبنة في بيت لحم، وعبر القديس جيروم عن أساه لموتها بقوله: "لقد كانت امراة ذات جسد نحيل وروح عظيمة".
Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, P.122-123.

(2) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٨٩.

(3) St. Jerame, The Pilgrimage of the Holy Paula, Trans by Aubrey Stewart in Palestine Pilgrim's Text Society, Vol. I. London 1887, PP. III-VIII; Lecterco (H.), Pélerinages aux Lieus Saint, Dans Dicionnaire d'Archéologie Chretienne, P.84-89; Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.1-2.

(4) قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص٢٩؛ ماير، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ج١، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٥.

إلى ثلاثمائة دير ونزل، وكانت جميعها تقريباً تحت الإشراف الرسمي البيزنطي[١] ولقد قام القديس جيروم بتأسيس نزلاً للحجاج عام ٣٨٩م[٢]، وقد حج الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير[٣] Theodosius the Great عام ٣٧٩-٣٩٥م إلى بيت المقدس في عام ٣٨٦م، وأسس بعض الكنائس هناك[٤].

وفي عام ٣٨٨م حج إلى أنطاكية القديس أماتور St. Amateur أسقف أوكسير Auxerre الفرنسية، وبعده بعامين (٣٩٠م) وصل إلى المنطقة اثنان من الأساقفة يقال أنهما عثرا على رأس النبي يحيى عليه السلام المعروف باسم يوحنا المعمدان.

وفي نفس العام جاء إلى فلسطين اثنان من الإيطاليين هما إكسوبرانتيوس Exuperantius وأخيه كوينتيليانوس Quintilianus، وفي عام ٣٩٤م حج إليها القديس إيبفان St. Epiphane أسقف سلامين Salamine الواقعة في قبرص[٥] وفيما بين عامي ٤١٤ و٤١٦ م حج إلى فلسطين الأسباني أفيتوس Avitus حيث أمضى جزءاً من عمره في بيت لحم[٦].

---

(1) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٠.

(2) في البداية بقى القديس جيروم مع بولا في استراحة كان قد بناها كل من روفوس وميلانيا ولكنه انتقد وسائل الراحة في هذه الاستراحة المنتسبة إلى البلاط البيزنطي، ففي عام ٣٨٦م انتقل القديس جيروم إلى بيت لحم ونجده في عام ٣٨٩م يقوم بإنشاء استراحة للحجاج ومدرسة مجانية تمكن فيها القديس جيروم من تدريس اليونانية واللاتينية للأطفال بالإضافة إلى دير للرجال ودير للنساء بمشاركة القديسة بولا.
Janin (H.), Four Paths to Jerusalem, P.63.

(3) ثيودوسيوس الأول ٣٧٩-٣٩٥م هو إسباني الأصل عرف باسم الأول أو الكبير، وفي عهده هدأت ثائرة القوط وذلك بفضل حسن معاملته لهم واستطاع أن يجعل منهم أتباعاً للإمبراطورية سواء في الجانب المدني أو العسكري. ولما كان ثيودوسيوس رجلاً مسيحياً أرثوذكسياً متحمساً فقد أعاد للمسيحية كيانها وانزل بالوثنيين والهراطقة قرارات الحرمان من حقوق المواطنة. وفي عام ٣٨١م عقد مجمع ديني بالقسطنطينية عرف باسم مجمع القسطنطنية فرض فيه الوحدة الدينية بالقوة على العالم المسيحي.
نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م، ص٤٤-٤٦؛ محمود سعيد عمران، الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ط. بيروت ٢٠٠٢م، ص٣٧.

(4) Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saint, dans Dictionnaire d' Archéologie Chretienne, P.90-91; Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.68.

(5) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٠.

(6) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي ، ص٩٢.

كذلك يوجد في نفس القرن مؤلف هام عن رحلة حج قام بها بطرس الأبييري Peter the Iberian، وقد كان أسقفاً مونوفيزيتياً(١)، ولذا فقد عانى من الاضطهاد الذي حل به، وكتبت سيرة حياته حوالي عام ٥٠٠م من جانب أحد أتباعه وهو يوحنا رفوس(٢) وقد رافقه على مدى حياته، وصاحبه في قسم من أسفاره في فلسطين ومن الواضح أنه قام بتلك الرحلة في عام ٤٣٧م حيث ارتحل من أيبيريا(٣) حيث أسس هناك مع بعض رفاقه الحجاج أول دير كورجي(٤).

وفي عام ٤٤٠م كانت هناك رحلة حج إلى بيت المقدس قام بها القديس يوخيريوس St. Eucherios أسقف مدينة ليون بفرنسا (٤٣٤-٤٤٩م)، وقد كتب خطاباً تناول فيه أمر هذه الرحلة وأرسله إلى صديقه فاوستوس Faustus(٥)، وقد قامت الإمبراطورة يودوكيا Eudocia(٦) زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م)

---

(1) ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب "الطبيعة الواحدة " (Monophysite) انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ط٦ القاهرة ١٩٩١م، ص ٧٢.

(2) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص١٩؛
Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.4.

(3) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص١٩؛
John Rufus, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, PP.57-58.

(4) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٢.
تشمل بلاد الكرج "أيبريا" السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، الكرج هم الجورج مع إبدال الجيم بالكاف الفارسية. عنهم انظر عفاف سيد صبره، الكرج والقوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، ضمن كتاب دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٤٢٢-٤٢٣.

(5) St. Eucherius, The Epitome of Eucherius about certain Holy Places (Circ. A.D., 440), and the Breviary of Short Description of Jerusalem (Circ. A.D, 530), trans, by. Stewart, in Palestine Pilgrim's Text Society, Vol. II. London, 1890; Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.3; محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون، ص١٩.

(6) تزوجت يودوكيا من الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني في السابع من يونيو عام ٤٢١م تميزت بجمالها وعلمها شرعت في الذهاب في رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، وقامت بالعديد من المشاريع العمرانية في العديد من الأماكن المقدسة بفلسطين والتي كانت أيضاً الغرض منها إحياء الذكرى للإمبراطورة القديسة

برحلتي حج الأولى كانت قصيرة عام ٤٣٨م، واستمرت حتى السنة التالية بها، والثانية في عام ٤٤٤م، حيث أمضت السنوات الستة عشر الأخيرة من حياتها في فلسطين، ولقد أسهمت الإمبراطورة المذكورة في تأسيس عدداً من العمائر المسيحية(١).

ويبدو أنه ساد آنذاك ظاهرة إقامة الحجاج في المدينة المقدسة(٢)، فقد بدأ الحجاج الأوربيون يتدافعون إلى بيت المقدس مثل اللوحة التي رسمها القديس لوقا St. Luka وأرسلتها الإمبراطورة يودوكيا إلى زوجها في القسطنطينية، لأن جمع الذخائر اعتبرها المسيحيون بقايا مقدسة، ففي الشرق عاش الغالبية من القديسين الأوائل والشهداء وفيه كان يمكن العثور على بقاياهم(٣).

وفي تلك الفترة كانت رحلة الحج إلى بيت المقدس رحلة طويلة فقد سلك الحجاج

هيلانة فأعادت ترميم أسوار القدس، وبنيت أديرة وملاجئ لكبار السن، توفت في ٢٠ أكتوبر عام ٤٦٠م، أحيت حفيدتها المسماة باسمها ذكراها عندما قامت برحلة حج إلى القدس عام ٤٧٣م، لمزيد من التفاصيل عنها انظر:
Leclero (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, P. 116-120; Hunt (E.D.), Holy Land Pilgrimage in the later Roman Empire, A.D. 312-460, Oxford 1984, *P.222-223, 230-234, 240-241.*

(1) Elinor (A), Moore (B.A.), The Ancient Churches of Old Jerusalem 1961, P.6.

(2) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٤.

(3) كان هناك ثلاثة مستويات لهذه البقايا، أولها الجسد كاملاً أو جزء من الجسد، وتمثل ثانيهما في إصبع أو فك أو ما شابه ذلك، وتجسد المستوى الثالث من الشظايا العظمية، أو خصلة من الشعر، أو قطعة من الملابس، أو حفنة من تراب بيت المقدس، ولقد اعتقد الناس أنهم سوف يحصلون على المساعدة الإلهية بفضل هذه البقايا، وأصبحت النساء شغوفات بصفة خاصة بتتبع مثل هذه البقايا، وقيل إنه كان من حظ بعض الحجاج الحصول على جزء منها، بينما جلب جانبها الأعظم إلى أوروبا بواسطة التجار، وأرسلت البعثات من الغرب الأوروبي إلى الشرق لإحضار مثل هذه الذخائر. ودفعت مبالغ خيالية لابتياعها، وبناء الكنائس لحفظها وكان من الطبيعي أن تزيد هذه المخلفات الدينية من اهتمام الغرب بالشرق، مما أدى إلى تدفق حركة الحج.
إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٤؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ص٣٠ عن الزخائر المقدسة انظر:
Sigal (P.A.) Les Morcheurs de Dieu, Paris 1974, PP.25-33;
Hunt (E.D), Holy Land Pilgrimage in the later Roman Empire, P.134-136;
Roussel (R), Les Pèlerinages à travers les Siècles, Paris 1954, P.52-59.

الطرق الرومانية في السفر البري عبر أوروبا إلى إحدى موانئ الجنوب الأوروبي أو السفر للقسطنطينية ومنها كانوا يركبون إحدى السفن إلى موانئ بلاد الشام المتعددة كقيسارية وصور واللاذقية في حين فضل بعض الذين وصلوا للقسطنطينية عبور البسفور ليتابعوا مسيرتهم حتى فلسطين مارين بالمدينة تلو الأخرى[1].

ومن المؤكد أن زمن الرحلة البرية كان طويل للغاية فقد كان الحاج السائر على الأقدام يقطع حوالي ثلاثين كيلومتراً يومياً، في الوقت الذي كان يقطع فيه الحاج الراكب حوالي خمسين كيلومتراً يومياً[2] أما عن السفر البحري فكان بالطبع أسرع دائماً عن الرحلات البرية، ولكنه كان يعتمد أساساً على سرعة الرياح[3].

وفيما يتعلق بوسائل نقل الحجاج، فقد كان المشي[4] الوسيلة الشائعة بين عامة الحجاج بينما كان البعض منهم وبخاصة الرهبان يذهبون للحج على ظهور الحمير والبغال، أما الأثرياء فقد سافروا على ظهور الخيول، كذلك استخدم المحمل ليس فقط للمرضى ولكن لشخصيات ذات درجة اجتماعية معينة وخصوصاً السيدات وكان هذا المحمل يحمل بواسطة العبيد والخدم، وقد رفضت القديسة بولا ركوبه، وكان الأثرياء يتنقلون أيضاً بعربة تجرها الخيول[5].

أما السفن البحرية فكانت وسيلة نقل الحجاج ما بين سواحل الجنوب الأوروبي وآسيا الصغرى وبين بلاد الشام. ويبدو أنه لم توجد آنذاك سفن منتظمة تنقل الحجاج بحراً، وإنما كانوا يسافرون وفقاً للمناسبات والأماكن المتوفرة على ظهر هذه السفن التي كانت تنقل التجار أيضاً، في حين أن بعض الحجاج الأغنياء سافروا على متن سفنهم الخاصة[6].

---

(1) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.164-171; Hunt (E.D), Holy Land Pilgrimage in the later Roman Empire, P.55-56.

(2) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.172.

(3) أن السير على الأقدام هي أحدى المظاهر المبدئية للتوبة المسيحية، وبعض النصوص تصر على واقع بأن الحج يجب أن يجري، ولكن بالأقدام العارية (وقد تعني هذه الكلمة الأخيرة السير بالصنادل المكشوفة).
Sigal (P.A.), Les Marcheus de Dieu, P.58.

(4) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.171.

(5) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.172.

(6) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.171-172.

وقد تميزت هذه الفترة برحلات الحج الجماعية بالأشخاص ذوى الرتب الاجتماعية العالية (الطبقة الراقية) فلم يكونون يسافرون بدون رفقة كبيرة من حاشيتهم، والمطارنة لا يرتحلون بدون مساعديهم، والرهبان والتجار كانوا يتنقلون دائماً في جماعات، حيث كانت الأسفار في هذه الأزمنة مليئة بالمخاطر، فقبل كل شيء هناك خطر الشرود وخاصة للحجاج الذين يتجولون خارج الطرقات المرصوفة، وفي الصحارى مستدلين فقط بالنجوم أو العلامات التي لا يعرفها سوى سكانها من أهالي المكان، وتأتي بعد ذلك أخطار الطبيعة المتمثلة في الحرارة الشديدة والعطش الذين أديا في بعض الأحيان إلى موت العديد من الحجاج[1]، ولذلك كان الحاج يمنع من السفر بمفرده[2].

عندما ارتحل الحجاج إلى بيت المقدس، وجدوا الطرق الرومانية القديمة والإنشاءات العديدة حيث يجد كل حاج مكاناً للمبيت وللشراب وللطعام ونجد مؤسسات مخصصة للفقراء، وكبار السن وللنساء حيث كان الحجاج يعتبرونها استراحة مرحلية لهم وكان رجال الدين هم الذين أقاموا هذه الإنشاءات، فلقد تسلم حاكم غزة أموالاً من الإمبراطورة يودوكيا لكي ينشأ في مدينته نزلاً للحجاج وإعطاء كل حاج مبلغاً لتغطية نفقات رحلته وامتلكت كافة المدن الرئيسية المهمة مؤسسات مماثلة، ومنذ البداية أحب الرهبان القيام بواجبات الضيافة فكل دير كان مجاوراً له نزلاً للحجاج فقد قام دير القديسة مريم أوف شوزيبا St. Marie of Choziba، ويقع على الطريق بين القدس وأريحا بتأمين الخدمة المنتظمة للمشرب وتقديم المساعدة للحجاج المسافرين بإمدادهم بالخبز وحمل أثقالهم وأحياناً أطفالهم وإصلاح أحذيتهم وأيضاً يقبرون من يتوفى منهم في هذه المنطقة الصحراوية[3].

وفي تلك الفترة توافرت شبكة من النزل والضيافات لمساعدة فقراء الحجاج فيما يحتاجون إليه، بالإضافة إلى النزل التي أقام بها الحجاج القادرون، كذلك فقد كان العديد من الحجاج في غير حاجة لهذه النزل، مثل أعضاء مجالس السناتو الذين كانوا يقيمون عند

---

(1) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.173.

(2) Roussel (R.), Les Pèlerinages, à travers les Siècles, P.33.

(3) Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.167-169.

الموظفين الإمبراطوريين أو يقيمون عند أشخاص من نفس الدرجة الاجتماعية(١).

كان الحجاج يفضلون اصطحاب المرشدين الذين رأوا في وجودهم ضرورة وخاصة أثناء رحلاتهم في الصحراء فقد كانت القديسة بولا وجماعتها برفقتهم مرشد. ولقد أشار القديس جيروم إلى قيام بعض الرهبان بالشرح وإرشاد الحجاج أثناء وجودهم في كنيسة القيامة، أما عن النقود التي حملها الحجاج معهم، فلقد كان بعض الحجاج يحملون معهم عملات ذهبية، بينما آخرون يحملون عملات أقل ونجد من الحجاج من كان لا يحمل نقوداً على الإطلاق، ويتسول مأكله ومشربه(٢).

قد أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م على أيدي العناصر الجرمانية إلى توقف طفيف للحجيج إلا أن هذه العناصر وجدت في هؤلاء من الرجال والنساء رغبة في ذلك فسمحوا لهم بالمرور دون أن يلحقوا بهم أي أذى ولاسيما أنهم كانوا غير مسلحين(٣).

ويأتي القرن السادس فيزداد عدد الحجاج بشكل ملحوظ فبين عام ٥٣٠م وعام ٥٦٥م أرسل المعماري ثيودور Theodore(٤) ومعه زملائه من القسطنطينية إلى بيت المقدس لبناء وتدعيم بعض الإنشاءات لتيسير حركة الحج، فقد قاموا بتشييد دير القديس جريجوري St.

---

(١) عندما قامت القديسة بولا بالتوجه إلى القدس فإن القنصل العام لفلسطين أعد لها مكاناً مناسباً في مبنى المحكمة، ولكنها رفضت الإقامة لتذهب وتقيم في خلوة رهبانية.

Maraval (P.), Lieux Saints et Pèlerinages d' Orient, P.169.

(2) Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P. 20;

إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٩.

(3) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص٩٤.

(4) Theodosius, the Topography of the Holy Land, Trans by Bernard (J.H), P.P.T.S, Vol. III, London 1893; Theodosius, the Topography of the Holy Land, in Jerusalem Pilgrims before the Crusades, PP.63-72.

في بيت المقدس Jerusalem بني جوستنيان كنيسة باسم العذراء بلغت من الروعة حداً فاق العادة، وأقام بها داراً لضيافة الغرباء عن المدينة ومستشفى لعلاج الفقراء بالمجان. كما أعاد بناء خمس كنائس كانت قد تعرضت للدمار على أيدي السامريين، وجدد بناء الأديرة العشرة في المدينة، هذا بالإضافة إلى حفر الآبار بها، وإقامة خزانات للمياه.

محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي "عصر جوستنيان"، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص١٠٨.

Gregory ودير للعذراء في جبل الزيتون، وكنيسة القديس حنا St. John في بيت لحم، وأقاموا بعض الصهاريج لتخزين المياه، وتشييد نزل وكنيسة للعذراء في أريحا(١).

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال القرن السابع الميلادي وصلت إلينا رحلة مهمة قام بها الأسقف الفرنسي أركولف Arculf، وذلك في عام ٦٧٠م، والتي شملت مصر وبلاد الشام وكذلك القسطنطينية، ومن الواضح أنه صادف مصاعب جمة خلال قيامه بالارتحال إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة، وهو أمر ذكره بصورة واضحة في ثنايا رحلته(٢).

ولقد قدمت مؤلفات بعض الرحالة الأوروبيين للحجاج كتب إرشادية مثل الرحالة أدومنان Adomnan of Lona الذي شغل وظيفة كنسية في ايونا (Lona) خلال المدة من عام ٦٧٩م إلى ٧٠٤م، وقد ألف كتاباً عن الأماكن المقدسة لدى المسيحيين في فلسطين على جانب كبير من الأهمية واستعان به عدد كبير من المعاصرين، وقد أفاد من تأليفه الرحالة أركولف Arculf الذي زار المنطقة في مرحلة سابقة(٣).

---

(1) Procopius, the building (Circ. 560 A.D.,), trans. By Aubrey Stewart, in Palestine Pilgrim's Text Society, Vol. II, London 1896, PP.138-142- 143-147-152.

(2) Arculf, the Travels of Arculf in the Holy Land, in Early Travels in Palestine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848, PP.1-12;

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٠؛ نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص٥١-٥٢؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩٠؛ كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٦٩؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٢.

أركولف أسقف فرنسي زار الأماكن المقدسة ومكث في مدينة بيت المقدس تسعة أشهر، ثم اتجه إلى الإسكندرية ومكث بها أربعين يوماً ومنها اتجه إلى القسطنطينية، ثم عاد إلى بلاده.

Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.9; Janin (H.), four paths to Jerusalem, P.70.

ولمزيد من التفاصيل عن الحاج ورحلته انظر: محمود سعيد عمران، أركولف ورحلته إلى الشرق ٦٧٠م-٥٠هـ، ضمن كتاب بحوث في مصادر العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص٤٧-٧٠؛ محمد مؤنس عوض، من رحالة الشرق والغرب في العصور الوسطى، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، ط. القاهرة ٢٠٠٨م، ص٦٥-٦٨.

Marbel Dietz, Travel wandering and pilgrimage, Vol.II, P.273-278.

(3) Leclerco (H.), Pélerinages aux Lieux Saints, PP.152-162; Wilkinson (J.),

س الأهمية بمكان ملاحظة أنه خلال القرن السابع الميلادي وقعت الفتوحات الإسلامية الكبرى، ودخلت بلاد الشام بما فيها فلسطين تحت السيادة العربية الإسلامية، وقد اتسمت سياسة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة لدى المسيحيين بالتسامح الديني، ولم تتسم بأي صورة من صور التعصب الديني على نحو يشكل ظاهرة واضحة(١).

وفى القرن الثامن، وحوالي عام ٧١٢م-٩٤هـ، أو ٧١٥م-٩٧هـ، حج إلى فلسطين سابينا Sabina الإيطالية، ومعها اثنان من رجال الدين الإيطاليين هما ماركيانوس Marcianus ومارتيريوس Martyrius، حيث أمضوا ثلاثة أعوام في بيت المقدس. وفي عام ٧٢٠م-١٠٢هـ حج الفرنسي القديس سيلفان St. Silvin أسقف أوشى Auchie في منطقة أرتوا Artois الفرنسية، وبعده بعامين (٧٢٢م-١٠٤هـ) كان الدور على القديس جوييبو St. Guillebaud، وهو من نفس الموطن حيث بقى سبع سنوات في فلسطين(٢).

فقد أصبح الحج ظاهرة بين الإنجليز والإيرلنديين، وكان أبرز الحجاج الإنجليز ويلبيالد Willbald(٣) الذي غادر إنجلترا في سن الثانية عشر، ليقضي بقية عمره في ألمانيا، حيث أصبح أسقف ايشستادت Eichstadt في إقليم بافاريا Bavaria ولقد قام في شبابه مع رفيقين من الإنجليز برحلة بين روما وبيت المقدس ما بين عامي ٧٢٣-٧٣٠م/١٠٥-١١٢هـ.

وفي الشام تم القبض على الثلاثة بتهمة التجسس من قبل السلطات الأموية، وما لبث أن أطلق سراحهم ليكملوا حجهم، وأقاموا في بلاد الشام(٤).

Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.9-10.

(1) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٠.

(2) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١٠٢.

(3) Wilibald, The Travels of Willibald, in Early Travels in Palestine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848, PP.13-22;

ستيفن رنسيمان، رحلات الحج فيما قبل ١٠٩٥م، ص٤٢؛

Duncan Macpherson, Pilgrim Preacher, London 2004, P.26.

(4) ولد ويليبالد في إنجلترا حوالي عام ٧٠٠م، وتعلم في دير والتهايم Waltheim، وكان محباً للرحلات، في عام ٧٢٠م ذهب مع أبوه ريتشارد وفانيبالد أخاه إلى روما، حيث توفي أبوه، ويقى مع أخاه في روما لمدة ستين ثم توجه مع اثنين من مواطنيه للحج في القدس، وقد توفي ويليبالد عام ٧٨٠م.

وقد رحل القديس ماجدالفيه Magdalvée في عام ٧٥٧م/١٤٠هـ أسقف مدينة فردان Verdun الفرنسية، في رحلة حج هدفها جمع بعض البقايا والمخلفات المسيحية لكاتدرائية المدينة التي كان قد تم الانتهاء من بنائها آنذاك(١).

كذلك زار الراهب إيبفانيوس Epiphanius بلاد الشام، وقد عاصر المرحلة المبكرة من عهد الخلافة العباسية، ووضع دليلاً للأماكن المقدسة في فلسطين، وبالتحديد في عام ٧٧٥م/٥٩هـ، ليكون مرشداً(٢).

وخلال القرن الثامن الميلادي نشطت حركة الحج بشكل ملحوظ، ومرجع ذلك سياسة التسامح الديني التي أبداها المسلمون تجاه الحجاج المسيحيين، وتقديم كافة التسهيلات لهم، ولقد أدى هذا إلى ازدياد عدد الحجاج الوافدين إلى الشرق في جماعات كبيرة، بعد أن كانوا يعدون فيما مضى على أصابع اليد الواحدة، مما دفع الإمبراطور شارلمان Charlmagne (٧٦٨-٨١٤م/١٥١-١٩٩هـ) للقيام بمحاولات أولية لتنظيم توافد الحجاج وذلك بتبادل السفارات والهدايا(٣) مع الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)،

Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, P.163;

ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العرينى، ج١، ط. بيروت ١٩٨٢م، ج١، ص٨٠؛ إبراهيم سعيد، حركة الحج، ص١٠٣.

(1) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١٠٣. Janin (H.), Four Paths to Jerusalem, P.73.

(2) Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.11;

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢١.

(3) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحركة الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص٣٥.

وقد كانت علاقاته ودية مع هارون Arons (الرشيد)، الذي حكم معظم بلاد الشرق باستثناء الهند، فقد أثر هذا الأمير مودة شارلمان على كل ملوك الأرض وحكامها، وبنى علاقته معه على الاحترام والكرم. وعندها قام السفراء الذين أرسلهم شارلمان لزيارة القبر المقدس، ومكان قيام سيدنا ومخلصنا بالمثول بين يدي (هارون الرشيد) ومعهم الهدايا نقلوا له رغبات سيدهم (شارلمان). غير أن (الرشيد) لم يمنحهم ما طلبوه فقط وإنما أعطاهم حق امتلاك القبر المقدس، تلك البقعة المقدسة المباركة، وعندما عاد السفراء إلى بلادهم بعث (الرشيد) سفراءه معهم إلى (شارلمان) يحملون له الهدايا الفاخرة إضافة إلى مواد وعطور ومنتجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية.

أينهار، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، ط، دمشق١٩٨٩م، ص١٠٤-١٠٥؛ عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، الجزء الثاني، ط. بيروت١٩٥٦م، ص ٣٨٢-٣٨٤؛ هـ.و. كارلس- ديفز، شالمان، ترجمة السيد الباز العرينى، ط.القاهرة ١٩٥٩م، ص٢٠٢-٢٠٣.

وذلك مع مطلع القرن التاسع الميلادي[1]، ولقد تمكن الإمبراطور شارلمان في الحصول على تفويض من الخليفة العباسي بحماية الأماكن المسيحية في فلسطين، والإذن بإقامة نزل للحجاج في بيت المقدس[2].

مهما يكن من أمر، فقد شهد عهد شارلمان ازدهاراً لحركة الحج الأوروبي إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، وقد جرت محاولة من أجل تنظيم الحج تحت رعايته، خاصة أنه أعاد تشييد الفنادق والنزل في فلسطين، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العديد من الحجاج قدموا إلى تلك البقاع، ومن بينهم عدد كبير من النسوة، كذلك تم إرسال عدد من الراهبات الأسبانيات من أجل الخدمة في كنيسة الضريح المقدس[3].

ومن الدلائل التي تشير إلى أن عهد هذا الإمبراطور شهد تدعيماً واضحاً للحج المسيحي، أننا لدينا وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين تجاه قضية الحج المسيحي، والوثيقة تعرف باسم "مفكرة بكنائس بيت المقدس "Commeroratorium of the Churches of Jerusalem"[4] وتحتوى حصراً لكنائس وأديرة المدينة والمناطق المجاورة لها، وكذلك أسماء وعدد الشمامسة والأساقفة، والرهبان الذين يقومون بالخدمة في تلك المؤسسات الدينية المسيحية، وهناك من يرى أن تلك الوثيقة قد كتبت حوالي عام ٨٠٨م في ظل العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والإمبراطورية الكارولنجية، وأن من المستحيل انجاز ذلك العمل الكبير الدقيق الإحصائي الطابع دون أن يكون من خلال موافقة رسمية[5]، وقيمة هذه الوثيقة أنها توضح أن المؤسسات المسيحية في فلسطين كانت تعيش مرحلة هامة من الازدهار حينذاك[6] في ظل تسامح السلطات الإسلامية[1].

---

(1) جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية، ص١٦٦-١٦٧.

(2) Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, P.164-165;

السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص٩٠.

(3) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٢؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون، ص٢١-٢٢.

(4) Commororatorium on the Churches of Jerusalem, in Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.137-138.

(5) Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.12.

(6) Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.12;

ومع النصف الثاني للقرن التاسع الميلادي، أصاب حركة الحج بعض الضعف بسبب تفكك الإمبراطورية الكارولنجية بين أبناء شارلمان وأحفاده، مما ترتب عليه تفكك الغرب، ووجود حالة من عدم الاستقرار، وساعد على ذلك أيضاً بدء غارات الشماليين في الغرب، مما جعل السفر خطيراً في بعض نواحي أوروبا[2]، وعندما قدم برنارد الحكيم Bernard the Wise[3] من بريتاني لزيارة البقاع المقدسة عام ٨٧٠م، أدرك أن المؤسسات التي شيدت في عهد شارلمان لا تزال مستمرة في العمل غير أنها كانت في حالة رثة[4] إضافة لتقلص عدد الحجاج.

ومن أنماط الحج التي عرفت في القرن التاسع الميلادي ما أطلق عليه اسم الحج التكفيري الذي يجب على الخطاة المعترفين أن يقوموا به، ولم يلبث أن تحول إلى طقس من طقوس التوبة المقننة كنسياً[5] ومن أمثلة الحج التكفيري رحلات فورتمند عام ٨٧٠-

---

Leclerco (H.), Pèlerinages aux Lieux Saints, P.166-167;

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٢؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ص٣١.

(1) الحج إلى بيت الله الحرام من فروض الإسلام "لمن استطاع إليه سبيلا"، وقد نزل التشريع به في القرآن الكريم، ولهذا السبب تعاطف المسلمون مع الحجاج المسيحيين وتسامحوا تجاه الرحلات الدينية والتي قام بها مسيحو الغرب اللاتيني لزيارة القدس انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ص٣١.

(2) جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية، ص١٦٨؛ إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١٠٦.

(3) Bernard the Wise, The Voyage of Bernard the Wise, in Early travels in Palestine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848, PP.23-30.

(4) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٢.

(5) قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية، ص٣١.

"ظهر الحج التكفيري في منتصف القرن السادس الميلادي وزاد في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وقد وجدت لوائح سميت بالكتب العقابية بفرض الصيام أو الغرامات، أو المنفى المؤقت أو الدائم، حسب درجة الخطيئة، فكان في البداية المنفى بدون وجهة معينة والتجوال في دولة أجنبية، ولكن اعتباراً من القرن التاسع الميلادي تم تحديد هدف الرحلة، وكان للأماكن التي أصبحت مشهورة بذخائر ومقابر القديسين ذوى الفاعلية في غفران الخطايا، وكان ذلك بسبب فكرة أن القديسين هم الشفعاء".

Sigal (P.A.), Les Marcheurs de Dieu, P.17.

ولمزيد من التفاصيل عن الحج التكفيري انظر:

٨٧٤م/٢٥٧-٢٦١هـ وهو نبيل فرنسي اشترك في جريمة دموية عاقب نفسه من أجلها في صورة حج دائم(١).

وكان حج التوبة واحداً من أهم الأعمال التكفيرية التي وضعتها الكنيسة كعقوبة عن الجرائم الكبرى، وكانت رحلة التوبة تصل إلى سبع سنوات كاملة، فقط ارتبط بُعد المكان المختار للحج بمدى الجرم(٢).

وكان المذنب يقوم بحجه مكبلاً بسلاسل حديدية في عنقه، وفي ذراعيه حتى نهاية الرحلة كما كان يحمل معه خطاباً يتضمن الأسباب التي عوقب من أجلها، وعقب وصوله إلى نهاية الرحلة المحددة له، كان يمثل أمام البابا في روما، أو من ينوب عنه، ليقدم ما يفيد قيامه بالرحلة فكان البابا أو نوابه يستقبلونه، ويخلعون عنه السلاسل معلنين خلاصه(٣).

ويجيء القرن العاشر الميلادي ليشهد رواجاً كبيراً لحركة الحج، وذلك نتيجة لاستقرار الأحوال في أوروبا عقب إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة على أيدي أوتو الأول Otto I (٩٣٦-٩٧٣م/٣٢٥-٣٦٣هـ)(٤) فضلاً عن عوامل أخرى كان لها دورها الفاعل على

Roussel (R.), Les Pèlerinages à travers Les Siecles, PP.42-44.

(١) فقد سار نحو الشرق حافي القدمين، مرتدياً ملابس خشنة ومتسلسلاً بسلسلة في وسطه وأخرى في ذراعيه، وخلال تجواله لمدة أربع سنوات، زار الشام وبقي في بيت المقدس فترة من الزمن، ثم توجه إلى مصر ليعيش هناك بعض الوقت مع الرهبان في طيبة (الأقصر)، وكانت محطته الأخيرة قرطاجنة تونس التي غادرها إلى روما ليلتمس صفح البابا يوحنا الثامن Jean VIII (٨٧٢-٨٨٢م/٢٥٩-٢٦٩هـ)، ولكن دون جدوى فرحل في رحلة أخرى قادته إلى البحر الأحمر وجبل سيناء فبيت المقدس، ثم منطقة الجليل، فأرمينيا ومن هناك إلى روما فقبل البابا توبته.
إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١٠٧.

(٢) فرضت الكنيسة على المسيحيين نوعين من الحج، حج كبير وهو للتكفير عن الذنوب الكبيرة وهذا الحج موجه إلى أربع جهات روما وكمبستلا Compostella بأسبانيا، والقسطنطينية وبيت المقدس، أما الحج الصغير فكان موجهاً إلى جهات قريبة كزيارة الأماكن المزارات Shrines القريبة، وهذا النوع من الحج كان للتكفير عن الذنوب الصغيرة، لمزيد من التفاصيل انظر: نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر، ط. القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠.

(٣) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١٠٧-١٠٨. وللمزيد من التفاصيل انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع – النتائج)، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٦-٣٠.

(٤) أوتو الأول، أحد أشهر الأباطرة الألمان في العصور الوسطى بمجرد توليه عرش ألمانيا قضى على نفوذ

مسيرة الرحلة الأوروبية إلى فلسطين خلال ذلك القرن، والتي كان لها تأثير إيجابي على حركة الحج المسيحي، إذ تحول الهنغاريون(١) إلى المسيحية وذلك في عام ٩٧٥م(٢) بفضل القديس ستيفن(٣) على نحو فتح مرة أخرى الطريق البري عبر الدانوب، بالإضافة إلى حركة دير كلوني(٤) والتي قامت بإصلاح أوضاع الأديرة في أوروبا وقامت بنهضة دينية كبيرة، تهتم

أمراء المقاطعات الألمانية، وأسس نظاماً حكومياً غاية في الكفاءة. وخارجياً استطاع أن يقهر الونديين Wenden السلاف الذين أقاموا شمال وشرق نهر إلب، وأن يحولهم إلى المسيحية. فضلاً عن قيامه بحركة توسعات كبرى على حساب الهنغاريين، وفي ٢ فبراير ٩٦٢م قام البابا بتتويجه إمبراطوراً في كنيسة القديس بطرس. انظر: السيد الباز العريني، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، بيروت ب.ت، ص٤٢٣-٤٣٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص٣٠١.

(١) نعني بهنغاريا تلك المملكة التي تقع في شرق أوروبا، والتي تحف بها من الشرق روسيا والبشناق ومن الجنوب الدولة البيزنطية، ومن الجنوب الشرقي بلغاريا والصرب والكروات ومن الغرب الإمبراطورية الغربية (الرومانية) ومن الشمال بولندا. وقد عرف سكان هذه المملكة باسم الهنغاريين Hungaries أو المجريين Magyer، وهم يرجعون إلى أصل آسيوي.
زبيدة محمد عطا، الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، القاهرة ب.ت، ص٢٠-٢١؛ عادل عبد الحافظ حمزة، دخول هنغاريا دائرة الكنيسة الغربية في القرن الحادي عشر الميلادي، مجلة التاريخ والمستقبل، المجلد الثالث، العدد الأول، كلية الآداب جامعة المنيا، يناير ١٩٩٣م، ص٥٧-٥٨.

(٢) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين، ص٤٥؛ نقولا زيادة، المسيحية والعرب، ط. بيروت ٢٠٠٢م، ص٢١٣.

(٣) القديس ستيفن الهنغاري St. Stephen of Hungary، هو ملك هنغاريا، ولد في ازيترجوم Eszergom، وتوفي في بودا Buda في ١٥ أغسطس من عام ١٠٣٨م، يحتفل بعيده في ١٦ أغسطس، وقد جرى تعميده عندما كان صبياً مع أباه دوق جيزا Geza على يد القديس أدالبرت من براغ Dalbert of Prague، تزوج من جيزيلا Gisela أخت الإمبراطور هنري الثاني Henry II، وفي عام ٩٩٧م، خلف أباه في دوقيته بعد أن أخضع البلاد للنظام تسلم التاج الملكي من البابا سلفستر الثاني Silvester II، وفي عام ١٠٠١م توج كأول ملك للمجر، بذل القديس ستيفن جهداً كبيراً من أجل تحويل شعبه إلى المسيحية وعمل على تأسيس عدة أديرة، وقد استخدمت العناصر الوثنية العنف معه بسبب سياستهم الرافضة له. يتبوأ القديس ستيفن مركزاً مشرفاً في التاريخ المجري، ويبدو أنه نال شخصياً لقب القديس لمكانته التي كانت تفوق عدداً من الأبطال والملوك الآخرين، شهدت سنوات عمره الأخيرة إصابته بالمرض بسبب الصراعات المشينة بين أقاربائه عن من يخلفه في الحكم، كما أن زخائر القديس ستيفن قد تم حفظها في عام ١٠٨٣م، مع زخائر ابنه الوحيد "أيمريك"، والذي يكرم أيضاً كقديس، وقد كان أبوه يعده ليرثه بجدارة، إلا أنه توفي في حادث صيد عام ١٠٣١م، ويحتفل بعيده في ٤ نوفمبر.
Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, P.304-305.

(٤) قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفاني في خدمة المجموع، فالفرد لا شيء والجماعة

بالحجاج وبشئونهم، وتقوم بتقديم كافة التيسيرات اللازمة من أجل توفير ما يلزم الحجاج من احتياجات مختلفة[1] واتجهت المدن الإيطالية البحرية لإقامة تجارة مباشرة مع الموانئ الإسلامية فضلاً عن تسامح السلطات الإسلامية سواء كانت عباسية، أو إخشيدية، أو فاطمية، حيال المسيحيين الذين يفدون للحج[2].

فقد أصبح بإمكان أي حاج أن يأخذ مركباً من البندقية أو باري أو أمالفي Amalfi، ليتجه مباشرةً إلى الإسكندرية، أو بعض موانئ الشام، وقد فضل أغلب الحجاج أن يقوموا بالإبحار في أحد السفن الإيطالية إلى القسطنطينية وزيارة مجموعة الذخائر المقدسة الكنسية هناك، ثم يذهبون عن طريق البر إلى فلسطين، ويلاحظ أن الطريق البري كان دائماً أقل تكلفة من الطريق البحري، ووجدت هناك طرق برية ميسرة بين الأناضول وبلاد الشام[3].

ولدينا أسماء العديد من أولئك الحجاج الذين زاروا فلسطين خلال القرن العاشر الميلادي منهم هيدا Hida كونتيسة مقاطعة سوابيا Swabia الألمانية، التي ماتت أثناء حجها عام ٩٦٩م-٣٥٩هـ وجوديث Judith دوقة بافاريا، وشقيقة أوتو الكبير، التي كانت في فلسطين عام ٩٧٠م-٣٦٠هـ[4]، ومن النبلاء والنبيلات الذين قاموا بالحج خلال

هي كل شيء. كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الأمراض الخطيرة التي تعرضت لها الكنيسة حينئذ إنما جاءت وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة، ولذلك وجدوا في الفصل بين السلطتين العلاج الوحيد الشافي من تلك الأمراض، ولعل هذا هو السبب في حرصهم على أن يكون نظامهم الديري تابعاً للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين إشراف على الأديرة الكلونية التي تقع في مناطق نفوذهم. وهكذا غدت الأديرة الكلونية تخضع لإشراف مركزي شديد، إذ لا يوجد لها سوى مقدم واحد في الدير الرئيسي بكلوني هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير في أديرتهم ويخضعون خضوعاً مباشراً للمقدم العام في كلوني، الذي له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذي يخضع بدوره للبابا خضوعاً مباشراً. وسرعان ما اشتهر دير كلوني فانتشر هذا النظام الديري في غرب أوروبا انتشار واسعاً في سرعة فائقة. انظر: سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٣٤٠.

(1) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٢.

(2) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٨١؛ تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الأفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين، ص٥٢؛ جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية، ص١٦٨-١٦٩.

(3) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٣.

(4) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٤٣.

ذلك القرن كونتات أرديش Ardeche، وأركي Arcy، وانهالت Anhalt، وفيينا Vienne وفردان Verdun، وجوريزيا Gorizia. كذلك قام بتلك الرحلة كبار رجال الكنيسة ومن أمثلتهم أسقف أوليفولا Olivola الذي قام بالترحال إلى فلسطين في عام ٩٢٠م، والقديس كونراد St. Conrad أسقف كونستانس Constance، الذي قام بتأدية الحج في ثلاث رحلات مستقلة، والقديس يوحنا St. John أسقف بارما Parma الذي لم تقل رحلاته إلى فلسطين عن ست رحلات، وكذلك رئيس دير أوريلاك Aurillac ورئيس دير مونتييه Montier[1]، وقد صاحب هؤلاء عدد كبير من الرجال والنساء الفقراء غير أن مؤلفي الحوليات لم يعنوا بإيراد أسمائهم[2].

ويأتي القرن الحادي عشر الميلادي فنجد تزايد أعداد الحجاج الأوروبيين الذين قدموا إلى فلسطين خلال هذا القرن ومنهم GuiIer كونت مدينة ليموج Limoges الفرنسية الذي حج مع أخيه ألدوين Alduin، أسقف المدينة عام ١٠٠٢م-٣٩٣هـ، وفي نفس العام قام فولك دونيرا Fulk de Nerra كونت مقاطعة أنجو Anjou الفرنسية بحملة شعبية للحج، وفي عام ١٠٠٤م-٣٩٥هـ حج راهب فرنسي، هو جوزلين دوفلوري Gauzline de Fleury، وحوالي عام ١٠٠٩م-٤٠٠هـ، حج الفرنسيان راؤول بيريجو Perigueux وريمون الثالث Raymond III كونتي رويرج Rouergur الذي توفي في الطريق[3].

وقد تعرضت حركة الحج لانتكاسة في بداية هذا القرن، فقد قام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[4] (٣٨٦-٤١٠هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) بتدمير كنيسة الضريح المقدس

---

(1) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٤.

(2) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٣.

(3) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٠-١١١.

(4) الحاكم بأمر الله: تولى الخلافة صغير السن في الثانية عشرة، وكان مولده بالقصر الفاطمي بالقاهرة المعزية، في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٩هـ (١٣أغسطس سنة ٩٨٥م)، وأمه كانت جارية رومية نصرانية من طائفة المكانية، ويعتبر البعض أن الحاكم كان آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء. حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله مصر والشام وأجزاء من العراق مع الحجاز وشمال أفريقيا في المدة ما بين (٣٨٦-٤١١) هـ الموافق (٩٩٦-١٠٢٠م) لمزيد من المعرفة انظر: محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، ط٢ القاهرة ١٩٨٣، ص٨٦ وما بعدها؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٨٢م، ص٢٠ وما بعدها.

The Church of The Holy Sepulchre[1] قبلة الحجاج المسيحيين عام ١٠٠٩م/٤٠٠هـ[2] كما دمرت المباني المسيحية جميعها على التوالي ما عدا كنيسة الميلاد في بيت لحم[3]. وبطبيعة الحال فقد انقطع الحجاج المسيحيون عن القدوم إلى فلسطين بعد خراب الكنيسة.

وينبغي أن نذكر أن المسيحيين تحت الحكم الإسلامي سواء كانوا حجاجاً أو غير حجاج تمتعوا بحرية كاملة في أداء شعائرهم، ولا ينتقص من هذه الحقيقة سوى تصرف مؤقت من أحد الحكام ممثل في الخليفة الحاكم بأمر الله، الذي عرف بشذوذه وتصرفه، وهذا يمثل ظاهرة عابرة عادت بعدها الأمور إلى ما كانت عليه من صفاء وتسامح[4].

وقد تحسنت العلاقات بين بيزنطة والدولة الفاطمية بعد وفاة الحاكم بأمر الله، فعقد الإمبراطور رومانوس الثالث Romanus III (١٠٢٨-١٠٣٤م) اتفاق مع الخليفة الظاهر الفاطمي ٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م من أجل إعادة بناء كنيسة الضريح المقدس، وقد

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م، ص٦٦؛ عارف العارف، تاريخ القدس، ط. القاهرة ١٩٥١م، ص٢٦٦؛ محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، ط. الإسكندرية ١٩٩٨م، ص١٨؛ مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية الفرسان الإستبارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. الرياض ٢٠٠٤م، ص٨٩؛ جوناثان رايلي سميث، تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٢٤٢؛

Ousterhout (R.), Rebuilding the Temple. Constantine Monomachus and Holy Sepulchre, the Journal of the Society of Architectural Historians, Vol. 48, No (March 1989), P.69;

Partner (P.), God of Battles, London 1997, P.73.

(2) Sigal (P.A.), Les Marcheus de Dieu, P.95; Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.14;

عن سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله تجاه أهل الذمة انظر: ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقره وعبد الحليم عويس، ط. القاهرة ١٤٠٤هـ ص٩٩-١٠٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، ج٢، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص٩٤؛ عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م، ص١٣٤-١٣٥؛ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٥٦-٣٦١.

(3) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩٣.

(4) محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، ط. بنغازي ١٩٩٦م، ص١٧٦.

قام الإمبراطور قسطنطين التاسع Constantine IX (١٠٤٢-١٠٥٥م) بإرسال عماله من أجل المشاركة في أعمال البناء، ومن مظاهر تحسن العلاقات بين الجانبين استمرار حركة الحج من خلال الثغور الإسلامية التي عدت من المنافذ التي استخدمها الحجاج للوصول إلى الأماكن المقدسة[1].

وفي عام ١٠٢٦-١٠٢٧م/٤١٧-٤١٨هـ[2] قاد الفرنسي ريتشارد Richard رئيس دير القديس فان دوفردان St. Vanne de Verdun بفرنسا، جماعة ما بين خمسمائة وسبعمائة حاج إلى فلسطين وفي العام نفسه ذهب وليم تايفير الثاني Guillaume Taillefer II كونت أنجولم Angouleme بفرنسا أيضاً مع عدد كبير من رؤساء الأديرة في رحلة حج مع بعض الإسكندناويين عام ١٠٣٤م-٤٢٦هـ[3].

وحوالي عام ١٠٣٦م-٤٢٨هـ حج أدهيمار الأول Adhemar Ist فيكونت ليموج الفرنسية، غير أنه توفي في الطريق، وتلاه بثلاثة أعوام تيري الثالث Thierry III كونت هولندا Holland مع عدد من السادة، بيد أن منيته وافته أثناء الرحلة، وفي عام ١٠٤٨م-٤٤٠هـ ذهب للحج القديس تيري St. Thiery رئيس دير القديس إيرول St. Euroul في نورماندي، ولكنه توفي في قبرص قبل الوصول لبيت المقدس، وفي عام ١٠٥٠م-٤٤٢هـ حج القديس جوتييه St. Gauthier مؤسس دير ليسترب Lesterp في ليموج، وكانت الرحلة التالية للبلجيكي أنسيلم Anselme كاهن مدينة ليبج Liege، بصحبة أسقفه ثيودوين Theoduin[4].

وهكذا، تزايد أعداد من يقومون بالترحال إلى فلسطين خلال ذلك القرن على نحو خاص، ولدينا إشارة مهمة وردت لدى أحد المعاصرين وهو رالف جلابر Ralph Gilaber، إذ يقرر أنه في البداية ذهب العامة، ثم أولئك الذين انحدروا من الطبقة الوسطى،

---

(1) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩٤؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٤؛ ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٤-٤٥.

(2) ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعي، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص٣٦.

(3) عزيز سوريال عطيه، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٣٢؛
Sigal (P.A.), Les Marcheurs de Dieu, P.50.

(4) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٣.

ثم قام بالحج العديد من الملوك والكونتات والمركيزات والأساقفة وليس هذا فحسب، بل النساء أيضاً وهو أمر لم يعهد من قبل، وقد تمنى العديدون أن يدركهم الموت هناك بدلاً من أن يعودوا أدراجهم إلى بلادهم[١].

وفي النصف الثاني للقرن الحادي عشر الميلادي/النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، زادت حركة الحج، وأصبح الحجاج يسافرون في مجموعات بلغت آلاف في بعض الأحيان، ففي عام ١٠٥٤م-٤٤٦هـ توجه ليتبرت Lietbert أسقف كامبراي Cambray على رأس ثلاثة آلاف للحج، متبعين الطريق الذي سلكه الصليبيون بعد ذلك، مارين بالمجر وبلغاريا ثم عبروا أسيا الصغرى ليصلوا إلى اللاذقية، وهناك سمعوا أن كنيسة القيامة مغلقة أما المسيحيون فعاد معظمهم إلى وطنهم، في حين بقى ليتبرت ليبحر مع عدد قليل إلى يافا. ولكنه فشل في الوصول إليها، فغادر الشام عائداً لأوروبا[٢].

ولم يطل إغلاق كنيسة القيامة أكثر من بضع سنوات، ففي عام ١٠٥٨م-٤٥٠هـ حج راؤول Raoul رئيس دير جبل القديس مشيل Mont St. Michel إلا أنه توفي أثناء الرحلة. وبعد عامين (١٠٦٠م-٤٥٢هـ) حج كونراد Conrad كونت لكسمبورج Luxembourg كعقاب له أو بشكل تكفيري[٣].

وتضخمت ظاهرة الحج إلى فلسطين في هذا القرن فقد غادر الغرب الأوروبي أعداد ضخمة في صورة الحج الكبير، وذلك عام ١٠٦٤م-٤٥٧هـ[٤]، قادها جونتر Gunter

---

(1) Ralph Gilaber, Historiarum, in Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, P.147;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٥؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص٣٠؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيدولوجية، ص١٧٧-١٧٨، حيث توجد في الملاحق الترجمة العربية لنص رالف جلابير.
قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٤٠-٤١؛
Janin (H.), Four Paths to Jerusalem, P.79-82.

(2) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٣-١١٤.

(3) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٤.

(4) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحركة الصليبية، ص٣٩-٤٠؛ عبد الله عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ط. الرياض ١٩٩٤م، ص٢٨؛ جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ط٢ القاهرة ١٩٩٩م،

رئيس أساقفة ماينز Mainz بجنوب ألمانيا، ويقال أن عدد أفراد هذه الرحلة تراوح ما بين سبعة إلى اثني عشر ألف رجل[١] ما بين رجل وامرأة من النبلاء والفرسان ورجال الدين والعامة، معظمهم من جنوب ألمانيا، فلم يلبس الحجاج الخيش، وإنما ارتدوا ملابسهم العادية، فقد لبس الأساقفة ملابسهم الكهنوتية، في حين ارتدى الفرسان ملابسهم مزودين بأسلحتهم[٢].

ولا نزاع في أن ذلك الحشد الكبير كان بمثابة أكبر جماعة انضم بعضها إلى بعض في مسيرة واحدة قبل بدء الحركة الصليبية، وقد ساروا في مناطق وسط أوروبا إلى القسطنطينية ثم إلى آسيا الصغرى Asia Minor ثم منها إلى بلاد الشام، وتحديداً إلى فلسطين[٣].

وقد وقعت اشتباكات بينهم وبين المسلمين بالقرب من الرملة بفلسطين، وتسبب ذلك في خلق المتاعب بسبب ضخامة أعدادهم وما يحملونه من سلاح[٤]، ويقال أن عدد الذين عادوا من تلك الرحلة بلغ نحو مائتين فقط إذ تعرضوا لهجمات المسلمين وبالقرب من يافا، ومن المحتمل وجود مبالغة في تقليل عدد الذين نجوا من أجل أن يقوموا برحلة الحج إلى المحارم المقدسة لإظهارهم بمظهر الأبطال الذين تحملوا المشاق من أجل أن يقوموا برحلة الحج إلى المحارم المسيحية المقدسة، حتى يكونوا مثالاً وقدوة لغيرهم[٥].

وعلى الرغم من ذلك لم يمنع المسلمون الأوروبيين من الحج حتى بعد أن استولى السلاجقة [٦] على فلسطين بداية من عام ١٠٧٠م-٤٦٣هـ، ولكن نتيجة توسع الأتراك في

ص٤٩؛ مایر، تاريخ الحملات الصليبية، ص٢٦؛ Partner (P.), God of Battles, P.73.

(1) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٦؛
Sigal (P.A.), Les Marcheurs de Dieu, P.50;
Janin (H.), Four Paths to Jerusalem, P.83-84.

(2) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٤.

(3) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٥.

(4) ستيفن رنسيمان، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ص٤٧.

(5) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٥.

(6) ينتمى السلاجقة إلى مجموعة من القبائل التركية عرفت باسم الغز، كانوا يسكنون سهول التركستان، ثم هاجروا إلى بلاد ما وراء النهر، وقد سموا بذلك نسبة إلى جدهم الأعلى سلجوق بن دقاق الذى وحد كلمتهم. ولمزيد من المعرفة عن دولة السلاجقة انظر: الحسيني، زبدة التواريخ، ط. بيروت ١٩٨٥م،

منطقة آسيا الصغرى، أدى ذلك إلى تدهور طرق هذه المنطقة، الأمر الذي صعب على الحجاج المسيحين الوصول إلى بيت المقدس مما دفع البابا جريجوري السابع Gregory VII[١] ١٠٧٣-١٠٨٥م/٤٦٥-٤٧٨هـ عام (١٠٧٤م-٤٦٧هـ) إلى دعوة جماعات الحجاج للتسلح حتى يمكنهم الوصول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين[٢].

ورغم ذلك فقد كانت هناك بعض رحلات الحج الفردي ففي عام ١٠٧٤م-٤٦٧هـ حج راؤول دوجايل Raoul de Goel مع زوجته[٣] وكذلك قامت حملة كبيرة للحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين عام ١٠٨٨م-٤٨١هـ في صورة قافلة للحجاج المسلحين بقيادة روبرت الأول كونت الفلاندرز Robert I of Elanders[٤] وذلك قبل سبع سنوات من دعوة البابا أوربان الثاني[٥] للحرب الصليبية.

ص١-٣؛ البنداري، تاريخ دول آل سلجوق، بيروت ١٩٨٧م، ص٧ وما بعدها؛ الراوندي، راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وآخرون، القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٦١ ومابعدها؛ عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٥٩م، ص١٢١-١٢٣؛ زبيدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى، ص٣٨-٤٢؛

Hossan (S.), "Some observations on the problems concerning the origin of the Saljugides, Islamic Culture, 49 (1965), PP.203-204.

(1) جريجوري السابع Gregory VII، في الأصل اسمه هيلدبراند Hildebrand، ولد في عام ١٠٢٠م بالقرب من ماكان Mâcon عند وفاة البابا جريجوري السادس Gregory VI عام ١٠٤٧م، وقد قام بدور إصلاحي خلال عهد بعض الباباوات مثل نيقولاس الثاني Nicholas II (١٠٥٨-١٠٦١م) والكسندر الثاني Alexander II (١٠٦١-١٠٧٣م)، وقد تولى جريجوري السابع المنصب البابوي خلال المرحلة من ٢٢ إبريل ١٠٧٣ م إلى ٢٥ مايو ١٠٨٥م، عنه أنظر:

Kelly (J.N.D.), the Oxford Dictionary of Popes, Oxford 1996, P.154-156.

(2) عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٣٤.

(3) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٥.

(4) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص٢٦.

(5) أوربان الثاني: ولد عام ١٠٥٣م/٤٤٥هـ في شاتيون سير مارن Chatillon-Sur-Marnc، اسمه أودو Odu أو Eudes ودرس على يدى القديس برونو St. Bruno، وصار راهباً في دير كلونى Cluny عام ١٠٦٨م/٤٦١هـ والتحق بخدمة البابا جريجورى السابع، وعينه كاردينالا لأوستيا Ostia عام ١٠٨٠م/٤٧٣هـ وخدم الكنيسة في ألمانيا من عام ١٠٨٤م/٤٧٧هـ إلى عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ وأيد البابا جريجورى السابع في نزاعه مع الإمبراطور هنري الرابع وانتخب أوربان لمنصب البابوية، بعد سبعة أشهر من موت البابا فكتور الثالث في تراكينا Terracina، إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا Gaeta، في ١٢

ونجد رحلات فردية أخرى في عام ١٠٩٢م-٤٨٥هـ ذهب فيها وليم الرابع Guillaume IV كونت تولوز Toulouse بفرنسا وبرنجار ريمون الثاني Berenger Raymond II كونت برشلونة Barcelone بأسبانيا ولقد توفي الاثنان عام ١٠٩٣م-٤٨٦هـ، أثناء السفر وقبل عام ١٠٩٥م-٤٨٨هـ مباشرة حج نيقولا Nicolas رئيس دير القديس وان St. Ouen الفرنسي[١].

ومن الجلي البين أن نوضح أن أوروبا رفضت بقاء الأرض المقدسة التي ولد وعاش عليها السيد المسيح بأيدي المسلمين فقد صورتهم الدعاية الكنيسة بصورة الكفار المتوحشين، وكانت الفكرة التي ملكت عقول أبناء الغرب الأوروبي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري، هي الاستيلاء على فلسطين من أيدي المسلمين، ولقد أدى هذا بالضرورة إلى بروز أهمية القيام بحملة مسلحة في صورة حملة صليبية وهكذا جاءت الحركة الصليبية تطوراً لفكرة الحج المسيحي.

لقد كان خطاب البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م)[٢] في كليرمونت دعوة لتسليح الحجاج، فقد كان الصليبي في حقيقته حاجاً من طراز خاص، إذ كان يتمتع

مارس عام ١٠٨٨م/ ٤٨٠هـ باسم البابا أوربان الثاني. عالج البابا في مجمع بياكنزا Piacenza في مارس عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ عدداً من المسائل الكنسية، وعالج في مجمع كليرمونت Clermont في نوفمبر عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ بعض المسائل الكنسية، ودعا إلى الحملة الصليبية الأولى. ومات في يوليو عام ١٠٩٩/٤٩٢هـ انظر:

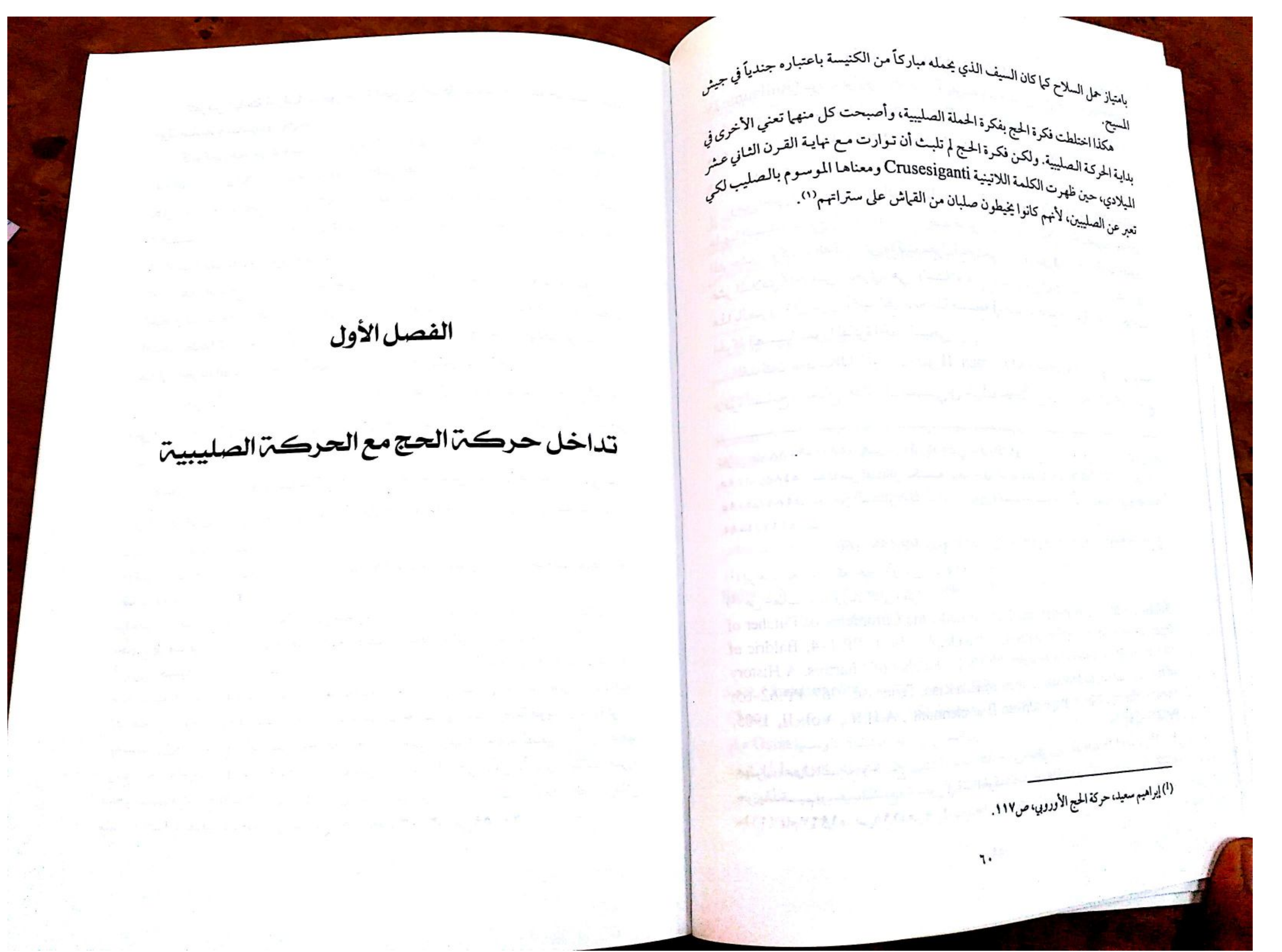
Kelly (J.N.D.), the Oxford Dictionary of Popes, PP.158-160.

(1) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٥.

(2) عن خطاب البابا أوربان الثاني انظر:

Robert the Monk, *in Peters, the First Crusade, the Chronicles of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia 1971, PP.1-4; Baldric of Dol, PP.6-10; Guilbert of Nogent, PP.10-13; Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, trans by Rita Rian, Tennesse 1967, PP.62-65; Munro "the speech of Pope Urbran II at clermont", A.H.R., Vol. II, 1905, PP.231-241;*

مجهول، أعمال الفرنج وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٥٨م، ص١٧-١٨؛ جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م(١٦) عام ١٩٦٣م، ص١٩٨، ص٢٠٥.



بامتياز حمل السلاح كما كان السيف الذي يحمله مباركاً من الكنيسة باعتباره جندياً في جيش المسيح.

هكذا اختلطت فكرة الحج بفكرة الحملة الصليبية، وأصبحت كل منهما تعني الأخرى في بداية الحركة الصليبية. ولكن فكرة الحج لم تلبث أن توارت مع نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، حين ظهرت الكلمة اللاتينية Crusesiganti ومعناها الموسوم بالصليب لكي تعبر عن الصليبيين، لأنهم كانوا يخيطون صلبان من القماش على ستراتهم[١].

---

(١) إبراهيم سعيد، حركة الحج الأوروبي، ص١١٧.

الفصل الأول

تداخل حركة الحج مع الحركة الصليبية

تتعرض الباحثة لدراسة تداخل حركة الحج مع الحركة الصليبية من عدة جوانب: دينياً، واقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً.

لقد كان الحج حركة قديمة ومستمرة ولها أهدافها، إلى أن قامت الحركة الصليبية بدعوة من البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت الشهير بفرنسا عام ١٠٩٥م، ومن هنا بدأ الإقبال على الشرق من الحجاج والجنود الصليبيين، فهدف الحج سبق وأن أوضحناه، ولكن الجنود الصليبيين الذين أتوا إلى الشرق لتخليص قبر المسيح من يد البرابرة المسلمين كما يدعون تداخلت معهم دوافع أخرى منها الديني، والاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي.

وهذه الدوافع واضحة وجلية على طول الحركة الصليبية، فإذا أردنا أن نوضح حركة الحج فيصعب علينا فصلها عن الحركة الصليبية، لأنها في وقت من الأوقات تكاد تنطبق أهدافها تطابقاً شبه تام، وفي أحيان أخرى نستطيع أن نفصل بينهما جزئياً فهدفهما واحد، ومن هنا فإن الحركة الصليبية وحركة الحج تداخلتا وتشابكتا كلها مع الأخرى.

وينبغي الإشارة إلى أن الهدف الإيديولوجي المعلن شيء، والأسباب والدوافع الحقيقية شيء آخر، فالتركيز على الهدف الإيديولوجي يؤدي إلى ضمان الحصول على التأييد الشعبي العام.

وليست هناك إيديولوجية يمكن أن تجتذب جموع الناس مثل الإيديولوجية التي تقوم على أساس ديني[1] على اعتبار أنها ظلت لقرون عديدة تقدم المبرر المثالي لشن الصليبيات على

---

1) قاسم عبده قاسم، ماهية الحركة الصليبية، ص١٩٢؛ وسام عبد العزيز فرج، الحروب الصليبية، ط. المنصورة ٢٠٠٥م، ص٢٦.
تزايدت رحلات الحج إلى أرض الميعاد بشكل ملحوظ من حيث عددها عند منعطف الألفية، وكانت حركة الحجاج إلى فلسطين في القرن الحادي عشر واسعة الانتشار ومتصلة وكثيفة، وقد تكون رمزية العام ١٠٠٠ أسطورة اختلقها مؤرخون، كما أشير إلى ذلك منذ وقت بعيد، وربما كان المسيحيون اللاتين لم يقاربوا ألفية تجسد المسيح في خوف وذعر، ثم استراحوا بعد ذلك واستعادوا حيويتهم، كما اعتادت تصور ذلك الكتابة التاريخية الرومانتيكية إلى حد بعيد في القرن التاسع على أن الحماسة إلى القيام برحلة طويلة وخطرة لزيارة أورشليم ورؤية قبر المسيح، قد أصبحت حركة جماهيرية، بلغت ذروتها في الحملة الصليبية الأولى بوصفها أوسع الحجات الجماهيرية في القرن الحادي عشر. لقد سيطرت أورشليم على الأفق الأخرى، وكانت الصورة الذهنية للمدينة المقدسة ذات أهمية خاصة في تقوى ذلك العصر، وبالنسبة لناس ذلك الزمان. انظر: توماش ماستناك، السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٩-٦٠.

المسلمين[1].

من المؤكد أن الجانب الديني لم يكن وحده يكفي لقيام حركة خطيرة كالحركة الصليبية التي تركت آثارها على مجريات الأحداث وقتها ولقرون عديدة متوالية، واستغلتها البابوية بهدف إثارة الحماسة الدينية لدى الغرب لتحقيق أغراض متعددة من بينها سعي الكنيسة الغربية لبسط نفوذها الديني على العالم المسيحي، بالإضافة إلى القضاء على النفوذ الإسلامي في الأراضي المقدسة، وكذلك التخلص من كبار رجال الإقطاع في الغرب، الذين كانوا مصدر متاعب ومضايقات، في وقت كانت الكنيسة تسعى فيه لفرض سلطانها الديني والدنيوي على الغرب الأوروبي بأكمله[2]، فلم تجد البابوية أفضل من حركة الحج لتحريك هذه الجموع الغفيرة وفقاً لإرادتها.

ولكي تنجح البابوية في تحقيق أهدافها منح البابا الصليبيين حماية الكنيسة، وذلك بأن أصدر أمراً بابوياً بالمحافظة على أملاكهم وعدم مسها بأي سوء حتى عودتهم، وهذه الحماية كانت مرتبطة بما كان يسمى "هدنة الله"[3] ووعدهم بصكوك الغفران[4].

لقد كان الحج وفق خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقى في مؤتمر "كليمونت"، والذي

---

1) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب)، ط. القاهرة ١٩٩٩/٢٠٠٠م، ص١٤.

2) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م، ص٥٧.

3) تعتبر هدنة الله Treuga Dei امتداداً لسلام الله، على أن هدنة الله يغلب عليها الطابع الكنسي، فالكنيسة هي التي تقررها، وتفرض العقوبات على من يخالفها، إذ حتمت الكنيسة على المسيحي أن يعتبر بعض الأيام والأزمنة مقدسة، فيكف أثناءها عن القيام بأي عمل من أعمال العنف، فتقرر أول الأمر الكف عن هذه ابتداء من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين، تذكاراً لما أصاب المسيح أثناءها من الآلام، ثم امتدت هذه الهدنة فشملت الفترة الواقعة بين عيد البشارة إلى يوم الأحد الذي يلي عيد الغطاس، وكذا الصوم الكبير، والأسبوع المقدس حتى يوم عيد القيامة، ومن الطبيعي أن تعتبر الكنائس وأقبيتها مواضع مقدسة، وأماكن محايدة. وفي جنوب فرنسا تقرر عدم التعرض لأشجار الزيتون لما لها من أهمية جوهرية في اقتصاد البلاد، وحظيت حركة الدعوة للهدنة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بنتائج مادية محسوسة بفضل توجيه الكنيسة. انظر: إرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط. القاهرة ١٩٦٠، ص٧؛ توماس ماستناك، السلام الصليبي، ص٢٠؛
Runciman(S.), A History of the Crusades, Vol.I, Cambridge 1978, P.86.

4) جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى، ص٢٨.

اقتبس من متى قوله: "إن أراد رجل أن يتبعني فلينكر نفسه، ويأخذ صليبه ويتبعني" متى ٢٤:١٦، وربما أدى هذا إلى رفع حقيقة أن حجاج القدس كانوا يرتدون صلباناً بانتظام، وبعضهم حمل صلباناً خشبية من نفس بلدانهم إلى القدس، والتي كانوا ينصبوها على جبل الصلب.

إذا الموقف الذهني للحاج كان شعاره حمل الصليب إلى أعلى تقليداً لسيد المسيح عليه السلام، أو باستخدام مصطلح أكثر حداثة، هو الطريق الذي في نهايته يكون أمام الأرض التي صلب فيها السيد المسيح[1].

أما الحاج الذي كان يقوم بعمل تكفيري فقبل انطلاقه في الطريق، يحصل على مباركة كنسية خاصة، فيرتدي لباس العقاب، ومعه قبعة ذات حرف عريض، ويلبس حافظاً للطعام عبر كتفه، ويحمل بيده عصا عالية بعقبة حديدية، وكان يبارك كالتالي "استلم هذه العصا، لتكن سند لك في سفرتك، وفي متاعب الطريق، وحتى تستطيع القضاء على جحافل الأعداء، وحتى تصل بصحة وسلامة إلى غايتك"، وقبل سفره ينصح الحاج بأن يضع نفسه على حال النعمة، وأن ينظم أموره المهنية، وأن يرد المال الذي حصل عليه بالحرام، وأن يؤمن معيشة عائلته أثناء غيابه، وأن يحسن للفقير، وأن يجنب المال اللازم للطريق الذي كان طويلاً ومكلفاً[2].

ارتبط الدافع الديني ارتباطاً وثيقاً بما يعرف بالحج Peregrinato إلى الأرض المقدسة Terrum Sacrum في فلسطين، فقد شعر المسيحيون منذ وقت مبكر بالرغبة القوية في أن يروا بأنفسهم تلك المواقع المرتبطة التي تنقل فيها في أرجاء فلسطين المختلفة للتبشير بالدين الجديد، على الرغم من أن المسيحية لا تحتوي ضمن أركانها المعروفة في صورة التثليث والتجسد والصلب، والقيامة على فكرة الحج[3].

لقد شهد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إقبالا كبيرا من جانب حجاج

---

1) The way of Cross and the Templars، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185,trans Wilkison (J.), Hill (J.), Ryan (W.F), London 1988، P.73-74.

2) Edmond-Réne Labande، les Pereringes Chretiens a travers les ages، Spiritualité et vie Littéraire de L'Occident، Xe-XIVS، London، 1974، P.105.

3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣.

أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، حيث قام الخليفة الحاكم بأمر الله بتدمير كنيسة الضريح المقدس[1]، واستغل الأوربيون هذا الحادث العارض من جانب ذلك الحاكم غير المسئول ضد الإسلام بالعمل على إنقاذ الأماكن المقدسة من اضطهاد الحكم الإسلامي بها كما يدعون ذلك، وذلك بعد سيطرة السلاجقة على فلسطين ومنها بيت المقدس عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م.

لقد زادت متاعب الحجاج في آسيا الصغرى، بعد غارات السلاجقة وتوغلهم فيها، فترتب على الحروب والغارات، أن الطرق لم تعد صالحة للاستعمال، فتحطمت الجسور، وجفت مياه الآبار، ومع ذلك اجتازت آسيا الصغرى عام ١٠٨٩م حملة روبرت الأول كونت فلاندرز، وقد تجهزت أحسن تجهيز، غير أن الحجاج الذين صحبوها تعرضوا للإهانات من قبل الترك[2]، ومن الملاحظ أن بطرس الناسك[3] كان من حجاج هذه الحملة فأخذ الحجاج يتحدثون عما لاقوه من متاعب بعد عودتهم إلى أوطانهم[4].

---

1) انظر التمهيد.

2) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩٩.

3) وقد شاع في الغرب الأوروبي أن أحد رجال الدين الغربيين وهو بطرس الناسك حج إلى بيت المقدس، وتقابل مع سمعان بطريق بيت المقدس عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م، وقد حمل سمعان بطرس رسالة إلى البابا أوربان الثاني تحمل ما يعانيه المسيحيون ويستنجد به. كان بطرس طاعناً في السن، ولد بمكان قرب أميان، والراجح أنه حاول منذ سنوات أن يؤدي الحج إلى بيت المقدس، غير أنه تعرض للأذى من قبل الترك، فأرغموه على العودة دون أن يؤدي الحج، غير أن ما اتخذه فيما بعد من رداء الزهد، جعله معروفاً عادة باسم الزاهد، كان بطرس قصير القامة، داكن اللون، ذا وجه طويل نحيل عنه انظر: أنا كومنينا، الكسياد، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص٣٩٠-٣٩٢؛ حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ص٥٣-٥٤؛ جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. الإسكندرية ١٩٦٣م، ص ١٢٨-١٢٩؛ ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج١، ص١٧٩-١٨٠؛ فايز نجيب إسكندر، بطرس الناسك والحملة الشعبية عام ١٠٩٦م، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، المنصورة ب.ت، ص٥-١٢؛ عفاف سيد صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٨٩-٢٩٠؛ قاسم عبد قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ص١٢١-١٢٢؛ صلاح الدين محمد نوار، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م)، ط. الإسكندرية ١٩٩٢م، ص٣٦-٣٧؛ موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، ط. القاهرة ٢٠٠٥م، ص١٠٤.

4) فاروق عمر فوزي، ومحسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ط.

بالإضافة إلى ما أشاعه بطرس الناسك مما كان يلاقيه الحجاج الصليبيون من متاعب وأهوال خلال رحلة حجهم، فكان ذلك حافزاً كبيراً لكل حركة تدعو إلى اتخاذ إجراء لتيسير طريق الحج ولقيت دعوة البابا أوربان نجاحاً كبيراً، وبذلك دمجت فكرة الحج بفكرة الحرب المقدسة.

لقد تحدث البابا أوربان الثاني في خطبته الشهيرة عن القدس ومكانتها العالية، تلك المدنية التي شهدت ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ومعاناته وموته فيها– كما يزعمون–، وأخبر البابا مستمعيه بسيطرة السلاجقة على تلك المدنية المقدسة، وتدنيسهم لها وللضريح المقدس، وكيف وضعوا الأصنام في معبد سليمان، وأخذهم الهبات التي قدمها المسيحيون في الغرب كصدقات ونذر، وتخريبهم للكنائس بشكل وحشي – كما يقول– وتعذيبهم للمسيحيين في تلك المدنية وإراقة دمائهم، وكيف أصبحت أجسادهم طعاماً للطيور والوحوش، لأنه لا يوجد من يواريها التراب، وأخبرهم البابا أيضاً أن المدينة المقدسة تناديهم، ليهبوا لنجدتها، وأن الرب هو الذي اختارهم لطرد السلاجقة منها، يتوسل إليهم أن يفكروا في الفرحة التي ستغمر القلوب عندما سيتم استعادة المدينة المقدسة على أيديهم، وأشار البابا إلى أن المسيحين في أنطاكية وغيرها من مدن الشرق كانوا يتعرضون لما يتعرض له المسيحيون في القدس[1].

وكذلك أشار البابا أوربان الثاني عن معاناة الحجاج، وتعرضهم للمصائب، وأنهم ضحوا بأموالهم ودمائهم من أجل الرب، ويستشهد على صدق كلامه بشهادة الحجاج الذين عادوا من الشرق، وكانوا موجودين في المجمع المذكور، إذ يقول: (ما هي المصائب التي أخطئوا بها في حقكم يا من عدتم وموجودون هنا الآن، إنكم تعرفون تماماً أنتم يا من ضحيتم بمالكم وبدمائكم هناك من أجل الرب...هذا أيها الإخوة الأحباء، هو ما يجعلنا نقول

عمان ١٩٩٩م، ص١٥١؛ جمعة الجندي، ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص١٤؛ محمد نصر، العلاقات بين الشرق والغرب (أضواء على تاريخ الحملات الصليبية)، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٢٣.

1) روبير الراهب، ص٧٧؛ جيوبرت النوجنتي، ص٨١–٨٥؛ رواية بلدريك الدولي، ص٨٥–٨٩ ضمن كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، ط. القاهرة ٢٠٠١م؛ عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام ١٠٩٥–١١٨٩م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة أسيوط ٢٠٠٤م، ص٩٤.

أنكم شهود على كلماتنا...)[1].

وأشار البابا إلى أن الحجاج كانوا يتعرضون للعنف، وخاصة الأغنياء منهم، وكيف كانوا يدفعون الضرائب عند كل ميل يقطعونه (وعند بوابات المدن، ومداخل الكنائس والمعابد يضطرون إلى دفع الرسوم)، وكيف كانوا يضربون إذا ما رفضوا دفع المال، لإطلاق سراحهم، وذكر البابا أن الكفار (المسلمين) كانوا يشقون جلد كعوب الحجاج الفقراء وينزعونه بحثاً عن المال، حتى أنهم كانوا (يظنون أولئك التعساء قد ابتلعوا الذهب والفضة، فيضعون في شرابهم مادة مسهلة ويجبرونهم على أن يتقيئوا أو يتبرزوا، أو... يمزقون إرباً كل الأمعاء، بعد أن يبقروا بطونهم، بحيث ينكشف كل سر مخبوء). وبعد أن ذكر البابا مستمعيه بما كان يتعرض له الحجاج، طالبهم أن يتذكروا الآلاف الذين ماتوا بطريقة مرعبة، وأن يسرعوا لإنقاذ القدس التي جاءت منها الأسس الأولى لديانتهم[2].

ولعل البابا أوربان الثاني وجد في حركة الحج خير وسيلة يتخذها لإرسال الجيوش إلى الشرق، وبذلك هي الفرصة لنوع جديد من الخدمة الدينية يحصل بمقتضاها الفرسان المحاربون والحجاج في نفس الوقت على مكاسب خلقية وروحية، دون أن يتخلوا عما ألفوه من القتال واللصوصية، ومن أهم الامتيازات الواردة في قرارات مجمع كليرمونت، بذل صكوك الغفران لكل من ينهض لتخليص بيت المقدس، وعلى ذلك أقبل المحاربون على الاشتراك في هذه الحرب المقدسة كما قدم البابا امتيازات دنيوية ودينية.

فنظراً لأن الصليبيين ليسوا إلا عساكر المسيح اشتبكوا في حرب أقرتها الكنيسة، لم يصبحوا فحسب تحت حماية الكنيسة بل أن الكنيسة تعاهدت بأن تبسط حمايتها على أسراتهم وأمتعتهم، فلا يتعرض زوجاتهم وأطفالهم وأملاكهم لأخطار المجتمع الإقطاعي[3].

وواقع الأمر أن الصراع السلجوقي – الفاطمي قد أثر على انسياب الحج المسيحي إلى فلسطين، فلم يعد بنفس التدفق، ولم يعد على نفس الدرجة من الأمان، وهو أمر منطقي من

1) بلدريك الدولي، ص٨٥–٨٦.

2) جيوبرت النوجنتي، ص٨٤–٨٥؛ عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية في بلاد الشام، ص٩٦.

3) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص١٥٦–١٥٨؛ رأفت عبد الحميد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٨٤م، ص٦٧.

خلال المواجهات العسكرية، وغياب فعاليات السلطة المركزية القادرة على فرض الأمن في مناطق عديدة في بلاد الشام، ومنها المناطق التي مر بها الحجاج المسيحيون، مع ملاحظة أنه لم يحدث من جراء الوضع السابق ما يمكن وصفه باضطهاد شامل ووقف لحركة الحج المسيحي إلى تلك البقاع المقدسة[1].

ومن الملاحظ أن تلك المضايقات التي تعرض لها الحجاج المسيحيون ما هي إلا ادعاءات مبالغ فيها، ونجد من المؤرخين الأوروبيين من أقر صراحةً أن السلاجقة لم يضطهدوا عناصر الحجاج المسيحيين[2]، ويرى البعض الآخر، عدم اضطهاد الخلافة الفاطمية للمسيحيين إلا في عهد الحاكم بأمر الله.

فيرى ول ديورانت[3] أن الفاطميين حكام مصر حكموا فلسطين حكماً رحيماً، استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة في ممارسة شعائرها الدينية، باستثناء فترة الحاكم بأمر الله الذي دمر كنيسة الضريح المقدس عام ١٠٠٩م/ ٤٠٠هـ، وأكد ذلك ستيفن رنسيمان[4] عندما ذكر السلطات الإسلامية سواء كانت: عباسية، أم أخشيدية، أم فاطمية لم تضع أية صعوبات ضد المسيحيين، وإنما كانت تتجه إلى الترحيب بالمرتحلين لما يجلبونه من ثروة إلى المنطقة، ولم يعان المسيحيون من أي اضطهاد إلا في فترة الحاكم بأمر الله.

أما على الجانب البيزنطي في عهد الإمبراطور باسيل الثاني[5] فقد تم فرض ضريبة على

---

[1] محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢١.

[2] Thompson Economic and social History of the Middle Ages, Vol. I, London 1959, P.391.

[3] قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد٨، ج١٥-١٦، القاهرة ٢٠٠١م، ص ١١-١٢.

[4] رنسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ج١، ص٩٢،٧٦.

[5] إمبراطور بيزنطي حكم خلال المرحلة بين عامي ٩٨٦ – ١٠٢٥م، ويعد من أبرز الأباطرة في الأسرة المقدونية، وقد توفي في العام الأخير عن عمر بلغ أربعين عاماً؛
Nicol (D.), A Biographical dictionary of the Byzntine Empire, London 1991, PP.17-18;
وسام عبد العزيز فرج، "الإمبراطور باسل الثاني سفاح البلغار ٩٧٦- ١٠٢٥م": العوامل التي أثرت على السياسة في عصره، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م(١)، عام ١٩٨٢م، ص ١٦٩-٢٠٢؛حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ط.القاهرة ١٩٨٧م، ص ١٥٨-١٦٠؛ إسمت غنيم، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط.الإسكندرية ١٩٨٧م، ص١٣٣.

الحجاج وخيولهم، ثم تابعت الإمبراطورة ثيودورا سياسة عمها، وقامت أيضاً بفرض الضرائب الباهظة على الحجاج المسيحيين، ومن ثم فقد بدأ هؤلاء الحجاج يلاقون المصاعب والمضايقات الكثيرة من الجانب البيزنطي[1].

لقد عاش المسيحيون مطمئنين داخل الدولة الإسلامية، فقد اتسمت سياسة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة في فلسطين بالتسامح الديني، والدليل على ذلك ازدهار العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان[2].

وكذلك الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس Theodosius بطريق بيت المقدس عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م إلى زميله إجناسيوس Ignatius بطريق القسطنطينية، والتي امتدح فيها المسلمين، وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون تدخل في شئونهم الخاصة، وذكر بطريرك بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلمس منهم أي أذى"، حقيقةً التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان لنوع من الضغط، ولكنها حالة فردية لن يتخذونها دليلاً على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين، وحسبنا ما قام به شارلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والأفار بحد السيف حتى أنه قتل من السكسون وحدهم في مذبحة فردن[3] الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة[4].

ويكفينا هنا شهادة أميرة البلاط البيزنطي أناكومنينا[5] Anna Comnena في حديثها

---

[1] السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩٨؛ محمد نصر، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٤.

[2] لقد تمكن شارلمان في ظل هذا التسامح الديني من تشييد ضيافات وأديرة وكنائس في فلسطين عن ذلك انظر: علي أحمد السيد، رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين عام ٨٦٧-٨٧٠م/ ٢٥٤-٢٥٧هـ "دراسة تاريخية نقدية"، مجلة بحوث كلية الآداب، العدد٢٢، جامعة المنوفية أغسطس ١٩٩٥م، ص١٥٧-١٦٠.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٢٠٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط.بيروت ١٩٧٢م، ص٢٠.

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٦-٢٧.

[5] عن أناكومنينا، انظر: أنا كومنينا، الكسياد، المقدمة؛ فتحية النبراوي، حياة الإمبراطور الكسيوس كومينوس، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٧) عام ١٩٨١م، ص٤٢-٤٤.

عن الحملات الصليبية "إن الشهوة إلى تلك الأراضي البيزنطية، والرغبة في الاستيلاء عليها، قد استولت على نفوسهم -أي الصليبيين- منذ زمن بعيد"، وبهذه المقولة البالغة الدلالة عبرت الأميرة البيزنطية عن هدف حقيقي وضعه قادة حركة الحج نصب أعينهم، وقتما حملوا شارة الصليب، بدعوى قيادة حملة مقدسة يباركها الرب، ويظلها تأييد السماء، لحماية مسيحي الشرق والدفاع عن الأراضي المقدسة ضد ما أسموه ببربرية العرب والمسلمين(١).

أن تلك الإدعاءات التي ترددت قبيل اندلاع الصليبيات جاءت كجزء من الدعاية اللازمة للحركة الصليبية، وكان لها دورها الفاعل في خلق سيكولوجية حشود عامة تردد الثأر من الإسلام وأهله في صورة حركة الحج، وانتزاع الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين بأي ثمن، بفضل تأثير الدافع الديني على عقول قطاعات واسعة النطاق من سكان الغرب الأوروبي حينذاك(٢). ومن هنا نلاحظ تداخل يكاد يكون شبه تام بين الحركتين في دافعهما الديني.

أما عن الناحية الاقتصادية فقد وجدت ضمن خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقاه في مجمع كليرمونت عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، إذ تحدث البابا عن أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً(٣)، فقد كانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥م صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولاسيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعات، ومنذ عام ١٠٨٩م كان الرعب يتملك السكان في تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذي كان يضرب فجأة

1) أنا كومنينا، الكسياد، ص ٣٩٨-٤٠٤؛ محمد نصر، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٧.

2) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٠.

3) تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص٤٩-٥٠؛ سيد على الحريري، كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط٣ القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٠-٢١؛ محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٩٩-١٠١.
وكذلك الدراسة المهمة:
حسن عبد الوهاب حسين، دراسة تحليلية لخطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت (١٨-٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م)، ضمن دراسات في التاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م؛
Lamb (H.), The Crusades Iron Men Saints, London 1930, P.49; Funck (F), Les Croisades, Paris 1934, PP.11-16.

إحدى القرى، أو المدن، فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها(١).

وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا في ذلك الوقت أيضاً كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين(٢) وهي الحروب التي لم تفلح الكنيسة أو الملوك في وقفها مما أضر بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها(٣) وعلى هذا جاءت الحركة الصليبية لتخليص الغرب الأوروبي من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها(٤) بذهابهم إلى الشرق كحجاج صليبيين، ويدل هذا الإغراء الاقتصادي على عمق الجانب الاقتصادي(٥).

لقد تحسنت الأحوال في البحر المتوسط منذ مستهل القرن العاشر الميلادي إذ تخلى المسلمون عن سيطرتهم على جنوب إيطاليا، وعن قواعدهم في جنوب فرنسا، ثم ضاعت كريت من أيديهم، وأضحى الأسطول البيزنطي من القوة لتأمين الطريق البحري، فصار التجار اليونانيون يترددون في حرية بين موانئ إيطاليا والإمبراطورية البيزنطية، وشرعت المدن البحرية الإيطالية في التجارة مع الموانئ الإسلامية في الشام ومصر(٦).

لقد كانت بلاد الشام واجهة غرب آسيا ونافذتها المطلة على أوروبا، وكانت خطوط التجارة وقوافلها الثرية تتجه من شرق ووسط آسيا إلى غربها، حتى موانئ الشام ومنها تصدر السلع التجارية المختلفة إلى مراكز الاستهلاك في أوروبا، وقد قام المسلمون لعدة قرون وبالتحديد من القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري حتى القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري بدور فاعل في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، وحقق المسلمون نجاحات كبيرة في هذا الصدد(٧).

وقد نجد حماسة منقطعة النظير من جانب مدن إيطاليا التجارية مثل جنوة وبيزة

1) مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ط. عمان ٢٠٠٤م، ص٢٦.

2) أحمد رباح، دور التجار الأوروبيين في دعم توجيه الحملات الصليبية، مؤتمر بلاد الشام فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج٢، اليرموك اربد ٢٠٠٠م، ص٨٦٩.

3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٢٥.

4) وسام عبد العزيز فرج، الحروب الصليبية ص١٨.

5) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٣.

6) السيد الباز العريني،الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص٩١.

7) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٣.

والبندقية[1] التي رأت في حركة الحج فرصة سانحة لها لتحقيق أهداف اقتصادية كبيرة منها التحكم في تجارة الشرق، ووقف المد الإسلامي التجاري على السواحل الشامية، وتحجيم دور المسلمين كوسطاء تجاريين عن طريق نقل الحجاج الصليبيين بأساطيلهم التجارية في الذهاب والعودة، بالإضافة إلى دعم الحجاج بكل ما يحتاجون إليه من أسلحة وأساطيل لتدعيم الكيان الصليبي الوليد على الأرض العربية، وهنا نجد خط رفيع يربط بين الحركتين، وإن طغى الدافع الاقتصادي للحركة الصليبية على حركة الحج.

لقد قامت أساطيل المدن التجارية الإيطالية بدور كبير في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام. فقد ساعد الجنويون الحجاج المحاربين في الاستيلاء على أنطاكية عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء الحجاج المحاربين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح والكسب المادي، ولم يكن الدافع الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها، ويكفى أن نعرف أن شعار البنادقة الذي عرفوا به وقتذاك كان: "لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين"[2].

ولا نغفل هنا أن نشير إلى الأهمية الكبيرة لأساطيل المدن التجارية الإيطالية في الاستيلاء على الساحل الشامي متمثلاً ذلك في إسقاط المدن الساحلية يافا ١١٠٠م، أرسوف وقيسارية ١١٠١م[3]، عكا ١١٠٤م[1]، وطرابلس ١١٠٩م[2]، بيروت ١١١٠م[3]،صور ١١٢٤م[4]،

---

1) عبد الله بن عبد الرحمن، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص٣٧؛ أدم سميث، الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة، ب.ت، ص٣٢؛ شفيق جاسر أحمد محمود، الحروب الصليبية جذورها ودوافعها وأسباب ونجاح المرحلة الأولى، الدارة، العدد الثاني، السنة الخامسة، السعودية غرة ١٤١٠هـ ص٤١.

2) علية عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٢٤٩.

3) عن سقوط أرسوف انظر: الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق فؤاد سيد، ج٣، الكويت ١٩٦١م، ص٣٣٨؛ وانظر أيضاً تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. بيروت ١٩٩٤م، ص٣٧؛ وأيضاً دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، ط. بيروت ١٩٩٩م، ص٤٣٠؛ عز الدين محمد بن أبي الهيجاء، تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم، ط. القاهرة ١٩٩٣م، ص١٥٣؛

William of tyre, Vol.I, P.434; Jonathan Riley – Smith, The crusades A Short History, London 1987, P.41.

عن سقوط قيسارية انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل منصور، ج٣، ط. بيروت ١٩٩٧م، ص١١٩؛ المقريزي،

وأخيراً عسقلان ١١٥٣م[5] لقد كان الاستيلاء على الساحل الشامي هدفاً إستراتيجياً

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي محمد، ج٣، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، القاهرة ١٩٩١م، ص٦٥٥؛

Fucher of Chartes, P.153-154; Caffaro, Annali Genovesidi di Caffaro, Roma, 1890, P.117;

حسن عبد الوهاب، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص٧٠-٧٢.

1) عن سقوط عكا انظر:

William of tyre, Vol. I, P.454; Caffaro, Annali Genovesi, P.128;

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣؛ حنان عبد الحميد محمد عبد الهادي، دور بيزة في العلاقات الصليبية الإسلامية في مصر والشام حتى نهاية الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م، ص١٦٧-١٧٠.

2) عن سقوط طرابلس انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٣؛

Caffaro, Annali Genovesi, P.128;

السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م، ص١١٧-١٢١.

3) عن سقوط بيروت انظر:

William of tyre, Vol. I, P.485;

أحمد بن علي الحريري، الأعلام والتبين في خروج الفرنج، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٥م، ص٧١؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج٦، القاهرة ١٩٩١م، ص٤٥٦؛ العماد الأصفهاني محمد بن محمد، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج١١، دمشق ١٩٩٥م، ص٥٣٥٨؛ العظيمي، تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤م، ص٣٦٤؛ ابن واصل الحموي، التاريخ الصالحي، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢١، دمشق ١٩٩٥م، ص٤٥٦؛ ابن تغرى بردى، مورد اللطافة من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد، ج١، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص٨٦؛ صالح بن يحيى، كتاب تاريخ بيروت، تحقيق الأب لوس شيخو اليسوعي، ط. بيروت ١٩٢٧م، ص١٩؛ أسامة سيد علي، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر/السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٢م، ص٨٦؛ موضي عبد الله السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين، ط. الرياض ٢٠٠١م، ص٧٧.

4) عن سقوط صور انظر:

Caffaro, Annali Genovesi, P.130; William of tyre, Vol. II, P.78;

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢١١؛ أسامة سيد على، الساحل الشامي، ص٢١١.

5) عن سقوط عسقلان انظر: William of tyre, Vol. II, P.184;

ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٨-٣٢١؛ مصطفى عبد العزيز العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٢م.

ولا يمنع ذلك من وجود حجاج حقيقيين بالفعل، كان هدفهم الفعلي زيارة الأراضي المقدسة للصليبيين، ومن الواضح أن الإيطاليين لم يساهموا في حركة الحج إلا من خلال هذا الدافع، قدموا وغادروا مع هذه الأساطيل، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة.

لقد سار التجار الصليبيون وخاصة الإيطاليون منهم وراء القادة العسكريين، وفي كل موقع قدم الإيطاليون دعمهم الحربي للصليبيين كان المقابل تخصيص حي بندقي أو جنوي في الموقع الجديد الذي يسقط في قبضة الحجاج الغزاة، بالإضافة إلى الإعفاءات من الرسوم الجمركية، وهكذا كان الإيطاليون هم المتحكمون في المنطقة من خلال لعب دور توسعي، ودليل على ذلك سقوط القسطنطينية[1] في قبضة اللاتين عام ١٢٠٤م/٦٠٢هـ كان ذلك من خلال التنافس الشديد بين بيزنطة والبندقية على السيادة التجارية في شرق البحر المتوسط.

وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية وحركة الحج من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة، فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا إلى الشرق، لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب ومحاربة المسلمين، وإنما جريا وراء المال وجمع الثروات وإقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن الإسلامي[2].

فكل من غادر أوروبا إلى الشرق لم يكن حاجاً بمعنى الكلمة، فمنهم من أراد الحج فعلاً كشعيرة من الشعائر الدينية، ومنهم من أراد الحج والإقامة في رحاب الأراضي المقدسة، وعندما أتوا إلى الشرق وجدوا له سحر خاص مما دفعهم للإقامة ومجاورة الأماكن المقدسة، ولا يمنع ذلك من أن بعض الحجاج غادروا بعد تأدية حجهم وهؤلاء نعتبرهم حجاج حقيقيين، أتوا لغرض واحد فقط، وهو غرض الحج. أما من استعمر فكان له غرض آخر، وهو تحسين حالته الاقتصادية، فوجد ما يدعم هذا في الشرق بالإضافة إلى مجاورة الأماكن المقدسة، ولا نعتبره حاجاً، وإنما نعتبره غازياً صليبياً.

---

[1] عن سقوط القسطنطينية انظر: روبرت كلارى، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، ط. القاهرة١٩٦٤م،ص ١٢٠-١٢٣؛ Nicetas Choniates, O city of Byzantium, Annales of Niketas Choniates, Trans. By Harry Magoulias, Wayne State University, Detrioit 1984, P.312-314; محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٣٥٣ هامش رقم(1).

[2] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٢.

ونجد أيضاً الحاج التاجر الذي أتى إلى هذه الأراضي لهدفين: هدف زيارة الأراضي المقدسة، وهدف آخر وهو التجارة والمرابحة، وبالتالي تعددت أشكال الحجاج ودوافعهم، فمنهم من أتى حاجاً فقط، ومنهم من أتى حاجاً ومقيماً، ومنهم من أتى حاجاً تاجراً، ومنهم من أتى غازياً مستوطناً، ومن هنا نجد تداخل بين الحركتين على الرغم من طغيان الدافع الاقتصادي للحركة الصليبية على حركة الحج نفسها.

أما عن الناحية السياسية، فقد كشف لنا عن الطابع البرجماتي للحركة الصليبية بشكل عام ويضعها في إطارها التاريخي الصحيح دون الغلاف الديني الذي تفيض به كتب الحوليات الصليبية، لقد كان الحجاج الصليبيون بشراً بكل معنى الكلمة، وكانوا مقبلين على دنياهم بكل دلالات العبارة، وعلى صخرة المصالح السياسية سقطت مسوح الرهبان التي حرص مؤرخو الحوليات الصليبية أن يلبسوها لأبطالهم، وهو أمر لم يكن دائماً يمت للواقع بصلة[1].

ومما يدل على ذلك سلوك بعض الأمراء الذين خرجوا إلى الشرق الإسلامي، وخاصة بلاد الشام، ومدى تصارعهم وتنافسهم فيما بينهم على تحقيق أطماعهم السياسية، وقد ظهر هذا بوضوح من خلال الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٧م، فقد أخذ الأمراء يقسمون الغنيمة وهم في طريقهم إلى بلاد الشام بالإضافة إلى استحكام المنازعات فيما بينهم أمام أنطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها، ومن استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب، وتخلى عن مواصلة المسيرة والمشاركة في الزحف على بيت المقدس[2].

ومن الجلي البين أن نوضح العلاقة بين الحجاج الصليبيين في صورة حملة الأمراء والدولة البيزنطية، إذ كان من المنطقي أن تتحالف القوتان المسيحيتان ضد الإسلام باعتباره يمثل خطراً مشتركاً لهما. ولكن أحداث الحرب الصليبية الأولى التي دفعت آلاف المسيحيين في الغرب للمضي إلى تأدية الحج إلى الأرض المقدسة كانت نتاج اختلاط وامتزاج دافع سياسي مع عامل ديني.

ونجد الدولة البيزنطية المسيحية قد عانت من الصليبيين مثلما عانى منهم الإسلام والمسلمين، بل إن بيزنطة نفسها كانت هدفاً لإحدى الحملات الصليبية، وهي الحملة

---

[1] محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٢.

[2] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٦.

المعروفة في عداد تلك الحملات بالرابعة(1).

وواقع الأمر رأت الكنيسة الغربية على رأسها البابوية تجميع الغرب الأوروبي صوب الشرق الإسلامي في صورة دمج الحركتين (الصليبية والحج) لإخضاع كنيسة القسطنطينية، وبالتالي كثلكة الشرق.

مما لاشك فيه أن اشتراك ملوك غرب أوروبا بالإضافة إلى أمرائها وفرسانها كان يمثل قوة سياسية للبابوية، التي طالما دفعتهم إلى ذلك عن طريق دعوتها المستمرة في الغرب الأوروبي لشن الحرب المقدسة على المسلمين، فما كان من فردريك بربروسا(2)، وريتشارد قلب الأسد(3)، وفيليب أغسطس (1)، ولويس التاسع(2) وغيرهم إلا الخروج إلى هذه الحرب

---

1) أحمد الشامي، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٨٥م، ص٦٦.

2) فردريك باربا روسا: ملك ألمانيا وإمبراطور الرومان بن فردريك السوابي، ولد عام ٥١٧هـ/١١٢٣م، وشارك عمه كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وتولى الحكم عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م، ودخل في صراع طويل مع البابوية من أجل توسيع دائرة نفوذه ورقعة بلاده عقب وفاة البابا أوربان الثالث عام٥٨٣هـ/١١٨٧م، ومن ثم تيسر له الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة فحمل الصليب عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وفي طريقه نحو فلسطين نزل ليستحم في أحد أنهار آسيا الصغرى في عام ٥٨٦هـ/١٠يونيو ١١٩٠م، عنه انظر: أتو أسقف فريزنج، ما ورد لدى أتو أسقف فريزنج عن الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢٨، دمشق١٩٩٧م، ص٣٤٥-٣٦١؛ مجهول، ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشى، ط. القاهرة ٢٠٠٢م، ص١٦٣-١٧٤؛ سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٣٧٥-٣٨٧؛ ماير، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ج١، ص١٤٩-١٥١؛

Loud(A), Frederic Barbarossa of Germany (1122-1190), in The Crusades an Encyclopedia, Vol.II, P. 472-475.

محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين (فتح عكا ٦٤٨-٦٩٠هـ/ ١٢٥٠-١٢٩١م)، ط. القاهرة ٢٠٠٩م، ص٢١ هامش(٤).

3) ريتشارد قلب الأسد: هو ابن هنري الثاني ووريثه في حكم إنجلترا، اعتلى سدة الحكم في ١١٨٩م وما لبث أن خرج للمشاركة في الحملة الصليبية الثالثة، وبعد عودته من الشرق دخل في حرب طويلة مع فرنسا للمحافظة على أملاكه الأوروبية حتى توفي على أثر جرح بالغ وتوفي عام ١١٩٩م انظر أمبرويز، صليبية ريتشارد قلب الأسد، ضمن الموسوعة الشامية، ج٣٢، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٨٩م، ص٢١٧-٢٨٠؛ ملحمة ريشارد قلب الأسد، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٩، دمشق ١٩٩٣م، ص٢٨٨؛

Round (J.H), "Some English Crusaders of Richard I", in E.H.R, vol.18, No.71

ممتزجة بدافع الحج تحت ضغط من البابوية باستثناء الأخير الذي عرف بتدينه حتى أنه لقب بالقديس لويس.

لقد كانت البابوية في هذا الوقت على درجة كبيرة من القوة والسلطان، ولم يكن أي ملك من ملوك أوروبا يستطيع أن يرفض لها طلباً وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة، بل وفقد عرشه، كما حدث مع فردريك الثاني(3) FrederickII إمبراطور الإمبراطورية

(Jul. 1903), PP.475-481; Nicolle (David),The Third Crusades 1191:Ricahrd the lion heart, Saladin and the Straggle for Jerusalem, Oxford 2006; Gillingham (J.), Richard I the Lion heart (1157-1199), in The Crusades an Encyclopedia, Vol.IV, P. 1031-1034.

سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٤٧٢؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص٢٢ هامش(١).

1) فيليب الثاني أغسطس: ابن لويس السابع ملك فرنسا وحليفته، ولد عام٥٦١هـ/١١٦٥م وتولى الحكم عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م وشارك في الحملة الصليبية الثالثة، حكم لمدة طويلة وصلت إلى ٤٤ عاماً، إذ توفي عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، بعد أن رسخ نفوذ ملوك فرنسا، ووسع نفوذهم مستغلا الحروب ضد الهراطقة المعروفة بالألبجينسية بمباركة البابوية، ولم يتوف حتى صارت فرنسا قوة عظمى في أوربا انظر:

Flori (J.), Philip Augustus of France (1165-1223), in The Crusades an Encyclopedia, Vol.III, P. 950-951.

سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٢٦١-٢٧٤؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص٢٢ هامش(٢).

2) لويس التاسع Louis IX: ولد عام ٦١٢هـ/١٢١٥م في مدينة بويسي Poissy قرب باريس، هو ابن لويس الثامن Louis VIII وبلانش القشتالية Blanche of Castille. توفي والده وهو ابن أحد عشر عاماً، فصارت أمه وصية عليه منذ ٦٢٤هـ/١٢٢٦م حتى ٦٣٢هـ/١٢٣٤م، تزوج من مارجريت البروفنسالية Marguerite of Provence التي ولدت له أحد عشر ولداً. وقد تمكن لويس من قلب الميزان السياسي بين إنجلترا وفرنسا لصالح بلاده، كما قام بحملتين صليبيتين الأولى على مصر، والثانية على تونس التي على أثرها عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، فضلاً عن قيامه بعدة إصلاحات تشريعية وتعليمية وترك عدة منشات معمارية، وعد منذ عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م في عداد القديسين. حول سيرة لويس التاسع انظر: جوانفيل، القديس لويس، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٥٨م؛

Linda (S.), Louis IX of France (1214-1270), in The Crusades an Encyclopedia, Vol. III, P. 757-758;

محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص١٨ هامش(١).

3) فردريك الثاني: خلف والده هنري السادس في حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام

الرومانية المقدسة عندما رفض القيام بحملة إلى الشرق(١) في بداية الأمر، ولكنه قام بقيادة الحملة الصليبية السادسة (٦٢٥هـ-١٢٢٨م/٦٢٧هـ-١٢٢٩م) تحت تهديد من البابوية، وعلى الرغم من المكاسب التي حققتها هذه الحملة بأخذها القدس بالطرق الدبلوماسية، إلا أن البابوية حرمته كنسياً فما كان منه غير أن يتوج نفسه بنفسه في القدس ملكاً(٢).

أما عن الأوضاع السياسية في بلاد الشرق الإسلامي والإمبراطورية البيزنطية ساهمت إلى حد كبير في زيادة حركة الحج، وبالتالي قدوم الحملات الصليبية فقد كان الشرق الإسلامي في تلك الفترة يخضع لعدة قوى منها الخلافة العباسية في بغداد، والسلاجقة في آسيا الصغرى، والفاطميون في مصر والشام، والبيزنطيون في القسطنطينية، وقد أصاب الخلافة العباسية الضعف والانهيار بعد أن سيطر عليها البويهيون(٣)، ولكن بظهور الأتراك السلاجقة

٥٩٤هـ/١١٩٧م بمباركة البابوية في روما، لكنه دخل في صراع معها بسبب الخلافات السياسية ومماطلته في الخروج إلى حملة صليبية، مما أدى إلى حرمانه من قبل بابا روما، وحين خرج في الحملة الصليبية السادسة حقق نجاحاً لم تحققه أكبر الحملات الصليبية دون إراقة قطرة دم واحدة باسترجاع القدس للصليبيين بعد مفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي، وتوفى عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م انظر فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني ضد الأبلينين في سوريا وقبرص، ضمن الموسوعة الشامية، ج٣٤، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٩٨، ص٥-٢٩٩؛

Welier (B.), Frederick II of Germany (1194-1250), in The Crusades an Encyclopedia, Vol.II, P. 475-477.

سعيد عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، المجلة التاريخية المصرية، مجلد١١، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٩٥-٢١٣؛ أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٣٩٠-٤٠٣، محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبين، ص٢٩ هامش(٢).

1) يوشع براور، عالم الصليبين، ت. قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٣.

2) سعيد عبد الفتاح عاشور، الإمبراطور فريدريك الثاني والشرق العربي، ص ٢١٠؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، موسكو ١٩٨٦م، ص٣٠٣.

3) البويهيون: بنو بويه سلالة من الديلم جنوب بحر الخزر حكمت في غرب إيران والعراق سنوات (٣٢١هـ/٩٣٣م-٤٤٨هـ/١٠٥٦م). ينحدر بنو بويه من أعالي جبال الديلم ويرجعون في نسبهم إلى ملوك الساسانية حسب إدعائهم. استمدوا اسمهم من أبو شجاع بويه، والذي لمع اسمه أثناء عهد الدولتين السامانية ثم الزيادية. استطاع ثلاثة من أبنائه الاستيلاء على السلطة في العراق وفارس. خلع عليهم الخليفة العباسي ألقاب السلطنة. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص٨٧-٨٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ج٣، ص٣٩٩؛ حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٨٣ وما بعدها؛ طه حسين، القضاء في بغداد إبان العصر البويهي، ط. القاهرة

ومساندتهم للخليفة العباسي القائم بأمر الله(١) (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م) تمكن من التخلص من نفوذ البويهيين، وما لبث أن أصبح السلاجقة حماة الخلافة بعد أن سيطروا على الخليفة العباسي نفسه(٢).

وقد اتسعت دولة السلاجقة وشملت معظم آسيا الصغرى وأرمينية، وشمال العراق وحلب وبيت المقدس والرملة(٣)، ولكن بوفاة السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٤-٤٨٥هـ/ ١٠٧١-١٠٩٢م) بدأت دولة السلاجقة في الضعف حيث قام صراع مرير بين أفراد الأسرة السلجوقية الحاكمة خاصة بعد حدوث نزاع بين وزيره الشهير نظام الملك(٤) وتركان خاتون(٥) زوجة ملكشاه حول ولاية العهد، فقد كان الأول يريد أن تكون ولاية العهد

٢٠٠٩م، ص٨-١٤.

1) القائم بأمر الله: هو محمد بن عبيد الله بن الحسين القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني والإمام الثاني عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية، تولى الخلافة عام ٣٢٢هـ بعد وفاة أبيه عبيد الله المهدي، وفي عهده بل في نفس العام الذي تولى فيه الحكم توجه جيش الفاطميين إلى الإسكندرية في مصر التي كانت تحت حكم الإخشيد، ولكن لحقت بالفاطميين هزيمة، ولم يتمكنوا من دخولها. توفي القائم عام ٣٣٤هـ وخلفه ابنه المنصور إسماعيل انظر: محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، ص٢٣.

2) محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٧٢م، ص١٢- ١٣.

3) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٩.

4) نظام الملك: أبو علي الحسن الطوسي سنة (٤٠٨ هـ/١٠١٧م)، من مواليد طوس، في بلاد فارس أو ما يسمى حالياً إيران، أحد أشهر وزراء السلاجقة، كان وزيراً لألب أرسلان وابنه ملكشاه، أنشأ نظامية نيسابور وبغداد عام ١٠٦٥م، اغتاله الإسماعيليون. من أشهر مؤلفاته: سياستنامه أو سِيَر الملوك. تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل، وتنظيم أمور الدولة. (انظر: نظام الملك الطوسي، سياسة نامة، ترجمة محمد العزازي، القاهرة (د. ت)، ص٤١٦؛ عبد الهادي محمد رضا، نظام الملك الحسن بن اسحق الطوسى(٤٠٨/ ٤٨٥هـ) كبير الوزراء في الأمة الإسلامية دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله ،ط. القاهرة ١٩٩٩م، ص٣٢٩-٣٣٢؛ اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط، ترجمة عبد الهادى عبله، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص٢٢٦-٢٣٢.

5) تركان خاتون بنت خاجنكش زوجة السلطان تكش بن آيل رسلان، سيدة جليلة تتصف بالعقل الراجح والتدبير المحكم والدين والصلاح والشجاعة والجود والكرم. فمن سياستها وتدبيرها أنه لما توفي السلطان ملك شاه في منتصف شوال ٤٨٥هـ كتمت خبر موته لكي لا يتولى أكبر أولاده ابن زبيدة بنت ياقوتي الملك من بعده، وسارت إلى بغداد ومعها جثة زوجها وهناك بذلت الأموال للأمراء سراً وحملتهم على تولية ابنها محمود سرير الملك. انظر: العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق محمد كمال الدين، ج٣، ط.

لبركيارق الابن الأكبر لملكشاه. أما تركان خاتون، فأرادت لابنها محمود الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره[1] فصارت أسرة السلاجقة في آخر سنواتها مسرحاً للعديد من المنازعات التي أدت إلى ضعفها وتفككها[2].

أما عن الخلافة الفاطمية فقد أصابها الضعف هي الأخرى نتيجة لتولي أمورها خلفاء ضعاف صغار السن، وتركزت السلطة الحقيقية في يد الوزراء[3] بالإضافة إلى سوء الأحوال الاقتصادية التي كانت تعاني منها الخلافة آنذاك، وتعدد عناصر الجيش وانقسامهم، وقيام الصراع بينهم.

وقد انعكست هذه الأحوال على السياسة الخارجية، وبدأت الخلافة الفاطمية تفقد

الرياض ٢٠٠٨م، ص٢٢٤؛ فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ط. القاهرة١٩٧٥م، ص١٧٣-١٧٤.

1) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٠،ص٢١٠-٢١٤؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح البنداري، ط. القاهرة ١٩٠٠م، ص٨١؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامى الدهان، ج٢، ط. دمشق ١٩٥٤م،ص١٠٦؛ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر،ج٢، ط.القاهرة،ب.ت،ص٢٠٣؛ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ج٣،القاهرة ١٣٥٠م،ص٣٧٧؛ مسفرين سالم عريج الغامدى، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامى(٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣هـ)،ط.السعودية١٩٨٦م،ص٣٦؛ محمد عبد العظيم، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٠٧-١١١.

2) عصام محمد شباور، السلاطين في المشرق العربي، بيروت ١٩٩٤م، ص٣٢؛ إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية(جماعة الفرسان الداوية)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م، ص٤٠.

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها في عهد السلطان ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢م/ ٤٦٥-٤٨٥هـ) الذي خلف أباه ألب أرسلان. ولكن قوة السلاجقة لم تستمر في الصعود، بل أخذت بالانحلال أثر وفاة ملكشاة عام ١٠٩٢م (٤٨٥هـ)، فقد خلفه ابنه بركياروق (١٠٩٤-١١٠٤م/ ٤٨٧-٤٩٨هـ)، الذي دخل في نزاع مع أخيه محمود، وحسم النزاع لصالحه. ودخل تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان (١٠٨٧-١٠٩٤م/ ٤٨٠-٤٨٧هـ)، إن مقتل سليمان بن قتلمش جعل آسيا الصغرى تبقى في الفترة (١٠٨٦-١٠٩٢م/ ٤٧٩-٤٨٥هـ) دون حاكم قوي، مما سهل على الصليبين تجاوز آسيا الصغرى، والوصول إلى بلاد الشام. كما دخل تتش في نزاع مع بركياروق ابن عمه ملكشاه، وانتهى بمقتله عام ١٠٩٤م (٤٨٧هـ)، وخلفه ابنه رضوان في حكم حلب (١٠٩٥-١١١٣م/٤٨٨-٥٠٧هـ)، وخلفه ابنه الثاني دقاق في حكم دمشق (١٠٩٥-١١١٣م/٤٨٨-٥٠٧هـ)، ودخل رضوان ودقاق في نزاع كبير، وهكذا لم يصل الصليبيون إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام إلا وقد انقسمت دولة السلاجقة إلى خمس ممالك متنازعة، مما ساعد على نجاح الحملة الصليبية الأولى. انظر: عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام، ص٦٠.

3) محمد محمد مرسي الشيخ، الجهاد المقدس، ص٤٣.

بعض مدن الشام الواحدة تلو الأخرى. وعلى الرغم من محاولات الفاطميين استعادة تلك المدن إلا أنهم لم ينجحوا إلا في استعادة مدينة بيت المقدس عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م أثناء انشغال السلاجقة في الصراع مع الصليبيين في بداية الحملة الصليبية الأولى[1].

خلاصة القول، فقد ظهر الانقسام في أوصال الجبهة الإسلامية، في منطقة الشرق الإسلامي، عند فجر الحركة الصليبية، فقد سيطر السلاجقة على بغداد، ولم يبق للخلفاء العباسيين سوى الاسم، ودخل السلاجقة في نزاع فيما بينهم وبين الخلافة الفاطمية، وكان في بلاد الشام عدد من الإمارات المستقلة، بالإضافة إلى السلاجقة، وكانت هذه الإمارات في نزاعات مستمرة مع جيرانها، الأمر الذي كان له الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى، حيث كانت الظروف مواتية أمام الجيوش الصليبية لتحقيق أغراضها، ولولا وجود الصراع بين القوى الإسلامية، لما تمكن الصليبيون من إنجاز أي نصر عسكري على القوات الإسلامية[2] في صورة الحج المسلح.

أما عن الدولة البيزنطية فقد بدأت هي الأخرى تتعرض لهزات عنيفة ولاسيما الهزيمة الكبرى التي مني بها الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV (١٠٦٨-١٠٧١م/ ٤٦٠-٤٦٣هـ) في موقعة ملاذكرد[3] عام ١٠٧١م/ ٤٦٤هـ على يد

---

1) ابن ميسر، أخبار مصر، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨١م، ص٦٥-٦٦.

2) عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام، ص٦٣.

3) معركة ملاذ كرد هي معركة وقعت بين السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان والبيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانوس ديوجينس في ٢٦أغسطس ١٠٧١م/ذي القعدة ٤٦٣هـ انتصر فيها السلاجقة وأسر الإمبراطور البيزنطي بيد السلاجقة لم يخلص نفسه إلا بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف من الدينارات، وكانت هذه هي البداية انتهاء الدولة البيزنطية واندحارها وعقد الروم صلحاً مع السلاجقة مدته خمسون عاماً، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٩٩؛

Cahen (C.) " The Turkish Invasion", in Setton A History of the Crusades, Vol.I, Philadelphia 1955;

أرشيد يوسف، سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠، ط. عمان ١٩٨٨م، ص٥١-٥٤؛ محمود سعيد عمران، الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينس ١٠٦٨-١٠٧١م في ضوء حولية ميخائيل بسلوس، ضمن كتاب بحوث في مصادر العصور الوسطى،الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص١٩٨-٢٠٢.

السلطان السلجوقي ألب أرسلان (٤٥٥-٤٩٥هـ/١٠٣٦-١٠٧٢م)[١] وفي الجانب الغربي فقد البيزنطيون مدينة باري التي تعتبر آخر معاقلهم في جنوب إيطاليا عام ١٠٧١م/٤٦٣هـ بعد أن استولى عليها روبرت جويسكارد Robert Guischad[٢] زعيم النورمان.

وعلى أية حال، فإن الهزائم المتتالية التي منيت بها الدولة البيزنطية في الجهتين الآسيوية والأوروبية، قد أضاعت من هيبتها كما أن الحروب الكثيرة التي خاضتها قد أنهكت قواها.

وهكذا كان الشرق الإسلامي منغمساً في الفتن والانقسامات السياسية والمذهبية، بينما كان الغرب الأوروبي في تلك الفترة يعد العدة لإرسال المحاربين الصليبيين إلى الشرق في صورة حجاج الصليب، ومن هنا تتضح النية الحقيقية للبابوية في مزج الدافع السياسي لحركة بغلاف شكلي في صورة الحج إلى الأراضي المقدسة، فقد استغلت البابوية سذاجة هذه الجموع

---

1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٣٨٨-٣٨٩؛. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٨، بيروت ١٩٩٢م، ص٣٦٢-٣٦٤.

Cahen (C.), "La Compagen de Mantzikertal", Apres les Cources Musulmanes", Byzantion (1934), PP.628-642.

ألب أرسلان: عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن جفري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق. كان رابع حكام السلاجقة، ويعني اسم ألب أرسلان الأسد الثائر وهو الاسم الذي اكتسبه من مهاراته في القتال وانتصاراته العسكرية. بعد وفاة طغرل بك المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة عام (٤٥٥هـ/١٠٦٣م). تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه داود عام (٤٥١هـ/١٠٥٩م)، وكان يعاونه دوماً وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك. انظر: الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٠-٤٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٦١-٧١.

2) روبرت جويسكارد (١٠١٥-١٠٨٥م) زعيم نورماني، وكلمة جويسكارد تعني الداهية، خلف أخاه كدوق لأبوليا، Apolia عام ١٠٥٧م، وفي عام ١٠٧١م أخضع باري Bari أخر المراكز البيزنطية في الغرب، وحاول أن يكون سيداً على الإمبراطورية البيزنطية بأن دافع عن قسطنطين دوكاس ابن ميخائيل السابع خاصة بعد زواج قسطنطين هذا من ابنة روبرت جويسكارد، وقد تمكن من هزيمة الإمبراطور الكسيوس كومنين، واحتل كورفو ودوراز عام ١٠٨٢م، وزحف على القسطنطينية إلا أنه اضطر للعودة إلى إيطاليا لمعاونة البابا جريجورى السابع ضد عدوه الإمبراطور هنري الرابع بعد أن ترك قيادة قواته وابنه بوهمند، وقد توفي روبرت جويسكارد عام ١٠٨٥م.

أنا كومنيا، ألكسياد، ص٦١-٦٥؛ محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، ص٣١٠ هامش(١).

الغفيرة من الحجاج الصليبيين بإلباسهم لباس الحاج الصليبي لغزو الشرق، فكان بذلك الجانب السياسي هو المحرك الفعلي الذي طغى على الدافع الديني.

أما عن الناحية الاجتماعية فيجب علينا الإشارة إلى الوضع الاجتماعي في أوروبا العصور الوسطى في هذه الأثناء، لقد كان النظام الإقطاعي[١] الذي ظهر في أعقاب انهيار إمبراطورية شارلمان، وهو نمط الإنتاج السائد في الغرب الأوروبي منذ القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري[٢].

وعلى هذا يمكن تصور المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى في شكل مثلث يتألف من ثلاث أضلاع: النبلاء، والفرسان الذين يحاربون، ورجال الكنيسة الذين يصلون وهم يشكلون ضلعي هذا المثلث، ثم المزارعون من الأحرار والأقنان (الذين ينتجون)، وكانوا بمثابة قاعدة هذا المثلث الإقطاعي[٣]، فقد كانت تمثل الطبقة الدنيا والغالبية المغلوبة على أمرها وكان أبناء هذه الطبقة يعانون من الشقاء والمظالم الاجتماعية المختلفة ويعملون؛ ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليتين، ويعيشون في ظل نظام طبقي ظالم، حيث كانوا مثقلين بعدد من الضرائب مثل ضريبة الرأس رمزاً لتبعيتهم، بالإضافة إلى الضرائب المفروضة على ماشيتهم وما تنتجه أراضيهم[٤].

لقد عاش العبيد والأقنان عيشة قاسية في ظل نظام الضيعة، وحرموا من أبسط حقوقهم الإنسانية، ولم تكن لهم ملكية خاصة لأن كل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً للسيد الإقطاعي، فالأقنان لا يملكون شيئاً أو يستطيعون التصرف في شيء، لأن القن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وعرق جبينه[٥]، فقد مثلت الأقنان الغالبية العظمى من السكان

---

1) عن النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي انظر: كوبدلاند وفينوجرادون، الإقطاع في العصور الوسطى بغرب أوروبا، ت. محمد مصطفى زيادة، ط. القاهرة ١٩٤٥م؛ إسحق عبيد، الفرسان الأقنان في مجتمع الإقطاع، ط. بني غازي ١٩٧٥م.

2) محمد مؤنس عوض، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٦.

3) قاسم عبده، ماهية الحركة الصليبية، ص٥٣.

4) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج٢، ص٢٧٦؛ قاسم عبده قاسم، الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، ج٢، ط.القاهرة ١٩٨٣م، ص١٩٦؛ عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام، ص٣٢.

5) محمد محمد مرسي الشيخ، عصر الحروب الصليبية في الشرق، ط. الإسكندرية ١٩٩٦م، ص٢٩.

الذين يعيشون حياة قاسية تفتقر إلى الأمن والاستقرار(١).

وبالإضافة إلى ظهور طبقة جديدة تسمى الطبقة البرجوازية Bourgeois أي سكان المدن الجديدة (Bourg-Burg)، وسكان هذه الطبقة يعيشون في مدن مسورة، وجاءوا من خلفية اجتماعية غامضة ومجهولة، إذ أن بعضهم جاء من الشرائح الدنيا من طبقة الفرسان الذين لا يملكون أرضاً، وقيل أن البعض الآخر كانوا من الأقنان.

ولم يكن لهؤلاء البرجوازيين أية مكانة بين طبقات المجتمع الثلاث السابقة، واستخدموا أموالهم في بناء أسوار مدنهم، وإقامة الكنائس، وشراء امتيازات الحكم الذاتي من حكام المناطق التي وجدوا فيها، وكانوا يكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات الصوفية والاتجار فيها(٢).

وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوروبا يحيون حياة شاقة مليئة بالذل والهوان، وكان ذلك في الوقت الذي علت فيه الدعوة للحروب الصليبية، وقد وجد هؤلاء دعوة البابا أوربان الثاني فرصة سانحة للتخلص من وضعهم المتدني، حيث كفلت لهم هذه الدعوة المشاركة في تلك الحروب لتحقيق أمرين كانا غاية أي فلاح أوروبي معدم، الأولى

---

1) عاش الأقنان في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها غطيت سقوفها وأرضيتها من الطين والقش دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أساس، عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الأدوات الفخارية والمعدنية. وكان معظم أولئك الأقنان محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية، فكل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعي، لأن القن محروم حتى من الملكية الشخصية، في حين كل الحقوق كانت موجهة إلى الفرسان والنبلاء. انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص٣٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٢٨.

لمزيد من التفاصيل عن أحوال المجتمع الأوروبي عشية الحروب الصليبية انظر: سيدني بأنتز، أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية، ت. سعيد عبد المحسن، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، رام الله ٢٠٠٤م، ص١٠-٣٥.

2) موريس كين، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٤م، ص٩٩؛ نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٧م، ج٢، ص٣٤٢-٣٤٣؛ نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج٢، دمشق ١٩٨٢م، ص٨٨٧-٨٨٨؛ قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص٧٥؛ عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام، ص٣٢.

التحرير من قيود النظام الإقطاعي، والثانية خلاص نفوسهم من الذنوب، لأن البابوية وعدتهم بتكفير ذنوبهم(١) بالوصول إلى أرض الميعاد.

وهنا نجد تداخل الحركة الصليبية مع حركة الحج في ذهاب هذه الجموع الغفيرة من الأقنان إلى الأراضي المقدسة بفلسطين التي تفيض لبناً وعسلاً بدافع زيارة ومشاهدة الأماكن المقدسة، التي شهدت آلام المسيح، والتي طالما اشتاقوا إليها، وبدافع آخر أكثر تأثيراً وهو البحث عن أرض جديدة بها موارد اقتصادية كبيرة، واتضح ذلك بشكل فعلي في الحملة الشعبية عام ١٠٩٦م.

ومن الملاحظ أن من قام من هؤلاء بالحج والزيارة ثم عاد إلى وطنه في أوروبا بعد ذلك نعتبره حاجاً بالفعل. أما من بقي في الأراضي المقدسة يمكن أن نطلق على بعضهم حجاج ومستعمرين جدد (الحاج المجاور)، فهو يعيش في كنف الأراضي المقدسة، وليس معنى ذلك أن كل من استعمر الأرض المقدسة من الصليبيين حجاجاً بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكن يمكن اعتبارهم مستعمرين جدد للأرض العربية الإسلامية.

أما طبقة النبلاء من الفرسان فقد كانوا طبقة أعلى من باقي طبقات المجتمع، وازدادت مع الزمان نفوذاً واتسعت سلطاتها، فالفرسان جنود الله أو جنود الكنيسة حتى ينال الجنود الغفران عن آثامهم، فإنهم لا يسعهم إلا أن يلجأوا لأحد سوى الكنيسة، لكن الكنيسة يمكنها عمل ما هو أكثر من تقديم التكفير الملائم؛ فمن خلال التشريع الكنسي، لا يتسنى للجندي الفرد الحصول على الغفران عن خطاياه، ويمكن تحريره من طابعها الآثم(٢)، ولهذا السبب كانت الحروب المتواصلة الدامية التي تشنها أوروبا ضد غير المسيحيين الغربيين من أولى الواجبات المفروضة على الفارس(٣).

---

1) رأفت عبد الحميد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٥٩؛ علية عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ص٢٤٩.

2) توماس ماستناك، السلام الصليبي، ص٤٣؛

Moler (J.), Why the first Crusade was not a Pilgrimage, Al-Masáq, Vol.15, No.2, September 2003,P.121.

3) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الإسكندرية ١٩٨٧م، ص١٨٣.

لقد كان لهؤلاء الفرسان إقطاعات متناثرة في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وغيرها من البقاع الأوروبية، ووجدت هناك القلاع التي استقر فيها السادة الإقطاعيون، واستخدمت تلك القلاع لإدارة الإقطاع، وكانت تنشب بين الحين والآخر صراعات حربية بين السادة الإقطاعيين من أجل السيطرة على الأرض وما عليها من دواب وأقنان، وحاولت البابوية بوصفها أعلى مؤسسة روحية، وقف هذه النزاعات دون جدوى، ومن ثم ظهر ما يعرف بهدنة الرب، وكان هدفها فترة سلام لا تخرج فيها السيوف، غير أن هذه المساعي ذهبت أدراج الرياح وباءت بالفشل[1].

وقد شجع النبلاء على الاشتراك في الحروب الصليبية أن الإقطاعات في غربي أوروبا لم تعد تكفي أفراد العائلات النبيلة المتزايدة خاصة بعد انتشار تطبيق النظام الذي عرف باسم Primogeniture والذي نص على منح أكبر أولاد[2] السيد الإقطاعي وامتيازاته بعد وفاة الوالد، وبذلك يصبح على باقي الأبناء السعي في اتجاه آخر للبحث عن إقطاعات خاصة بهم، لذلك وجد المحرومون من الإرث الإقطاعي، خاصة نبلاء فرنسا في الحروب الصليبية التي ربطت الواجب المسيحي بامتلاك الأراضي فرصة للسفر والمغامرة في بلاد الشرق الإسلامي[3]، فما كان من الكنيسة غير توفير الدعاية للحرب المقدسة.

وهكذا كان النظام الإقطاعي في أوروبا يدعو للتوسع والسيطرة، ولم تجد نفعاً فكرة سلام الله Pax de Dei وهدنة الله، وما لجأت إليه الكنيسة من تشجيع المبارزات الفردية لم يؤدِ إلى نتيجة إيجابية، لذا حرصت الكنيسة على تشجيع الفرسان على قتال المسلمين[4].

ففي خطبة البابا أوربان الثاني الشهيرة حث على أن يحرص المحاربين على أن يشتركوا في الحرب المقدسة، واستهدف البابا من هذا أن يعود النفع على المسيحيين في الغرب،

---

1) محمد مؤنس عوض، سندبان في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص١.

2) فاروق عمر فوزي، ومحسن محمد حسن، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ط. عمان ١٩٩٩، ص١٥٣.

Cowdrey, "The Genesis of the Crusades, the Springs of Western Ideas of Holy War", in the Holy War ed. by Thomas Patrick Murphy, Ohio University 1974, P.13.

3) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ص١٢٨.

4) توماس ماستناك، السلام الصليبي، ص٦٥.

بالاستعاضة عن الحروب الداخلية، بالاشتراك في حروب خارجية، فيتحول أولئك الذين يحاربون إخوانهم وأقاربهم إلى الشرق لاستخلاص المدينة المقدسة التي غدت المرمى الذي يتوجه إليه الحجاج الصليبيون، وأصبحوا يعرفون برواد بيت المقدس[1].

وكان أكثر ما يأمله الحجاج المسيحيون أن يتوجهوا إلى القبر المقدس ليؤدوا الشعائر والطقوس، ولم يكن الصليبيون إلا حجاجاً محاربين، ساروا ليفتحوا الطريق إلى بيت المقدس، وليستردوا المدينة المقدسة، فأصبحوا عساكر المسيح Milites Christi فأضحوا حجاجاً قاموا بحرب هجومية.

لقد أشبع الفارس بذلك نزعته الحربية، وينال الخلاص والتطهير من الذنوب، وهو ما يرضي الجانب الروحي من طبيعته، يضاف إلى ذلك ما حدث في أوروبا من ازدياد عدد السكان، وتقصير الأراضي من سد حاجة المقطعين، فكان لابد من السعي للحصول على إقطاعات جديدة بالتوسع شرقاً، وهذا يفسر اشتراك أمراء مثل بلدوين وبوهيموند وتانكرد في الحروب الصليبية، إذ هيأت لهم الفرصة لإقامة إمارات لهم في الشرق[2].

من هنا يتضح لنا أن الحركتين قد اندمجتا بشكل كبير، لقد كان على أوروبا أن تخرج من مأزقها في صورة خروج المحاربين من النبلاء الإقطاعيين والفرسان إلى أرض جديدة، وليس هناك مكان أفضل من الأراضي المقدسة حاملين معهم سيف وشارة الصليب بمباركة الكنيسة، بالإضافة إلى حصولهم على إقطاعات جديدة في صورة تكوين إمارات صليبية، كتعويض عما تركوه في الغرب الأوروبي.

أما الطبقة الثالثة من المجتمع الأوروبي ونقصد بهم رجال الدين[3]، فكانوا القوة المحركة لحركة الحج، كان هدف خطاب البابا أوربان الثاني أن يحث المحاربين على أن يشتركوا في الحرب المقدسة، وأن يجعل الأساقفة ورؤساء الأديرة بالمجمع يسهمون في ذلك، فما كان من هؤلاء إلا تحميس العامة ودعوتهم إلى التوجه إلى الشرق لتخليص قبر المسيح ﷺ من أيد المسلمين كما يعتقدون، فقد لعب هؤلاء دوراً مهماً بتوصيل فكرة البابا أوربان في هذا الجانب

---

1) السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص١٥٦.

2) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٦-٧.

3) هم الضلع الثاني من أضلاع المثلث الإقطاعي، والجناح الديني لهذا المجتمع فيشبهون بالرأس والعيون كما شبه النبلاء بالذراعين واليدين، والعامة بالأرجل والأقدام، باعتبار أن القساوسة هم رأس المجتمع وعينه.

من خطابه، ومن ثم حدث تفاعل كبير بين هاتين القوتين[1] في صورة المحاربين من النبلاء والفرسان ورجال الدين، وقد وصل هذا التفاعل إلى مداه في القرن الحادي عشر الميلادي، بحيث أفرزت حركة الحج، إذا كان هذا التداخل بين المؤسستين الكبيرتين في المجتمع الأوروبي، ونعني بهما الإقطاع والكنيسة مصدر قوة لهذه الحركة التي كانت جزء من الحركة الصليبية بأهدافها المختلفة، وبناءاً على هذا فقد أسفر الجانب الاجتماعي بجوانبه الثلاثة عن ظهور حركة الحج ممتزجة في الحركة الصليبية بشكل واضح.

نخلص من العرض السابق، أن حركة الحج قد امتزجت مع الحركة الصليبية في دوافعها وجوانبها، فالدافعين الديني والاجتماعي كانا أكثر وضوحاً مع حركة الحج. أما الدافع الاقتصادي والسياسي فقد لعبت البابوية دوراً كبيراً في ترسيخهما في عقول الحجاج الصليبيين، وذلك وفق لمصلحتها.

(1) قاسم عبده قاسم، الدوافع الاجتماعية للحروب الصليبية، ص٢١٦.

الفصل الثاني

جهود مملكة بيت المقدس لتأمين حركة الحجيج

يتناول هذا الفصل بالدراسة جهود مملكة بيت المقدس لتأمين حركة الحجيج، من حيث تأمين طريق يافا – القدس، وأيضاً الاستحكامات الحربية في القرن الثاني عشر، بالإضافة إلى الاستحكامات الحربية في القرن الثالث عشر.

تمثل الطرق والقلاع في بلاد الشام أهمية خاصة بالنسبة لرحلات الحج، التي سلكت الطرق الشامية لزيارة بيت المقدس، والأماكن الأخرى عند نهر الأردن وغيرها من الأماكن المقدسة، ولهذه الاعتبارات فإن الملوك الصليبيين لم يهملوا أمر فرض سيطرتهم على هذه الطرق والقلاع، وذلك لتأمين رحلات الحج من وإلى بيت المقدس الصليبية.

وكان إنشاء العديد من القلاع والحصون هدفاً ملحاً وأساسياً لتأمين طريق الحج المسيحي، ذلك لأن هيبة ومكانة مملكة بيت المقدس الصليبية بصفة عامة كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية الحجاج القادمين إلى فلسطين من جميع أنحاء العالم من أجل القيام بشعائر الحج، لذلك قصدها الآلاف منهم من كافة الأرجاء، وكان تأمينهم خلال رحلتهم إلى تلك البقاع بمثابة خير دعاية للقيادة السياسية الصليبية في الساحل الشامى داخل أوروبا، لذا عمل الصليبيون على تشييد العديد من القلاع على طريق الحج، لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة المسلمين لهم[1].

فمن المعروف أن الحجاج القادمين من الغرب الأوروبي سلكوا الطرق من عكا أو يافا إلى بيت المقدس، وكذلك الطرق المؤدية إلى نهر الأردن، وقد امتد الطريق الرئيسي الأول في بلاد الشام بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، ولم يكن يمتد بصورة مستقيمة، وإنما اتخذ شكل تعاريج، حيث يتسع في بعض مناطقه، ويضيق في مناطق أخرى تبعاً للستار الجبلي الذي يغلق الساحل تماماً، ومن ثم أخذ هؤلاء الحجاج يسلكون الطريق عبر ممرات لا يعرفها سوء الإدلاء البيزنطيين أو أهل البلد الأصليين.

وقد أطلق عليه بعض المسميات منها طريق الساحل Via Maritima[2]، كما عرف

---

1) عبد الرحمن زكي، "القلاع في الحروب الصليبية"، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، م(١٥)، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٥٨؛ محمد مؤنس عوض، "وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية للمملكة بيت المقدس الصليبية ١١٣٧-١١٥٠م/٥٣٢-٥٤٥هـ"، ضمن كتاب الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٤٧.

2) William of Tyre, A History of Deeds done beyond the sea, trans. By E.W.

باسم طريق النواقير أو النافورة وهي المنطقة ما بين عكا وصور[1].

هذا عن الطرق الرئيسية. أما عن الطرق الفرعية فقد تأثرت في بلاد الشام بامتداد مجموعة من السلاسل الجبلية الممتدة في القسم الشمالي منها بصفة خاصة، غير أن وجود عدد من الممرات بين هذه الجبال أتاح تفرع مجموعة من الممرات داخل هذه الطرق، كانت تمثل حلقة الوصل بين المدن الداخلية والساحل الشامي، فعلى سبيل المثال ارتبطت دمشق بعكا عبر الطريق المار بسفح جبل حرمون إلى بانياس، ثم هضبة الجليل الأعلى إلى هونين وتبنين، ثم بعدد من الضياع والقرى حتي يصل إلى عكا[2].

ومن الطرق الفرعية المهمة أيضاً مجموعة امتدت من عكا إلى طبرية والناصرة، وبعد ذلك جنوباً إلى نابلس عبر السامرة إلى بيت المقدس. كذلك امتدت مجموعة من الطرق من يافا إلى اللد والرملة وعمواس إلى بيت المقدس[3].

بالإضافة إلى ذلك كانت هناك شبكة من الطرق داخل الإقطاعات الصليبية ربطت بين توابعها المختلفة، وشكلت مجموعة الطرق في القسم الجنوبي من بلاد الشام أهمية خاصة بالنسبة للحجاج القادمين لزيارة بيت المقدس، والمناطق الأخرى المقدسة عند نهر الأردن[4].

هذا عن أهم الطرق. أما عن عملية تأمين هذه الطرق فمن المعروف أن الصليبيين قد

Babcock, New York, 1943, Vol. I. P.421-422; Benvenisti, The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem 1976, P.310;

حسن عبد الوهاب حسين، "أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام ١٠٩٧-١١٨٩م/٤٩٠-٥٨٤هـ"، ضمن دراسات في التاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م، ص٤٦.

1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، بيروت ١٩٨٤م، ص٣٠٦؛ البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م، ص٣٢٢؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، ج٢، بيروت (بدون تاريخ)، ص٢٦٢.

2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٧٨-٣٨٤؛ حسن عبد الوهاب حسين، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، ص٥٠.

3) الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ١١٠٦-١١٠٧م، ترجمة سعيد البيشاوي، داود إسماعيل، عمان ٢٠٠٣م، ص١٠١-١٠٥؛ حسن عبد الوهاب حسين، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين، ص٥٠؛ The City of Jerusalem in P.P.T.S, trans, By. C. R. Conder, Vol.VI, London 1888, PP.30-46.

4) حسن عبد الوهاب، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين، ص٥٠.

تمكنوا بعد حصار طويل من الاستيلاء على بيت المقدس في ١٥ يوليو ١٠٩٩م/شعبان ٤٩٢هـ، وتم تعيين جودفري دي بوايون Godfrey de Bouillon(١) حامي للقبر المقدس(٢) Advocatus Sancti Sepulchri، ونتج عن ذلك استيلاء الصليبيين على قلعة بيت المقدس (برج داود)، ولتدعيم المدينة كان لابد من تحقيق السيطرة على القلاع والمدن الإسلامية القريبة منها، وكذلك توفير الأمن للطريق الذي يربط القدس بيافا.

ومهما يكن من أمر، فبعد أن استولى الصليبيون على مدينة يافا اتخذوا طريق يافا – القدس ليصلوا إلى بيت المقدس، وفي الطريق استولوا على مدينة الرملة، وبيت لحم ليصلوا إلى أسوار المدينة المقدسة في يوم الثلاثاء ٧يونيو ١٠٩٩م/ ١٥رجب ٤٩٢هـ حيث شرعوا في حصار المدينة ومهاجمتها بشدة لمدة عشرة أيام(٣).

أقام الصليبيون حاميات عسكرية صغيرة في مدينة يافا – الرملة لتأمين خطوط الاتصال

---

1) عن انتخاب جودفري حاكماً للكيان الصليبي انظر: بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الإسكندرية ١٩٩٨م، ص١١٦؛ ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين محمد عطية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م، ص٢٥٧؛

Painter (S.), A History Middle Age 284-1500, London 1963, P.207; Daniel-Rops, Cathedrol and Crusades, Translated by John Warrington, London 1959, P.447;

عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس، ص٦١؛ جمعة مصطفى الجندي، نظم الحكم والإدارة في مملكة بيت المقدس الصليبية، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٩٣.

2) ولد جودفرى البويوني عام ١٠٦٠م، في بولونيا Boulogne sur-Mer على الأرجح، وكان أبوه يوستاش الثاني كونت بولونيا، وأمه إيدا Eda ابنة جودفري الملتحي دوق اللورين الأدنى، كان يعمل في خدمة الإمبراطور الألماني هنري الرابع، عن جودفري دي بوايون انظر

Fulcher of Chartres, P.72; Parisse, "Godfrey de Bouillon", Le Croisade exampliere, L' Histoire, T.xlvII, Année 1982, PP.18-25;

قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، ص١٥٠ هامش (١).

سرور عبد المنعم علي، "جودفري دي بويون حاكماً للكيان الصليبي في بلاد الشام ١٠٩٩-١١٠٠م/ ٤٩٣-٤٩٤هـ"، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ط. القاهرة ٢٠٠٤م؛ مفيد الزيدي، موسوعة الحروب الصليبية، ص٦٥-٦٦.

3) ريموندداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٢٣٥-٢٤٨.

بين يافا – القدس، وظل هذا الطريق غير آمن لمدة تزيد عن عقود من الزمان، ويصعب اجتيازه بدون حراسة مسلحة ولم يستطع التجار والحجاج اجتيازه دون حراسة مسلحة، لهذا حرص ملوك بيت المقدس على بذل الجهد لتوفير الأمان لطريق يافا – القدس، ويأتي على رأس هؤلاء جودفري دي بوايون حامي القبر المقدس الذي عمل على ضرورة توفير الأمن لدولته الناشئة، وتركزت سياسته في محاولة توفير الأمن لطريق يافا – القدس، ومواجهة النقص العددي لدولته بعد أن عاد أغلب المشاركين في الحملة الصليبية الأولى إلى أوروبا(١).

وبعد وفاة جودفري دي بوايون في ١٨يوليو ١١٠٠م/٤٩٤هـ(٢)، تولى الحكم أخوه بلدوين الأول ١١٠٠-١١١٨م(٣) حاكم الرها، الذي أدرك بلا جدال أن حملات الفاطميين تعددت أهدافها المحدودة إلى تهديد أملاك الصليبيين وكيانهم ببلاد الشام، وذلك بتهديد طريق يافا – القدس(٤)، فخرج في نوفمبر ١١٠٠م/٤٩٤هـ على رأس مائة وخمسين من المشاه، وهاجم العربان الذين دأبوا على تهديد طريق الحجاج إلي بيت المقدس، وكذلك على عسقلان، كما أغار على بعض المراكز قرب البحر الميت، وأخيراً عاد إلى بيت المقدس في ديسمبر ١١٠٠م/ ٤٩٤هـ)(٥). ولم يطل أمان الطريق فما أن عادت القوات الصليبية إلى قواعدها عاد وضع الطريق لحالته من الاضطراب وعدم الأمان(٦).

---

1) سرور علي عبد المنعم، "طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الإسلامي ١٠٩٩-١١٥٣م/٤٩٢-٥٤٨هـ"، مجلة الشرق الأوسط، العدد٢٥، ج١، سبتمبر ٢٠٠٩م، ص١٤٠.

2) Mattieu d'Edessa, Chronique in R.H.C., Hist. Doc Arm, T. I, 1889, P.38.

3) أرسل أسقف الرملة ومعه اثنين من الفرسان لمقابلة بلدوين ولمطالبته بالحضور على وجه السرعة، لاستخلاص حقوقه وتولي السلطة بوصفه الوريث الشرعي لدولة الصليبيين في بيت المقدس فأسرع بلدوين وسلك الطريق الساحلي من أنطاكية إلى الجنوب حيث واجه مخاطر شديدة خاصة عند مصب نهر الكلب. هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الأول، ط. القاهرة ٢٠٠٨م، ص٣٧.

4) سرور على عبد المنعم، طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٤١.

5) William of Tyre, Vol. I, P.426-427;

سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٢٢٦؛ عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٧٣؛

Brooke (Z.N.), A History of Europe from 911-1198, Vol. II, London 1939, P.316; Funck, (F.) Les Croisades, Paris 1934, P.95; Par (E.), Du Bois, Les Croisades, Paris 1860, P.82.

6) رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢-١١٠٣م، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان

وقد استفاد بلدوين الأول من فترة الهدوء التي أعقبت هزيمة الفاطميين خلال هذه المدة، وذلك بتوطيد مركزه بالساحل الشامي، فعلى الرغم من نجاحه في الاستحواذ على العديد من مدن الساحل الواقعة بين يافا وحيفا وآخرها جبيل، إلا أنه لم يكتف بذلك، فكان لا يرضى إلا بمحاولة السيطرة الكاملة على ذلك الشريط الساحلي الفاطمي الممتد من بيروت حتى عسقلان وتكوين رؤوس جسور للصليبيين على الساحل الشامي، ليستمر في اتصاله بالغرب، خاصة وإن الأخطار لا تزال تحيط بمدن الساحل التي استولى عليها، فقد دأب المغيرون من المسلمين على ارتياد المناطق التي تربط بين المدن الساحلية بين يافا وحيفا، وخاصة تلك المناطق الواقعة على منحدر جبل الكرمل[1].

وقد اتخذ الفاطميون من عسقلان قاعدة عسكرية وبحرية متقدمة في جنوب الشام، تشن الهجمات والغارات على الإقليم الصليبي ببلاد الشام، بجانب دورها في تشكيل تهديد مباشر على الحجاج القادمين من الغرب الأوروبي، الذين كانوا يرسون في يافا، ومن هناك يتجهون إلى القدس، ولهذا فإن عسقلان بحاميتها القوية سببت حالة من الرعب والفزع بين صفوف الحجاج المسيحيين الوافدين على الأراضي المقدسة ما يقرب من خمسين عاماً.

وقد استغل الوزير الأفضل[2] عسقلان كقاعدة عسكرية لقواته وأساطيله في بلاد

١٩٩٧م، ص٢٣؛ صلاح الدين عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٠م، ص١٣٦.

1) رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة، ص٢٣؛ سرور على عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٤٢.

2) هو أبو القاسم شاهنشاه الملك الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، كان أبوه أرمني الجنسية، وكان من الرجال المعدودين من ذوي الآراء والشهامة والقوة. وقد استنابه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م) بمدينة صور، ولكن لما ضعفت أحوال البلاد المصرية استدعاه الخليفة عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م لتدبير أمور الدولة بمصر، فأصلح الحال بها. ولما اشتد به المرض مهد الأمور لابنه الأفضل لتوليه أمر الوزارة من بعده. وكان الأفضل حسن التدبير، وهو الذي نصر المستعلى على أخيه نزار واقامه على حكم مصر خلفاً لأبيه المستنصر بالله وفي نفس الوقت له الفضل في مناصرة الأمر بإحكام الله لتوليه أمور الخلافة بعد وفاة المستعلى عام ٤٩٥هـ/١١٠١م. انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٣-٢٠٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، حيدر أباد الدكن، الهند ١٩٥١م، ص١٠٤؛ ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج٦، ط. القاهرة ١٩٦١م، ص٤٨٥-٤٨٧؛ أسامة زكي زيد، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبيين في عهد

الشام، ومركزاً لهجماته المضادة للصليبيين بعد سقوط القدس، وملجأ آمناً تلوذ به القوات الفاطمية في حالة هزائمها العديدة أمام الصليبيين، كما تمكن الأفضل استغلال موقع عسقلان الواقع قرب الطريق المهم الذي يربط بين يافا والقدس، ويسير فيه الحجاج المسيحيون، وتصله الإمدادات من الغرب، وذلك لشن غارات عديدة على هذا الطريق، وإعاقة وصول الحجاج والإمدادات الآتية لمملكة بيت المقدس الصليبية، ونشر حالة من الرعب والذعر بين الصليبيين في المناطق الواقعة جنوب وغرب بيت المقدس[1].

وقد أشار الرحالة سايولف Saewulf الذي مر بالطريق المذكور بين عامي ١١٠٢/١١٠٣م إلى ذلك بقوله: "اعتاد المسلمون على نصب الكمائن والمصائد للمسيحيين، إذ أنهم كانوا يختبئون في الأماكن الجوفاء من الجبال والكهوف الصخرية، ويراقبون ليلاً ونهاراً حتى تسنح الفرصة لمهاجمة مجموعة من المسافرين، أو الهجوم على أولئك الذين يتخلفون وراء جماعتهم بسبب التعب والإرهاق، وفي لحظة ما يمكن رؤيتهم في كل مكان، ثم يختفون كلياً". وكان يمكن لأي شخص يقوم بمثل هذه الرحلة أن يرى ذلك، كم هو كبير عدد الجثث الملقاة أو الممزقة من قبل الوحوش في الطريق أو على جانبه، ويمكن للبعض أن يندهش، لأن الجثث المسيحية ملقاة هناك غير مدفونة، ولكن يجب أن لا يندهش المرء بتاتاً، حيث إنه لا يوجد إلا قليل من التراب، ولا يمكن الحفر بسهولة في الصخور الصلبة، وحتى لو وجدت الأرض الترابية من هو الأحمق الذي سيكون بوسعه ترك جماعته والقيام بمفرده بحفر قبر لأحد رفاقه، لو فعل ذلك فإنه سيكون مستعداً لحفر قبره بنفسه بدلاً من حفر قبر لرفيقه[2].

هكذا، كشفت لنا تلك الرحلة قوة المقاومة الإسلامية في ذلك الطريق والتي دفعت

الوزير الفاطمي الأفضل، المجلد٢٩، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨١-١٩٨٢م، ص٣٥ هامش(٢)؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٢١٩-٢٢٠.

1) Waston (C.M), The Story of Jerusalem, London 1912, P.204;

سرور علي عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٤٢.

2) رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة، ص٢٣؛

Saewulf, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.100-101.

الصليبيين إلى تجنب دفن قتلاهم خوفاً من أن يغتنم المسلمون الفرصة وينقضوا عليهم ويفتكون بهم[1].

ويتضح من حديث سايولف أن المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الغزاة كانت متأججة منذ بداية الغزو الصليبي على الأراضي المقدسة، وأنها كانت تحدث خسائر فادحة ومؤثرة سواء كانت مادية أو بشرية[2].

ومن الملاحظ أن نص ذلك الحاج الروسي يوضح صورة صادقة للطريق المذكور في عهد الملك بلدوين الأول، وهو طريق على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للمملكة الصليبية، إذ إنه المر الحيوي والرئيسي الذي سلكه الحجاج القادمون من أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في أنحاء المملكة الصليبية، وأهمها بيت المقدس بطبيعة الحال. ومن المعروف إن مسألة تدفق الحجاج إلى تلك الأماكن المقدسة كانت بالغة الحساسية للمملكة الصليبية، إذ أنها كانت تعني قدرتها على حماية المحارم المسيحية المقدسة، كما لا تغفل أن المكانة الدولية لتلك المملكة تأتت لها من خلال حمايتها لطرق الحج المسيحي في فلسطين[3].

كذلك ذكر دانيال الراهب اتخاذه دليلاً أثناء رحلته لكي يقوده عبر هذه الطرق بالإضافة إلى قيامه بالترجمة خلال الرحلة، وكرر أيضا ما ذكره سايولف عن الخطر الذي يهدد المارين بهذه الطرق[4].

ويلاحظ أن بلدوين الأول بإسقاطه عدداً من مدن الساحل الشامي، أمكنه بالتالي إخضاع قلاع تلك المدن، ولم يقتصر جهود بلدوين في إسقاط قلاع المدن الساحلية، بل أضاف بعض القلاع الأخرى لتدعيم سيطرته على طريق يافا – القدس، فكان هذا الطريق

---

1) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٤٣.

2) سعيد عبد الله البيشاوي، "المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢-٥١٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م"، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ٤٩١-٦٩٠هـ، ج١، جامعة اليرموك ٢٠٠٠م، ص٢٢٠.

3) هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الأول، ص١٠٩.

4) دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٢٩؛ حسن عبد الوهاب، أمن الطرق بين المسلمين والصليبين، ص٥٩؛
Daniel the Abbot, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.126.

المنفذ الرئيسي للإمدادات والحجاج (العامل البشري)، وظل معرضاً للتهديدات والأخطار من قبل البدو والقوات الفاطمية[1]؛ لذا دعت الحاجة الملحة إلى تشييد عدد من القلاع بين يافا – القدس[2].

فقد قام بلدوين بتشييد حصن أرنولد Chateau Arnold أو حصن أرنول Chateau Arnoul[3] وذلك لتأمين طريق أساسي يسلكه الحجاج الصليبيون للوصول إلى مدينة بيت المقدس[4].

وحدث في ١٤أكتوبر ١١٠٦م/ ٧صفر ٥٠٠هـ أن انتهزت القوات الفاطمية المتمركزة في عسقلان فرصة انصراف بلدوين الأول ملك بيت المقدس ومعه غالبية القوات الصليبية في بيت المقدس إلى جهة الجليل وطبرية لإقرار بعض الأوضاع هناك[5]، فخرج حشد كبير من الفرسان الفاطميين مدعمين بقوات من صور وصيدا وبيروت للإغارة على طريق يافا – القدس، وسرعان ما وصلت هذه القوة في ٩أكتوبر ١١٠٦م/ ٩صفر ٥٠٠هـ إلى سهل نهر العوجة الواقع بين أرسوف ويافا، حيث شنوا هجوماً مفاجئاً على معسكر للحجاج الصليبيين كانوا مجتمعين هناك، وقتلوا ما يقرب من خمسمائة حاج[6].

---

1) Prawer, Histoire du Rayaume Latin de Jerusalem, T.I, Edition du Center National de Recherche Scientifoue, Paris 1969, PP.276-277.

2) Fedden, Crusader Castles, London 1950, P.16;
عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص٦٢.

3) اختلف الباحثون حول موقع هذا الحصن عن ذلك انظر: صلاح عبد المنعم، القلاع الصليبية، ص٤٣.

4) يبدأ ذلك الطريق من غرب بيت المقدس من الباب الغربي لها والمسمى بباب يافا، ويستمر في الامتداد على هضبة القدس نفسها، ثم يعبر دير ياسين وأباغوش، ثم الرملة، وتجدر الإشارة إلى أنه من منطقة أبي غوش، ينحدر الطريق إلى الرملة، ويطلق على الامتداد الواقع من جهة الرملة إلى السهل الساحلي اسم باب الوادي. انظر: محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٩٦.

5) Stevenson (W.B), The Crusaders in the East, Beriut 1968, P.49.

6) Albert de Aix, Historia Hierosoly mitana Ed.R.H.C.,occtome T. IV, Paris 1879, T. IV, P.637; Grousset (R.), Histoire des Croisade, T.I, Paris 1934, P.247;
رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ت. السيد الباز العريني، ج٢ بيروت ١٩٨٦م، ص١٤٧؛ سرور علي عبد المنعم، طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٤٣.

بالإضافة إلى توغل القوات الفاطمية حتى الرملة، وتمكنها من إنزال هزيمة قاسية بقوات الاستطلاع التي أرسلها حاكم يافا الصليبي، فقضت عليها، وطردت قائدها حتى أبواب مدينة يافا[1]؛ وبذلك انفتح الطريق أمام القوات الفاطمية نحو مدينة بيت المقدس، فاتجهوا إليها بسرعة وهاجموا حصن أرنول Chateau Arnoul الذي استسلم لهم وكان ذلك الحصن لم يكن بلدوين الأول قد انتهى من تشييده، وسرعان ما وصلت القوات الفاطمية أمام مدينة بيت المقدس، ولكن بدلاً من أن تضرب حصاراً محكماً أو منظماً حول أسوار المدينة المقدسة، فقد انصرفت إلى تخريب الحقول المحيطة بالمدينة وإشعال النيران فيها، ووجهت نشاطها أيضاً فيما بين يافا - القدس، حتى إذا ما حسوا أن الملك بلدوين وقواته في طريقه إليهم انسحبوا عائدين إلى مدنهم الساحلية وتحصنوا بها[2].

وكانت النتيجة المترتبة على الغارة الفاطمية المفاجئة على طريق يافا - القدس أنها جعلت الصليبين يدركون مدى النشاط المفاجئ الذي دب في حامية عسقلان وخطورة الهجمات القادمة، كما جعلتهم يتنبهون لأي خطر يأتي من تلك المدن، وسرعان ما عاودت حامية عسقلان الفاطمية نشاطها فحدث في (نوفمبر ١١٠٧م/ربيع الثاني ٥٠١هـ) أن خرجت قوة فاطمية من عسقلان قدرتها المصادر الصليبية بحوالي خمسمائة من الفرسان، وألف رجل لمهاجمة إحدى قوافل الحجاج المتجهة من يافا إلى بيت المقدس[3]، حيث نصبوا كميناً في أحد المواقع على الطريق، ورغم نجاح القوات الفاطمية في إيقاع الصليبيين في ذلك الكمين وهزيمتهم وقتل عدد كبير منهم إلا أن النجدة التي أرسلت من القدس ويافا نجحت في تحويل ميزان المعركة لصالحهم وهزيمة القوات الفاطمية التي ولت هاربة إلى عسقلان[4].

ونلاحظ أنه في عام ١١١٣م/٥٠٦هـ انتهز الفاطميون فرصة انهماك بلدوين الأول

---

1) Albert de Aix, P.638; Prawer (J), Histoire de Royaume Latin de Jerusalem, P.277;

عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص٦٢.

2) William of Tyre, Vol. I., P.464-465;

سرور على عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٤٣.

3) William of Tyre, Vol. I., P.468; Albert de Aix, P.638.

4) William of Tyre, Vol. I., P.468.

بحروبه ضد الأتراك بزعامة مودود[1] أتابك الموصل في الجليل، فقامت فرقة فاطمية من عسقلان لشن غارة مفاجئة على بيت المقدس، في الوقت الذي خرجت فيه قوة أخرى اتجهت لحصار مدينة يافا، ولكن هذا الحصار الذي لم يكن مدعماً بحصار قوى للمدينة من البحر، انتهى بالفشل وانسحاب الفاطميين بعد أيام قلائل إلى قاعدتهم في عسقلان[2].

ويبدو أن هذه الغارات كانت بمثابة تمهيد أو مقدمة لحملة كبيرة كان الوزير الأفضل يعد لها للانتقام من الصليبين، وأن غرض الفاطميين من إرسال حملة إلى يافا دون بيت المقدس هي محاولة لحرمان الصليبيين من أحد المراكز الهامة لتجميع الحجاج والجند والإمدادات الآتية من الغرب الأوروبي إلى مملكة بيت المقدس، ومحاولة قطع طريق القوافل الصليبية المتجهة من يافا إلى بيت المقدس، ولكن بلدوين الأول وسع النشاط من أجل تأمين طريق يافا - القدس وغيره من الطرق فقام بوضع الحاميات العسكرية على طريق الحجاج[3].

اعتلى بلدوين الثاني Baldwin II عرش مملكة بيت المقدس خلفاً للملك بلدوين الأول وذلك في عام ١١١٨م/٥١٣هـ[4]، وتركزت سياسة الملك الجديد على معالجة أوجه القصور في المجتمع الصليبي الناشئ فوق أرض بلاد الشام، بالإضافة إلى مشاركته المستمرة في الدفاع عن الإمارات الصليبية في الشمال، ومن بين خطواته الأولى سعيه إلى تشجيع التجار من مختلف الجنسيات على القدوم إلى بيت المقدس، فأصدر في عام (١١٢٠م/٥١٤هـ) مرسوماً بإلغاء الضرائب على السلع التجارية التي ترد إليها مع هؤلاء التجار والحجاج،

---

1) عن مودود أتابك الموصل، انظر:

Fink (H.), "Mawdud I of Mosul precursor of Saladin" The Muslim Word XLIII, 1953, PP.18-37;

عفاف صبره، "الأمير مودود بن التونتكين أتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي"، مجلة الدارة، السنة١٢، العدد٢، السعودية ١٩٨٦م، ص١٠٩-١٣٢.

2) Tolkowsky, History of Joff, London 1924, P.94.

3) سرور على عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٤٥.

4) يشير البعض إلى أن الملك بلدوين الأول قد أوصى بالحكم من بعده إلى بلدوين الثاني كونت الرها، في حين يشير البعض الآخر إلى أنه قد أوصى بالحكم لأخيه أيستاش البولوني عن ذلك انظر: عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية (١١٣١-١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٨٤م، ص١١.

ولاشك أن ذلك لن يتحقق إلا إذا عمل على توفير الأمن بالنسبة لطريق يافا – القدس والذي يصاحبهم التجار في كثير من الأحيان، وكانت مجموعة من الحجاج مكونة من سبعمائة حاج قد تعرضت لهجوم أثناء خروجهم من بيت المقدس، وهم في طريقهم لزيارة المكان الذي تم فيه تعميد السيد المسيح ﷺ في نهر الأردن، وذلك في عام ١١١٩م/٥١٤هـ فقتل منهم ثلاثمائة وأسر منهم ستين(١).

ومع أن الفاطميين بعد عام ١١٢٣م/٥١٨هـ امتنعوا عن استخدام عسقلان كقاعدة للقيام بهجوم كبير على مملكة بيت المقدس، فقد ظلت حاميتها تشن غارات مستمرة باتجاه طريق يافا – القدس، مما أدى إلى عدم شعور سكان السهل الساحلي الخصيب والحجاج الصليبيون الذين يسلكون طريق يافا – القدس بالأمان، لذا قرر الصليبيون إقامة مراكز محصنة بجوار عسقلان لصد هجمات المسلمين(٢). مما دفع الملك بلدوين الثاني إلى تأمين الحجاج، خاصة أن المركز الدولي لمملكة الصليبية كان قائماً على فكرة الحج.

نتج عن هذا كله، أن قام الملك بلدوين الثاني بالاهتمام بتأمين طريق يافا – القدس عن طريق تشجيع بعض الفرسان المتحمسين لتكوين هيئة هدفها حماية وحراسة الحجاج، وهي الهيئة التي أصبحت فيما بعد تشكل أكبر هيئة عسكرية في الشرق، وهي التي عرفت باسم هيئة فرسان المعبد أو فرسان الداوية (٣).

---

1) Rohricht (R.)، Ceshichte des Konigeiches Jerusalem، Innsbrusk، 1898، P.130;

حسن عبد الوهاب، أمن الطرق بين المسلمين والصليبيين، ص٧٤.

2) سميل، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٥م، ص٥٦؛ سرور على عبد المنعم، طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٤٦.

3) هيئة فرسان الداوية Templers هم فرسان المعبد الصليبيون أسسهم هيودي باين وجودفري دي سانت أومير وظهرت إلى الوجود هيئتهم عام ١١١٨م، ومنذ البداية كانوا هيئة حربية وتزايدت نفوذها وسيطروا على العديد من القلاع الصليبية وشاركوا في المعارك ضد المسلمين، قام القديس برنارد أسقف كليرفو بوضع قوانين منظمة فرسان المعبد (الداوية)، وتمكن من الحصول على اعتراف البابوية بها في نفس العام. وفي عام ١١٤٦م قام بالتبشير بالحملة الصليبية الثانية، ووصلت نداءاته لمعظم ملوك وأمراء أوروبا. وكان فشل تلك الحملة يمثل مأساة كبرى بالنسبة له. وقد كان برنارد شديد الكراهية لكل ما هو غير مسيحي، وقد تدفقت على هذه الهيئة المنح والهبات حتى صارت هذه الهيئة من أكبر وأغنى الهيئات الدينية والعسكرية، وفي ظل ضخامة الثروات التي جمعوها شاركوا في عمليات مالية كبيرة داخل المملكة الصليبية، واشتهروا بالجشع

بدأ تأسيس تلك الهيئة الحربية الجديدة بزيارة الفارسين (هيو دي باين Hugh de Payne)، وهو فارس من شامبني بفرنسا وزميله (جودفري سانت أومر Godfray de Santomer) للأراضي المقدسة(١)، وشاهد ما يعانيه الحجاج الصليبيين من الهجمات الدائمة للمسلمين، ولذلك صمم أن يكرسوا حياتهم لحماية الحجاج على طريق يافا – القدس(٢).

ولذلك قام الملك بلدوين الثاني بمنح هيئة الداوية جزءاً من قصره لإقامتهم وجزءاً آخر لإقامة شعائرهم الدينية، وكان هذا الجزء المخصص للداوية في القصر الملكي هو نفسه المسجد الأقصى الشريف الذي سماه الصليبيون Dome of the Rock، وبذلك أصبحوا يعرفون باسم الهيكليين أو فرسان المعبد Knight of Temple. أما في العربية فقد عرفوا باسم "الداوية" نسبة إلى محراب داود(٣)، وفي عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ اعترف مجمع تروي Troys الديني بهيئة فرسان الداوية(٤).

والأنانية من خلال القروض ذات الفوائد العالية التي كانوا يقرضونها لمن يطلبها، منهم انظر:

William of Tyre، Vol.I، P.525-526; Williams (K.)، Knights of the Crusades، New York 1962، P.56; Conder; The Latin Kingdom of Jerusalem، London 1897، P.355;

صلاح محمد ضبيع، دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام ٥٤٠-٦٢٣هـ/١١٤٥-١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة أسيوط ١٩٩٣م، ص٨٠ حاشية(١)؛ توماش ماستناك، السلام الصليبي، ص٢٣٤-٢٤٧؛ إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية (جماعة الفرسان الداوية)؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ط. القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٩٤-١٩٥.

1) William of Tyre, Vol.I, P.525.

2) محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص٦٦.

3) William of Tyre, Vol. I.، P.525; Williams (K.)، The Knights of the Crusades، P.56;

ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير ت. مارغريغوريوس صليبا شمعون، ط. دمشق ١٩٩٦م، ص١٧٠؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد بلدوين الثاني، ص١٩٥.

4) William of Tyre, Vol.I, P.525-526.

لم تمدنا المصادر بكيفية قيام هيئة الداوية بعملية الدفاع عن الحجاج وحماية طريق يافا – القدس، ولكن لنا أن نتخيل مدى الصعوبة التي تكابدتها تلك الهيئة لتحقيق هدف الحماية عن طريق طوله يصل ٦٧كيلواً متراً أو

في الحقيقة لم تكفل عملية الحماية هذه الأمن الكافي للحجاج، وذلك نتيجة أعداد هؤلاء الفرسان وقتذاك، بمعنى أنه لم يكن من المعقول أن يقوم تسعة من الفرسان بحماية مئات بل آلاف من الحجاج، وهم يفتقرون إلى مراكز إمداد بالرجال والعتاد، أو قلاع حصينة يحتمون بداخلها. ولكن من المرجح أن العمل المناسب الذي قاموا به حينذاك هو إرشاد الحجاج في طريقهم إلى الأماكن المقدسة[١]. هذا عن عهد بلدوين الثاني.

أما عن الملك فولك الأنجوي Fulk of Anjou[٢] الذي اعتلى العرش ٥٢٦هـ/١١٣١م، فقد قام في عهده إعادة تجديد وتوسيع قلعة أرنولد[٣] في الطريق من يافا إلى القدس، الذي كان يتعرض لهجوم حامية عسقلان المسلحة، ونتج عن ذلك تعرض الحجاج لأخطار بالغة بالإضافة إلى عدم وصول المؤن والإمدادات إلى المملكة الصليبية.

عندما كان الملك فولك في أنطاكية بعيداً عن المملكة عام ١١٣٢م/٥٢٧هـ أعد البطريرك وليم الأول حملة لقتال قطاع الطرق، وشيد قلعة اشتهرت باسم (Chastel Ernoult) قرب بيت نوبة حيث تقع على الطريق من اللد إلى بيت المقدس[٤].

وقد استفاد الصليبيون من مميزات الموقع المرتفع الذي وجد في المنطقة حيث وجدت

٢٤ميلاً وذلك فمن الراجح إن تلك الهيئة اعتمدت على بعض القلاع الممتدة على ذلك الطريق انظر: صلاح الدين عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٣٧.

1) إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية (جماعة الفرسان الداوية)، ص٥٣؛ سرور على عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٤٧.

2) عن فولك أوف أنجو انظر:

Bird (J.), Fulk of Anjou (d.1143) in The Crusades an Encyclopedia, Vol. II, P.491-492; "King Fulk of Jerusalem as city lord",in The Experience of crusading, Vol.II, Cambridge 2003, PP.179-188;

سرور عبد المنعم،السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة،كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠١م؛ الأوضاع الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، ضمن دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.

3) شيدت هذه القلعة أيام الملك بلدوين الأول لكنها خربت عندما هاجمتها حامية عسقلان عام ١١٠٦م/٥٠٠هـ صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٣٨.

4) William of Tyre, Vol.II, P.58.

هناك هضبة فوق سهل من السهول[١]، وكان تشييدها من الحجر الأصم على طريق يافا - القدس والمتمثل في الجزء من اللد - بيت المقدس، وهو الجزء الذي عانى من عبء المقاومة الإسلامية، مما يعكس تطور خبرة القادة الصليبيين بإمكانية هذا الموقع.

وقد أضاف ألبرت دى أكس أن الفاطميين قاموا بقتل عمال بناء تلك القلعة[٢]، ولكن لا تمدنا المصادر بأي نشاط لذلك الحصن، حتى دون لنا (وليم الصوري) في فترة لاحقة أثناء عهد الملك فولك بنبذة عن حصن من حجر أصم يقع تقريباً في نفس موقع حصن أرنولد الذي ذكره ألبرت في عهد بلدوين الأول المسمى أرنولد بعد توسيعه، وأخذت شكلها الجديد على شكل الكستروم[٣]، وذلك حتى تكون أكثر كفاءة للتصدي للمقاومة الإسلامية على طريق يافا - القدس[٤].

وكانت هذه القلعة عبارة عن حصن مستطيل به أربعة أبراج مربعة بنية من الحجر الأصم، لكي تؤمن طريق الحجاج الذين تعرضوا للأخطار أثناء اجتيازهم هذا الطريق[٥] فلما تم تشييد هذه القلعة قل تعرض المسافرين الحجاج للخطر أثناء قدومهم من الساحل[٦].

وقام الملك فولك بإنشاء حصن بيت جبرين Bait – Jibrin أو Jebelin في عام ٥٣١هـ/١١٣٦م الذي يقع على هضبة مطلة على الشمال الغربي من المدينة على مسافة ٣٠ كم

---

1) William of Tyre, Vol.II, P.58

2) Albert d' Aix, P. 637-638;

صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٣٨؛ سرور علي عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الصليبي، ص ١٤٨.

3) النمط الكستروم الرومانى، كان يغلب على طابعه المعمارى سوره الساتر والأبراج الجدراية، التي كانت تتوزع من زوايا الحصن الأربع عنه انظر: صلاح الدين عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصلبية، ص٢٣٩.

4) William of Tyre, Vol. II, P.58;

صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٣٨.

5) Benvenisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.315;

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٧٢؛ سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي، ص٩٣.

6) William of Tyre, Vol.II, P.58;

سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي، ص٩٤.

إلى الشرق من عسقلان[1]، وذلك لحماية الطريق بين غزة وعسقلان باتجاه القدس والخليل من أي هجمات للفاطميين[2] داخل حدود المملكة[3].

وعندما قام الصليبيون بتشييد حصن بيت جبرين اتبعوا نظاماً جديداً، سيتكرر أثناء بناء بعض القلاع الصليبية، فقد احتاجوا إلى مساعدة جميع السكان الموجودين في المنطقة، كما تم إحضار البطريرك والنبلاء[4]، فالصليبيون احتاجوا إلى مساعدة جميع السكان الموجودين في المنطقة ومعهم الحجاج الأوروبيين بطبيعة الحال، فكان لهم دوراً كبيراً في تشييد هذا الحصن، مما يعكس أهمية العمل ذاته على اعتبار أنه في مجال تأمين حدود المملكة الصليبية ضد هجمات حامية عسقلان الفاطمية، ووجود البطريرك نفسه كان حافزاً معنوياً دينياً من أجل إنجاز البناء بأسرع وقت ممكن[5].

ووصف حصن بيت جبرين بأنه كان ذا بناء قوي، ومحاط بأربعة أسوار على شكل مربع، طول كل ضلع حوالي أربعين متراً، وكان يوجد في كل ركن من أركانه الأربعة برج فضلاً عن برجين إضافيين عند السور الشرقي، وكانت توجد بوابتان في نفس السور الذي يؤدي إلى بئر سبع، ونظراً لأن الحصن يرتكن إلى تل فقد تم نحت غرف متسعة بشكل مخروطي على صف واحد[6].

ويفسر البعض أسلوب نحت الغرف على ذلك النحو بأن أجزاءها العليا كانت تنتهي بفتحة ضيقة إلى الخارج لتوفير الإضاءة اللازمة داخلها، وعادة ما يكون لذلك النوع من الحصون بوابة واحدة تؤدي إلى فناء الحصن، وذلك تسهيلاً للدفاع عنها[7].

---

1) هانز ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، ص١٣٥؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٩؛ حسن عبد الوهاب، أمن الطرق، ص٨٣.

2) طالب الصوافي، القلاع والحصون في شمالي فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. عكا ٢٠٠٠م، ص٨١.

3) King (E.J), The Knights Hospitallers in the Holy Land, P.34.

4) William of Tyre, Vol.II, P.131;

صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٦٨.

5) محمد مؤنس عوض، وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية، ص٧٨.

6) Deschamp (P.), Les Chateaux des Croisades, en terre Saint, T.II, Paris 1930, P.123.

7) Benvensiti (M), The Crusaders in the Holy Land, P.220;

أما عن دور هذا الحصن العسكري فقد تمكنت حامية بيت جبرين ويبني Yibneh من إحكام القبضة على الطريق بين بيت جبرين، والخليل، وبيت لحم، وبيت المقدس، وكذلك الطريق المؤدي إلى الرملة ويافا، وبعد الانتهاء من بنائه، قام الملك بمنحه للفرسان الإستبارية[1] وعلى الفور قام رجال الإستبارية بتزويده بالمؤن والسلاح[2].

استمر الملك فولك في سياسته الرامية إلى الاعتماد على بناء القلاع للسيطرة على الطرق الهامة، ووقع اختياره على موقع قلعة يبني أو يبنا (Ibelin) عام ٥٣٤هـ/١١٤٠م التي أقيمت على تل مرتفع إلى الجنوب الغربي من مدينة اللد، بمسافة عشرة أميال، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدينة عسقلان، وعلى مسافة حوالي ٢٥ كم منها، وتتحكم هذه القلعة بفضل موقعها في الطريق الذي يمتد من عسقلان إلى يافا والرملة[3]، حيث كانت مدينة عسقلان ما تزال صامدة، وتعتبر حاميتها مصدر قلق وإزعاج دائم لمملكة بيت المقدس، نتيجة اهتمام الخليفة الفاطمي بإمدادها كل ثلاثة أشهر بحاميات جديدة، مع تزويدهم بالميرة[4].

وكان الموقع الذي اختاره الصليبيون تتوفر فيه الآبار القديمة بأعداد كبيرة، وقدمت لهم كمية كبيرة من المياه التي كانت كافية لأعمال بناء الحصن ولسد احتياجات الناس[5] وكانت هذه القلعة مربعة الشكل ذات أبراج مربعة في الأركان ونتوءات مستطيلة[6]، وعندما فرغ

سرور علي عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي، ص٩٨.

1) كان هذا أول عمل حربي يعهد به لهيئة الإستبارية وبداية تحول الهيئة من العمل الخيري إلى العمل الحربي أيضا على نحو جاء دليلاً على أن المملكة الصليبية صارت من الآن فصاعداً تعتمد على عناصر الهيئات الحربية The Military Order أو الرهبان المقاتلين The Fighting Monks.

2) William of Tyre, Vol.II, P.82; Grousset (R.), Histoire des Croisades et de Royaum France de Jerusalem, Tom II, Paris 1935, P.158.

3) William of Tyre, Vol. II, P.130;

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٨.

4) William of Tyre, Vol. II, P.81.

5) William of Tyre, Vol. II, P.130.

6) سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك فولك الأنجوي، ص٩٥.

الصليبيون من بنائها وتحصينها من جميع الجوانب قام الملك فولك بمنحها إلى أحد الفرسان، ويدعى باليان الكبير، وذلك في عام ١١٤١م وسرعان ما تأسست أسرة جديدة، ووقع على عاتقها حماية العديد من القلاع والمدن في المملكة الصليبية[1].

قرر الملك فولك والبطريرك ورجال الكنيسة[2] إقامة قلعة تل الصافية أو برج المراقبة الأبيض Cus-Blanchgarde أو Blanca Todio[3] من أجل إحكام السيطرة على غارات العسقلانيين[4].

ويقع حصن تل الصافية إلى الجنوب من قلعة بينة، على الطريق بين بيت لحم من ناحية والرملة وعسقلان من ناحية أخرى[5]، وكان الهدف من إقامته حراسة الطريق من عسقلان إلى القدس والخليل، وكذلك لزيادة التشديد في حصار عسقلان، ومنعها من أي اتصال مع داخل وشمال فلسطين، ووقف النشاط الفاطمي العسكري المنطلق من عسقلان[6].

كما قام الملك فولك بتجهيز العمال بكل ما يلزمهم للبناء، وأقاموا الحصن من الصخر الأصم على أساس قوي، وهو مربع الشكل، محاط بأربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم[7].

ويعطينا حصن تل الصافية مثالاً لنوع رائع من الحصون النورمانية، المعروفة باسم (Keep)، وهو ذلك الطراز الذي عرفه الصليبيون من قبل مجيئهم إلى الشرق، وقد تميز ذلك

---

1) William of Tyre, Vol. II, P. 130;

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص ٣٦٨.

كان باليان رجلاً عظيماً معروفاً بالولاء، كان شقيقاً لأمير شارتر، أتى إلى فلسطين مع عشرة من فرسانه وأتباعه، وتزوج من هيلفيس Helfies وارثه الرملة، وأصبحت أسرته أشهر أسرة ارستقراطية في الشرق الصليبي.

2) William of Tyre, Vol. II, P. 131.

3) محمد مؤنس عوض، وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية، ص٨٢؛ حسن عبد الوهاب، أمن الطرق، ص٨٤.

4) William of Tyre, Vol. II, P. 13;

ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٣٦٨.

5) Deschamp (P.), Les Chateaux des Croisades, T.II, P.37.

6) William of Tyre, Vol. II, P.131.

7) إذا علاه المرء طالع من فوقه مدينة عسقلان على إمتداد البصر، لا يحجبها عن ناظريه عائق.

William of Tyre, Vol.II, P.131.

الطراز بالضخامة وسمك أسواره وقوة بنائه، ويبلغ سمك سور البرج بحصن الصافية (أحد عشر قدماً) ولا يوجد بالسور أي فتحات ما عدا تلك الفتحات التي خصصت لرماة الأسهم Archéres، وباب صغير منخفض، وهو المدخل الرئيسي للحصن، كما كاد يوجد بالدور الأسفل بالحصن قاعة كبيرة[1] لذلك فما كان يكتمل بناء الحصن، حتى وضعه الملك فولك تحت حمايته، وزوده بكميات ضخمة من الأطعمة، وبالذخيرة، وعهد بحراسته إلى أرنولوف، وهو من أغنى وأقوى الأمراء في مملكة بيت المقدس الصليبية[2].

نستشف من ذلك أن قلعة يبنا وحصن بيت جبرين وتل الصافية نجحت في إيجاد تجمعات سكانية على طول الطرق المؤدية إلى القدس، تمركز فيها الصليبيون، والذين كانوا يسارعون بإنذار الصليبيين، وكذلك الحجاج عند خروج حامية عسقلان لمهاجمة القدس، فكانت هذه القلاع بمثابة محطات إنذار مبكر للصليبيين لتأمين المحارم المقدسة من الداخل، بالإضافة إلى تغير الوضع العسكري في جنوب فلسطين لصالح الصليبيين، فقد غدت عسقلان محاطة من البر، وخاصة من جهاتها الشمالية والشرقية الأمر الذي كان من نتائجه التقليل من أهمية وحجم الغارات الفاطمية على أراضي المملكة في حدودها الجنوبية[3].

نخلص من ذلك، أن فترة حكم الملك فولك حتى ٥٣٨هـ/١١٤٣م شهدت تشييد عدد من القلاع، تم من خلالها تأمين مملكة بيت المقدس، وتحقيق نوع من الأمن شبه الكامل من مخاطر الغارات الإسلامية على طريق الحجاج (يافا – القدس).

وقد ساهمت المدن المحصنة على هذا الطريق مثل يافا – اللد – الرملة، وكذلك القلاع الصغيرة مثل ماين (Maen) بيت داجان وقلعة يازور (Yazour) الواقعة بين الرملة ويافا في حماية المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية الغربية، وكانت هذه القلاع والمدن المحصنة بمثابة طوق حجري محكم حول عسقلان[4].

---

1) Benvensiti (M), The Crusaders in the Holy Land, P.117;

نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان، ص٩٠.

2) William of Tyre, Vol. II, P.131.

3) سميل، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص٢١٥؛

Prawer Historie de Royame، Vol.I، P.330;

طالب الصوافي، القلاع والحصون شمال فلسطين، ص٨٢.

4) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس اللاتينية، ت. عبد الحافظ عبد الخالق

إلا أن ذلك لم يمنع خلفاء الملك فولك من الملوك الصليبيين من الاستمرار في سياسة تحصين طريق يافا - القدس وتأمينه من أي هجوم مفاجئ على يد المقاومة الإسلامية، ولذلك اتبع الملك بلدوين الثالث Baldwin III ١١٤٣-١١٦٢م/٥٥٨-٥٨٣هـ[١] سياسة للحيلولة دون أي اتصال مباشر بين دمشق والقاهرة من خلال التنسيق بين قلاع يبني وتل الصافية وبيت جبرين[٢].

لقد ساهمت هذه القلاع بأسلوب غير مباشر في تأمين طريق يافا – القدس، فلعبت دوراً مهماً في توفير الأمان لذلك الطريق[٣]. أما عدد القلاع والحصون الموجودة على طريق يافا – القدس، فنجد أن المؤرخين المحدثين قد اختلفوا في عددها، فالبعض يرى أنها ستة[٤]، بينما يرى البعض الآخر أنهم سبعة قلاع[٥].

ونلاحظ أن الصليبيين وجدوا أن الحل الحاسم في حماية طريق حصن أرنول (أرنولد) ويبني، بالإضافة إلى حصون أخرى مثل حصن بيت جبرين وتل الصافية، التي وفرت الحماية لطريق يافا-القدس بطريق غير مباشر، هو إسقاط عسقلان في قبضة الصليبيين عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ[٦]، وترتب على هذا كله أننا لم نجد في المصادر الصليبية والإسلامية هجوم

البنا، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٨؛ سرور على عبد المنعم، طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٥٠.

1) عنه انظر: عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث ١١٤٣-١١٦٣م، ط. الإسكندرية ٢٠٠٦م.

2) William of Tyre, Vol.II, P.202.

3) سرور على عبد المنعم، طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٥١.

4) محمد مؤنس عوض، وليم الصوري مؤرخاً للقلاع الجنوبية، ص٧٧؛ فتحي عبد العزيز، دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٨٨، ص١٢٢.

5) Fedden (R), Crusader Castles, P.16;

أن القلاع والحصون الموجودة على هذا الطريق هى: يافا - اللد - الرملة - يازور - ومابن - وحصن أرنولد - ويبني، ولكن على أية حال، لا نستطيع المشاركة في ذلك الاختلاف، لأن تلك الآراء لا تستند إلى سند مصدري، وعلينا ترك موضوع عدد القلاع بذلك الطريق للكشوف الأثرية.

صلاح الدين عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص١٣٧.

6) عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث، ص٢٠٤-٢٠٥؛ صلاح الدين

من جانب المسلمين على طريق يافا – القدس[١] حتى سقوط ذلك الطريق على أيدي صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين[٢].

أما عن القلاع الصليبية التي تأمن المملكة الصليبية عبر حدودها المختلفة، فقد قام جودفري بالاستيلاء على نابلس الواقعة على الطريق الرئيسي شمال القدس بمساعدة القائد تنكرد، ودخل الصليبيون المدينة دون أية مقاومة، وذلك في الخامس والعشرين من يوليو عام ١٠٩٩م الثالث من رمضان ٤٩٢هـ[٣]، وكان سقوطها بعد عشرة أيام فقط من سقوط القدس، ثم أسرع جودفري مع القائدين تانكرد ويوستاش، اللذين اتجها عبر الطريق الذي يربط نابلس بقيسارية، ثم اتجها جنوباً إلى عسقلان عبر الطريق الساحلي، حيث التقيا مع جودفري، وتمكنوا من هزيمة قوات الفاطميين في ١٢أغسطس ١٠٩٩م/ ٢١ رمضان ٤٩٢هـ[٤].

وباستيلاء الصليبيين على جبرون والخليل تمكنوا من السيطرة على أحد الطرق الهامة التي كانت تمتد إلى غزة ثم إلى مصر، كما قام جودفري ببناء قلعة بها، وذلك لكي تتحكم في هذه

عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٧٢.

1) سرور على عبد المنعم، طريق يافا – القدس ودوره في الصراع الإسلامي، ص١٥٢.

2) عن معركة حطين، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٦-١٤٨؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٧٥-٧٩؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٩-٨٤؛ مجهول. ذيل وليم الصوري، ص٨٩؛ ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم ص١٨١-١٨٣؛ قاسم عبد قاسم، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٥١-٧٦؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين بين التاريخ والإسطورة، ط. القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٤١-١٨١؛

King, The Knights Hospitallers, P.128; Nicolle (David), Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, Oxford 2005; Hoch (M.), Hattin, Battle of (1187), in The Crusades an Encyclopedia, Vol.II,P. 559-560.

3) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص١٢٠؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٤١٦؛ سعيد جبريل البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. عمان ١٩٩١م، ص٤٨.

Deschamps, La Defensedu Royame de Jerusalem, P.12.

4) سعيد البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٤٧-٤٩.

الطرق الهامة(١) ولم يكتف جودفري، بذلك بل منح هذه المدينة إلى جيرارد دي أفنسيس ليقيم بها إقطاعية صليبية تولت حماية هذه المنطقة(٢).

كما أسهم تانكرد بدور رئيسي في مد السيطرة الصليبية على منطقة إستراتيجية أخرى تتحكم في مجموعة من الطرق الرئيسية في بلاد الشام، وهي منطقة الجليل، فقد رغب في إقامة إمارة صليبية خاصة به واستطاع الاستيلاء على بيسان وطبرية والناصرة(٣)، التي تقع على الطريق الرئيسي الممتد من نابلس جنوباً ويصل إلى بيسان ومنه بمحاذاة ساحل بحيرة طبرية حيث يمتد بعدها إلى دمشق عبر جسر بيت الأحزان.

كذلك يخترق طريق أخر إقليم الجليل إلى الناصرة ومنه إلى عكا، وعلى الرغم من أن البعض أشار إلى رغبة تانكرد في الاستيلاء على حيفا لتكون منفذاً بحرياً لإمارته على البحر المتوسط(٤)، إلا أنه لم يكن هناك طريق مباشر بينهما وبين الجليل إلا الطريق الساحلي المؤدي إلى عكا.

وعلى أية حال نجح جودفري في مد سيطرته على الطرق الرئيسية الممتدة عبر الجنوب الفلسطيني، وذلك بتأسيسه إقطاعتين هامتين هما: الخليل والجليل، ولجأ الصليبيون إلى الاعتماد على بناء القلاع في هذه المدن الهامة، وذلك لتعويض النقص العددي في قواتهم والتحصين بهذه الأماكن والسيطرة على الطرق المارة بها فتم بناء عدة قلاع في طبرية وبانياس وبيسان(٥).

---

1) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص٧٠-٧١.

2) Tibble (S.), Monarchy and Lord Ships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, Óxford 1989, PP.9-10.

3) صلاح الدين عبد المنعم السيد، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٣٤-٣٥. عن الاستيلاء على طبرية انظر: فؤاد عبد الرحيم الدويكات، إقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. عمان ٢٠٠٢م، ص١٣٢.

4) سعيد البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٥١؛ صلاح الدين عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٣٥.

5) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، نشرليون ورالي سميث كامبردج ١٩٧١م ،ص٥٧-٥٨ وحدد تاريخ بناء قلعة يسان في عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م؛ حسن عبد الوهاب، أمن الطرق، ص٥٥.

وعلى الرغم من قصر المدة التي حكمها جودفري والتي لم تتجاوز العامين إلا أنه استطاع أن يجني ثمار إستيراتيجيته والتي اعتمدت على السيطرة على الطرق الرئيسية المؤدية إلى بيت المقدس، أو الطريق الساحلي حيث نجح في الاستيلاء على حيفا شمالاً ويافا جنوباً.

كما اعتمد على بناء القلاع في المدن التي استولى عليها والتي سيطرت على الطريق الممتد من بيت المقدس حتى نابلس وطبرية شمالاً، وفي مرثية جودفري وصف بأنه هيأ هذه الأرض للمسيحيين(١).

كما أنشأ بلدوين الأول العديد من القلاع بين شمالي فلسطين ومدينة صور الفاطمية، التي لم يتم الاستيلاء عليها إلا فيما بعد في عهد الملك بلدوين الثاني عام ١١٢٤م/٥١٢هـ وذلك نتيجة موقع المنطقة، فقد قام هيوسانت أومر Hugh de St Omer أمير الجليل ١١٠١-١١٠٦م/٤٩٥-٥٠٠هـ بتشييد قلعة صفد في عام ١١٠٢م (٤٩٥هـ)(٢) رغبة منه في تأمين الأجزاء الشمالية من الجليل، وقد أقيمت القلعة فوق جبل صفد ذي القمة الشاهقة، وكانت تشرف على الطريق الواقع بين دمشق وعكا(٣) وتبعد مقدار ثلاثة وعشرين ميلاً من مدينة بانياس(٤)، وقد قامت القلعة بالسيطرة على قلب الجليل(٥).

---

1) *Prawer (J.), Crusader Institution, Oxford 1980, P.371;*
حسن عبد الوهاب، أمن الطرق، ص٥٧-٥٨.

2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج٢، ط. دمشق ١٩٦٢م، ص١٤٦.
Fedden, Crusader Castle, P.13; Wise (T.), The wars of the Crusades 1096-*1291, London 1978, P.200*
وقد أطلق على صفد مفتاح الجليل حيث سيطرت على الطريق الرئيسي الذي يربط بين عكا ودمشق، كما أنها كانت في مقابل مخاضة بيت الأحزان.
William of Tyre, Vol.II, P.245.
وعن الدراسات الأثرية لهذه القلعة انظر: فؤاد عبد الرحيم الدويكات، إقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي، ص١٣٤.

3) *Grousset (R.), Histoire des Croisades, Tom II, P.138.*

4) *Ernoul,* The City of Jerusalem, Trans by Conder, P.P.T.S, Vol.VI, London *1896, P.51.*

5) *Deschamp (P.), Les Chateaux des Croisades, P.125.*

كما شيد ذلك الأمير الصليبي في عهد بلدوين الأول حصن تبنين Tibenin أو تورون(١)، وكان ذلك في عام ١١٠٤م/٤٩٨هـ ويعد ذلك الحصن من أوائل الحصون التي أقيمت لمحاولة إسقاط مدينة صور الخاضعة للفاطميين، لما أحدثته من خطر رئيسي في تلك الناحية(٢)، وقد أقيم حصن تبنين على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور، وكان يبعد عن صور حوالي عشرة أميال(٣)، كما يبعد عن مدينة بانياس بمقدار سبعة عشر ميلاً من الجنوب الشرقي(٤)، وكان الهدف من إنشاء هذا الحصن أو القلعة – وكذلك القلاع الأخرى – هو الدفاع ضد هجمات حاميات صور الفاطمية، بالإضافة إلى ربط البحر المتوسط في الغرب وجبال لبنان الشرقية(٥) حيث كانت قلعة تبنين تشارك مع قلاع أخرى في حماية شمال الجليل، وطريق صور – دمشق – عكا، وعلى الرغم من تواجد قلعة تبنين داخل حدود إقليم الجليل، إلا أنها أصبحت تكون إقطاعاً تابعاً لملك بيت المقدس مباشرة(٦).

وكانت القلعة الثالثة التي أنشأها "هيوسانت أومير" بإقليم الجليل هي قلعة هونين Cheteau Neuf(٧) التي أنشئت في شمالي فلسطين على الحدود اللبنانية عند إصبع الجليل، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٦٥٠م، في حين أن القلعة مقامة على جبل جنوبي البلدة على ارتفاع ٩٠٠م، والمكان الذي تتواجد عليه القلعة هو ممر جبلي أسفله واد يتصل مع نهر الليطاني، وينحدر من الجهة الشرقية للقلعة واد آخر نحو الجنوب يصل حتى وادي الحولة وبانياس(٨)، وهذه الوديان المنتشرة حول القلعة مغطاة بالأشجار والنباتات، ويزرع بعضها

---

1) William of Tyre، Vol.II، P.469.

2) صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٤٥.

3) William of Tyre, Vol.II, P.469.

4) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ت: سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م، ص٥٩ هامش(١).

5) طالب الصوافي، القلاع والحصون في شمالي، ص٧٣.

6) ليلى محمد الطرشوبي، إقليم الجليل في عصر الحروب الصليبية – القرن الثاني عشر ميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٧م، ص٨٨.
وكان حصن تبنين من القلاع التي شيدها الصليبيون، والتي تتسم بأنها هجومية كذلك استخدم كمنطقة تمكيس للقوافل الإسلامية. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٨٢.

7) Deschamps, Les Chateaux des Croisades, P.130.

8) طالب الصوافي، القلاع والحصون شمالي فلسطين، ص١٨٠.

بأصناف مختلفة من المحاصيل(١) كما أن القلعة ومعها قلعة بانياس تشرفان أيضاً على الوادي الذي يجري من دمشق باتجاه بحيرة الحولة.

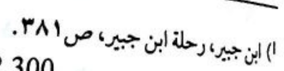
ويلاحظ أن هذه المميزات جعلت تلك القلعة تشرف على الطريق الذي يربط بين دمشق وصور، وبين دمشق ووادي الحولة وطبرية عبر منحدرات جبل الشيخ(٢).

وقد شاركت هذه القلعة الصراع بين الصليبيين والمسلمين منذ بنائها مع القلاع الأخرى المجاورة لها، وخاصة تبنين وبانياس الداخلية، إلا أن الصراع في البداية كان حول قلعة بانياس ذات الموقع الاستراتيجي المهم والمميز، لأنها تشكل تهديداً مباشراً لدمشق، فهي عبارة عن برج مراقبة يطل عليها يقع في مرتفعات الجولان.

وكذلك قام الملك بلدوين الأول في عام ١١٠٨م (٥٠١هـ) باختيار موقع قريب من صور لبناء حصن يتميز بالقوة والحصانة، في موقع تل المعشوقة Scandalium(٣) لا يبعد إلا مسافة قصيرة عن مدينة صور (حوالي كيلومتر إلى الجنوب الشرقي منها).

والواقع أن بلدوين الأول نجح في السيطرة على المسالك الرئيسية المؤدية إلى تلك المدينة، وذلك أنه باستيلائه على صيدا في عام ١١١١م/٥٠٣هـ ملك ناصية الناحية الشمالية لصور(٤)، كما أن حصن تبنين ضمن له السيطرة على المنفذ الشرقي. وأخيراً، فإن حصن تل المعشوقة أتم محيط دائرة الحصار الذي دعم بلدوين ضربه على صور، حتى يظفر بها، ويضمها إلى ممتلكاته الساحلية، وبذلك تدعمت دائرة نفوذه(٥) في تلك المنطقة.

كذلك تم تأسيس حصن العال في عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ(٦)، وهو نسبةً إلى وقوعه شمال قرية عال في حين عرفته المراجع الغربية باسم حصن بلدوين Fort de Bouldoin، أو



1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٨١.

2) Benvensiti, The Crusaders in the Holy Land, P.300.

3) William of Tyre, Vol.II, P.512.

4) Smail (R.), "Crusader Castles of Twelfth Century" ,in E.H.R, 1978, P.140.

5) سر الختم عثمان، مدينة صور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ١٠٩٧-١٢٩١م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧١م، ص٥١.

6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٤١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص١٦؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص٣١٥.

كما شيد ذلك الأمير الصليبي في عهد بلدوين الأول حصن تبنين Tibenin أو تورون[١]، وكان ذلك في عام ١١٠٤م/٤٩٨هـ، ويعد ذلك الحصن من أوائل الحصون التي أقيمت لمحاولة إسقاط مدينة صور الخاضعة للفاطميين، لما أحدثته من خطر رئيسي في تلك الناحية[٢]، وقد أقيم حصن تبنين على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور، وكان يبعد عن صور حوالي عشرة أميال[٣]، كما بعد عن مدينة بانياس بمقدار سبعة عشر ميلاً من الجنوب الشرقي[٤]، وكان الهدف من إنشاء هذا الحصن أو القلعة – وكذلك القلاع الأخرى – هو الدفاع ضد هجمات حاميات صور الفاطمية، بالإضافة إلى ربط البحر المتوسط في الغرب وجبال لبنان الشرقية[٥] حيث كانت قلعة تبنين تشارك مع قلاع أخرى في حماية شمال الجليل، وطريق صور – دمشق – عكا، وعلى الرغم من تواجد قلعة تبنين داخل حدود إقليم الجليل، إلا أنها أصبحت تكون إقطاعاً تابعاً لملك بيت المقدس مباشرة[٦].

وكانت القلعة الثالثة التي أنشاها "هيوسانت أومير" بإقليم الجليل هي قلعة هونين Cheteau Neuf[٧] التي أنشئت في شمالي فلسطين على الحدود اللبنانية عند إصبع الجليل، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٦٥٠م، في حين أن القلعة مقامة على جبل جنوبي البلدة على ارتفاع ٩٠٠م، والمكان الذي تتواجد عليه القلعة هو ممر جبلي أسفله واد يتصل مع نهر الليطاني، وينحدر من الجهة الشرقية للقلعة واد آخر نحو الجنوب يصل حتى وادي الحولة وبانياس[٨]، وهذه الوديان المنتشرة حول القلعة مغطاة بالأشجار والنباتات، ويزرع بعضها

1) William of Tyre، Vol.II، P.469.

2) صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٤٥.

3) William of Tyre, Vol.II, P.469.

4) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ت: سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م، ص٥٩ هامش(١).

5) طالب الصوافي، القلاع والحصون في شمالي، ص٧٣.

6) ليلى محمد الطرشوبي، إقليم الجليل في عصر الحروب الصليبية – القرن الثاني عشر ميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٨٧م، ص٨٨.
وكان حصن تبنين من القلاع التي شيدها الصليبيون، والتي تتسم بأنها هجومية كذلك استخدم كمنطقة تمكيس للقوافل الإسلامية. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٨٢.

7) Deschamps, Les Chateaux des Croisades, P.130.

8) طالب الصوافي، القلاع والحصون شمالي فلسطين، ص١٨٠.

بأصناف مختلفة من المحاصيل[١] كما أن القلعة ومعها قلعة بانياس تشرفان أيضاً على الوادي الذي يجري من دمشق باتجاه بحيرة الحولة.

ويلاحظ أن هذه المميزات جعلت تلك القلعة تشرف على الطريق الذي يربط بين دمشق وصور، وبين دمشق ووادي الحولة وطبرية عبر منحدرات جبل الشيخ[٢].

وقد شاركت هذه القلعة الصراع بين الصليبيين والمسلمين منذ بنائها مع القلاع الأخرى المجاورة لها، وخاصة تبنين وبانياس الداخلية، إلا أن الصراع في البداية كان حول قلعة بانياس ذات الموقع الاستراتيجي المهم والمميز، لأنها تشكل تهديداً مباشراً لدمشق، فهي عبارة عن برج مراقبة يطل عليها يقع في مرتفعات الجولان.

وكذلك قام الملك بلدوين الأول في عام ١١٠٨م (٥٠١هـ) باختيار موقع قريب من صور لبناء حصن يتميز بالقوة والحصانة، في موقع تل المعشوقة Scandalium[٣] لا يبعد إلا مسافة قصيرة عن مدينة صور (حوالي كيلومتر إلى الجنوب الشرقي منها).

والواقع أن بلدوين الأول نجح في السيطرة على المسالك الرئيسية المؤدية إلى تلك المدينة، وذلك أنه باستيلائه على صيدا في عام ١١١١م/٥٠٣هـ ملك ناصية الناحية الشمالية لصور[٤]، كما أن حصن تبنين ضمن له السيطرة على المنفذ الشرقي. وأخيراً، فإن حصن تل المعشوقة أتم محيط دائرة الحصار الذي دعم بلدوين ضربه على صور، حتى يظفر بها، ويضمها إلى ممتلكاته الساحلية، وبذلك تدعمت دائرة نفوذه[٥] في تلك المنطقة.

كذلك تم تأسيس حصن العال في عام ١١٠٥م/٤٩٩هـ[٦]، وهو نسبةً إلى وقوعه شمال قرية عال في حين عرفته المراجع الغربية باسم حصن بلدوين Fort de Bouldoin، أو

1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٨١.

2) Benvensiti, The Crusaders in the Holy Land, P.300.

3) William of Tyre, Vol.II, P.512.

4) Smail (R.), "Crusader Castles of Twelfth Century" ,in E.H.R, 1978, P.140.

5) سر الختم عثمان، مدينة صور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ١٠٩٧-١٢٩١م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧١م، ص٥١.

6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٤١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ص١٦؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط، ص٣١٥.

قصر البردويل Le Qasr Berdoauil الذي وقع بين البثنة وسواد طبرية[١]، وبهذا الموقع استطاع الصليبيون إقامة قاعدة حربية متقدمة تجاه دمشق، وبالتالي تهدد دمشق بغارات متكررة، التي قام بها الأمير هيو، مما دفع طغتكين أتابك دمشق بضرورة مهاجمة حصن عال، ولشدة خطورته أمر بهدمه وتسويته بالأرض[٢] وهذا يوضح مدى خطورة هذا الحصن.

ونتيجة لما أصاب بردويل أو عال من تدمير على يد طغتكين أراد بلدوين أن يعيد سيطرته على منطقة السواد شرقي بحيرة طبرية، فأراد استغلال الهدنة المبرمة بينه وبين جبهة دمشق طغتكين، التي بدأت عام ١١٠٨م/٥٠١هـ على أن تستمر لمدة أربع سنوات[٣]، ولا نغفل أن تلك الهدنة احتلت أهمية خاصة لدى الطرفين، لأنها ارتبطت بزاوية المياه واستغلالها من الجانبين[٤].

ومن الحصون الأخرى التي شيدها بلدوين الأول حصن حبيس جلدك Habis Jaldok بعدما استفاد من تجربته في حصن عال، الذي تعرض للتدمير على يد طغتكين، فانعكس ذلك على اختيار موضع حصن الحبيس في مكان أقل عرضة للهجوم من قبل قوات الأمير الدمشقي[٥]، فذلك الحصن بمثابة كهف أو مغارة تقع جنوب نهر اليرموك في منطقة عرفت باسم عراق الحابس جنوب رأس هلجا Rastlilija حيث بلدة شيجارا Shejara[٦] حتى أن الصليبيين بذلك قد سيطروا على منطقة السواد شرقي نهر الأردن نتيجةً لتشيدهم هذا الحصن.

وتحقيقاً لاستكمال السيطرة على منطقة السواد شيد الصليبيون قلعة خان راجوب

---

1) حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج١، ط. القاهرة ١٩٧١م، ص١٩٧.

2) Hugh Kennedy, Crusader Castle, Cambridge 1994, P.40;

عصام سختيني، طغتكين أتابك دمشق ٤٨٨-٥٢٢هـ/ ١٠٩٥-١١٢٨م، ط. عمان ٢٠٠٣م، ص١١٨.

3) جان ريتشارد، تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها، ضمن الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ط. بيروت ١٩٩٤م، ص١٥٠؛

Prawer, Histoire du Royaume Latin, P.278.

4) هنادى السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول، ص١٢٣.

5) Deschamps, Les Chateau de Croisades, P.9.

6) صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٤٩؛

Prawer, Histoire du Royaume Latin, P.279

Khan Rahup في الطريق الجنوبي الشرقي من نهر الأردن[١].

وإلى جانب اهتمام الملك بلدوين الأول بتحصين مدينة نابلس في قلب المملكة، شيد قلعة صليبية داخلها إلى جانب برج أمامها، عرفت باسم برج نابلس Turris Neopolilana، وذلك للدفاع عن المدينة ضد محاولات المسلمين لاسترجاع أراضيهم المسلوبة، وذلك حينما منحت لباين دي ميللي Payen de Milly عام ١١٠٨م/٥٠٢هـ[٢].

وبذلك يكون هذا الملك الصليبي قد أرسى قواعد مملكته الوليدة باستغلال موقع المنطقة التي استولى عليها من خلال تأسيس مجموعة من القلاع الصليبية أدت لاتساع رقعة المملكة الوليدة، بالإضافة لتغلبه على مشكلة نقص العنصر البشري لحماية الحجاج والمملكة، فقامت الحجارة مقام الجنود[٣]، أضف إلى ذلك أن الصليبيين كانوا يقاتلون باستماتة وضراوة للدفاع عن المدن والقلاع التي سيطروا عليها، فإن فقدان الصليبيين للمدن والأراضي التي احتلوها في الشام يعني النهاية بالنسبة لهم[٤].

أما في عهد الملك بلدوين الثاني، فقد تمكن من الاستيلاء على مدينة بانياس Banias Blinas[٥] ذات الموقع المهم شمال شرق مملكة بيت المقدس، والتي تقع على مرتفعات الجولان قرب السفح الجنوبي لجبل الشيخ[٦]، وتحصين قلعة الصبيبة[٧] *Subeibe Qalat*

---

1) صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٤٩.

2) سعيد البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية، ص٧٥.

3) *Fedden, Crusader Castle, P.13.*

4) قاسم عبده قاسم، "صورة المقاتل الصليبي، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٧)، القاهرة ١٩٨١م، ص٣٣.

5) وقد حدد موقعها الرحالة فيتليوس (على بعد ٢٥ ميلاً من دمشق مدينة بانياس، وعلى بعد قدم من لبنان، وفي اتجاه الجنوب مدينة شاهقة الارتفاع تدعى بليناس Belinas، وسميت قيصرية فيليبي نسبة إليه. فيتيلوس، وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، الجزء الحادي والثلاثون، ط. دمشق ١٩٩٨م، ص٣٦٢؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٤٠ هامش(٣).

6) عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، ص٥٨؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص٥١-٥٢؛

Fedden (R.), Crusader Castle, P.14.

7) القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤، ط. القاهرة ١٩١٤م، ص١٠٤.

داخلها والتي تعرف بالنمرود وذلك عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ(١) حتى أن الصليبيين تمكنوا عن طريقها من التحكم في الطريق من دمشق إلى صور، وصيدا، وبلاد الجليل، وبذلك تم تأمين الجهة الشمالية من المملكة الصليبية.

كما اتجه الملك بلدوين الثاني إلى سياسة بناء المستوطنات، فقد اكتملت في عهده مستعمرة القبيبة المحمرة الكبرى Parva Mohomiria عام ١١٢٠-١١٢٩م/٥١٤-٥٢٣هـ الواقعة إلى الشمال الغربي من القدس ويافا(٢).

ومن المتصور أن الدور الذي قام به الملك بلدوين الثاني في مستوطنة البيرة(٣) من خلال تدعيمها بالعناصر السكانية عام ١١٢٠م/٥١٤هـ هو نفس الدور الذي قام به في مستوطنة القبيبة، وخاصة أن هناك أوجه تشابه كبيرة بين المستوطنتين، لاسيما في موقعها المتقدم للدفاع

---

1) عن استيلاء بلدوين الثاني على بانياس وقلعتها انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٢١-١٢٤؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٥٣؛
Grousset (R.) L'empire du Levant, Paris 1946, P.287.

2) Benvensiti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.224-225;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص١٩٠؛ طالب الصوافي، القلاع والحصون شمالي فلسطين، ص٦٤.
جلال حسني عبد الحميد سلامة، الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة ١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٣هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس ٢٠٠٤، ص١٧٠-١٧١.

3) يبدو أن تشييد الفرنجة للمستوطنات حول المدينة المقدسة قد جاء وفق خطة مدروسة ومتفق عليها بين كبار زعمائهم وقادتهم، بحيث تؤدي هذه المستوطنات مهمها في أكثر من جانب، بالإضافة إلى البيرة التي تركز نشاط المستوطنين فيها على حماية بيت المقدس من الجهة الشمالية، عزم رجال الدين اللاتين على تاسيس مستوطنة زراعية أخرى في أراضي بيت سوريك على الطريق الرئيسى الذي يؤدي من السهل الساحلى إلى بيت المقدس، ويتولى سكان هذه المستوطنة إلى جانب حرفة الزراعة والتجارة وغيرها من الحرف والأعمال مراقبة الطريق الذي يسلكه الحجاج وغيرهم من المهاجرين القادمين من الغرب الأوروبي إما لزيارة المقدسات المسيحية أو الاستقرار في الأراضي المقدسة، وكان لابد أن الفرنجة قد أولوا هذه المستوطنة قدراً كبيراً يشعر القادمين الجدد بنوع من الأمن والحماية الأمر الذي يدفعهم إلى الإقامة الدائمة وبالتالي الإسهام في معالجة مشكلة نقص العنصر البشري في الأراضي المقدسة.
جلال حسني عبد الحميد سلامة، الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة، ص١٧٢-١٧٣.
عن مستوطنة البيرة انظر محمد مؤنس عوض، "أضواء على مستوطنة البيرة الصليبية"، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠٠٥م، ص٥٣-٧٥.

عن مدينة بيت المقدس، وكلاهما تم منحهما لكنيسة القيامة في عهد جودفري البويوني، وكذلك تم تفريغهما من سكانهما الأصليين أيضاً من خلال الأنشطة الاقتصادية التي قامت بها المستوطنتان(١).

ومن المرجح أن نفس الأمر قد تكرر أيضاً في قرية كفر مالك في حدود إقطاعية نابلس، والتي منحها الملك بلدوين الثاني لكنيسة القيامة عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ وبذلك سار الملك بلدوين الثاني على نفس سياسة الملوك السابقين في كسب ود الكنيسة(٢).

لقد تمحورت المستوطنات حول مدينة بيت المقدس على امتداد الطريق من القدس إلى يافا، وذلك لإحكام السيطرة على هذه المنطقة التي كانت دائماً مهددة من قبل القوات الإسلامية(٣).

واتبع الملك بلدوين الثالث Baldwin III ١١٤٣-١١٦٢م/٥٣٨-٥٥٨هـ سياسة سابقيه من الملوك، فقد كرس جهوده من أجل إسقاط مدينة عسقلان الإسلامية، وبالفعل تمكن الملك بلدوين الثالث من تشييد قلعة غزة التي تقع على بعد عشرة أميال جنوب عسقلان(٤)، وبذلك تم محاصرة حصون بيت جبرين وتل الصافية وذلك في عام ١١٤٩-١١٥٠م/٥٤٤-٥٤٥هـ، وقد منحت تلك القلعة لفرسان الداوية، وبتأسيس قلعة غزة أصبح الوضع العسكري مهيأ لاتخاذ خطوة مهمة، وهي تحقيق السيطرة على عسقلان، وتم ذلك بالفعل بإسقاطها في عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م.

كذلك أقام الملك بلدوين الرابع (Baldwin IV ١١٧٤-١١٨٥م/٥٧٠-٥٨١هـ) حصن (جسر بنات يعقوب Chastellet) بعد أن عقد بلدوين الرابع وصلاح الدين معاهدة صلح عام ١١٧٧م/٥٧٣هـ، لإغلاق المدخل إلى الأردن خاصة بعد صعوبة استرداد بانياس وقلعتها، وتم تشييده في أكتوبر ١١٧٨م/٥٧٤-٥٧٥هـ(٥) وتم بناء الحصن عند

---

1) صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٣١.
2) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون، ص١٩٠.
3) طالب الصوافي، القلاع في شمالي فلسطين، ص٦٥-٦٦.
4) William of Tyre، Vol.II, P.202.
5) William of Tyre، Vol.II، P.437;
ابن شاهنشاه الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى ، ط. القاهرة ١٩٦٨م، ص٢٤؛ أبو

مكان يعرف باسم جسر بنات يعقوب أو المشهد اليعقوبي (Vadum Jacob، Gue de Jacob)، على تل يقع على بعد خمسمائة متر جنوبي شرق جسر بنات يعقوب[١]. كما أنه كان يقع على الطريق الذي يؤدي من طبرية وصفد إلى دمشق، وكان الحصن قريب من دمشق، ولكنه على مسافة أقرب من صفد وطبرية[٢]، كما إنه يقع على بعد عشرة أميال من بانياس[٣] وبإتمام العمل في ذلك الحصن أصبح له السيطرة على كل ممرات الأردن الرئيسية.

هذا عن أمر القرن الثاني عشر الميلادي، **أما عن القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري** فقد أصبحت المملكة الصليبية من الناحية السياسية في صورة عكا متمثلة في الشريط الساحلي الضيق، وبعض الأرض الداخلية، حيث مثلت محطة مهمة للحجاج الصليبيين الوافدين من أوروبا إلى بلاد الشام، فكانت عكا[٤] مركز المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، ووقعت على ساحل البحر المتوسط[٥] بين صور وحيفا في شمالي فلسطين[٦]، وكانت مثلثة الشكل مثل الحاجب أو الترس، بحيث واجه جانبان منها البحر المتوسط، والجانب الثالث واجه السهل المحيط بها، وهو سهل خصب ومروجه متسعه[٧].

وقد شيدت قلعة عكا في الجزء الداخلي من المدينة، وذلك في أثناء القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري[٨]، وأيضاً وجد في عكا العديد من الأماكن المحصنة حيث انتشرت

شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، حققه أحمد البسيومي، ق٢، ط. دمشق ١٩٩١م، ص٤٤-٥٤؛ نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص٩٢؛

Wise (T.), The wars of the Crusades 1096-1291, P.203.

(1) نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص٩٢؛ صلاح عبد المنعم، قلاع مملكة بيت المقدس، ص٧٤.

(2) أبو شامة، عيون الروضتين، ق١، ص٥٤-٥٥.

(3) نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص٩٣.

(4) أطلق عليها الصليبيون أسماء مختلفة منها: Acre, Accron, Akkion, Ptolemais, Saint John, Saint Jean, Akka مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٩٤.

(5) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م، ص٢٢٣؛ الصالحي الدمشقي، المواكب الإسلامية والممالك والمحاسن الشامية، ت. حكمت إسماعيل، القسم الثاني، ط. دمشق ١٩٩٣م، ص١٢٩.

(6) مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٩٤.

(7) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص٣٩-٤٠.

(8) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٣٨٧.

بها الأبراج والقلاع والحصون التابعة لهيئات الفرسان الحربية، وكذلك الملك الصليبي[١].

وامتلك فرسان الداوية قلعة بمدينة عكا، وهي من أفضل المواقع العسكرية، وذلك لوقوعها على ساحل البحر[٢] مما يمكنها من تلقى الإمدادات العسكرية من القلاع المجاورة عن طريق البحر عند تعرضها لأي هجوم[٣] من قبل المسلمين.

ونلاحظ أن انتشار العديد من القلاع والحصون والأبراج في عكا جاء كجزء من النظام الدفاعي الخاص بالمدينة[٤] باعتبارها مملكة بيت المقدس الثانية، إذ كانت هذه الأبراج بمثابة أبراج مراقبة وتحذير لمدينة عكا من قدوم أية هجمات باتجاه المدينة سواء من جهة البر أو البحر، ومركزاً لتلقي الإمدادات واستقبال الوفود القادمة من الحجاج[٥].

ولذلك ازدادت أهمية عكا لكونها المرفأ الصليبي الرئيسي لها[٦]، وهكذا ازدادت أهميتها وخصوصيتها لدى الحجاج الصليبيين بصفة خاصة وأوروبا بصفة عامة، لذلك دأب الملوك على الاهتمام بتحصيناتها وقلاعها التي دعمت وجودها وقوة مركزها وساعدتها على الصمود لمدة قرن من الزمان.

---

(1) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص٤٠.

كانت هذه الأبراج والقلاع بمثابة قواعد لتجمع القوات الصليبية والحملات القادمة من أوروبا لإنطلاق عملياتهم العسكرية، سواء في اتجاه الأراضي الشامية أو تهديد الأراضي المصرية، لاسيما وأن كانت مركز القيادة للصليبيين على الساحل.

ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٨٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤، ص١٥٢.

(2) نبيلة مقامي، فرق الرهبان، ص ٩٦؛ براور، الاستيطان الصليبي، ص ٣٨٧؛

Benvenisti (M.), The Crusaders, P. 104.

(3) إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٩م، ص٥٧.

(4) ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، ت. خوان فرنيط، ط. تطوان ١٩٥٨م، ص٨٣؛ كتاب الجغرافيا، ت. إسماعيل العربي، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص١٥٠؛

Boase (T.S.R), Military Architecture, in the Crusader States in Palestine and Syria, in Setton, Vol.IV, U.S.A1977, P.143.

(5) مثل "برج الذباب" الذي كان يمتلكه فرسان الإسبتارية في شرق عكا، مارنيو سانوتو، كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأراضي المقدسة، الموسوعة الشامية، تحقيق سهيل زكار، ج٣، ط. دمشق ١٩٩٩م، ص٢٢٣؛ إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٥٧.

(6) مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٩٤.

كان من ضمن القلاع الساحلية المدعمة لمدينة عكا عاصمة المملكة الصليبية "قلعة القرين" Qurien[1] التي كانت موجودة في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، إلا أن أهميتها لم تتضح إلا بعد إعادة بنائها في القرن التالي على يد جماعة فرسان التيوتون Teutonic Knights[2]، وقد وقعت في شمالي فلسطين على أحد التلال الواقعة شمال شرق مدينة عكا[3] وشمالي مدينة حيفا على بعد حوالي (٢٠) ميلاً منها، وقد شيدت فوق جرف صخري شديد الانحدار في الشعاب الخارجية للسلسلة الجبلية الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، وثمة خندق مائي حفر في الصخر، مما جعل القلعة منعزلة عن الجبال المحيطة بها[4].

وبذلك تمتعت القلعة بحماية طبيعية من جميع الجهات، بالإضافة إلى هذا فقد أدى وقوعها في مكان مرتفع اتصل بالداخل من خلال ممر ضيق إلى اكتسابها أهمية إستراتيجية كموقع دفاعي مهم، ومركز متقدم للدفاع عن مدينة "عكا الصليبية"[5].

---

1) قد سميت في المصادر العربية "القرين" بمعنى القمة والعلو وأيضاً تعنى الحصن أو القلعة، أما في المصادر الصليبية فقد سميت بعدة أسماء منها Montfort بمعنى التل الحصين، وتعنى القرين بالألمانية Starkenberg انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ت. أحمد حطيط، ط. بيروت ١٩٨٣م، ص٣٢١؛ بورشارد، تاريخ الأرض المقدسة، ص٥٨؛ مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٩٨؛ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، كفر قرع ١٩٩١م، ص٤٢٠؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأرض المقدسة حوالي ١١٩٠-١٢٩١م/٥٨٦-٦٩٠هـ ط. الإسكندرية ١٩٨٩م، ص١٨٦.

2) ظهرت هذه الفرقة في أعقاب الحملة الثالثة على بلاد الشام في حوالي ١١٩٠م/٥٨٦هـ حيث استقرت هذه الطائفة من الألمان في عكا بعد احتلالها، وأنشأوا فيها مستشفى خاصة فيها لرعاية الجرحى لاسيما في وقت الحملة، بعد ذلك أصبح لهم نظام خاص بهم مثل الفرق الأخرى واعترف بهم البابا فرقة عسكرية رهبانية ثم أصبح لهم دوراً عسكرياً هاماً خلال القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري ولمزيد من التفاصيل انظر: حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة التيوتون في الأراضي المقدسة؛

Indriks (S.), "The Teutonic Knights in the Crusades States", in Setton, Vol.V. U.S.A 1985;

صلاح محمد ضبيع، دورالألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ محمد السيد رشوان، منظمة الفرسان التيوتون في شرق أوروبا ١٢٢٦-١٤٦٦م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب سوهاج ٢٠٠٧م.

3) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص٥٨.

4) مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٩٨.

5) حسن عبد الوهاب، جماعة التيوتون، ص١٨٩.

أما قلعة الفولة Fula[1] في "مرج ابن عامر" الواقعة إلى الجنوب من الناصرة والجنوب الغربي من جبل الطور والشمال الغربي من بيسان[2] وتتحكم هذه القلعة، مع قلعتي كوكب الهوا وبيسان في العيون والينابيع المنتشرة حولها، والتي تستخدم في ري المزروعات والحقول المنتشرة في السهول المحيطة بها، والتي تزود القلاع بما تحتاج إليه من الموارد الاقتصادية[3]، وقد اشتركت مع قلعة الطور في الإشراف على الطريق القادم من القدس إلى نابلس وطبرية، والآخر القادم من عكا إلى بيسان من جهة الغرب[4] الأمر الذي يبين أهمية هذه القلعة بالنسبة للحجاج الصليبيين.

من القلاع التابعة لعكا في تلك الفترة قلعة جبل الطور وعرفت بهذا الاسم نسبةً إلى جبل الطور الذي وقعت عليه[5]، وقد عرفت في المصادر الصليبية باسم "جبل الطور" Mount Thabar Mountabor [6] تقع في إقليم الجليل شرق مرج ابن عامر[7] غربي بحيرة طبرية، وعلى الطريق المؤدية إلى الناصرة[8]، وبجانب سفح جبل الطور الواقع في الطريق الجنوبي والطريق الواصل بين دمشق ومصر[9]، وقد تميز جبل الطور بأنه كان أعلى من

---

1) أطلق عليها الصليبيون La Feve وهي تحريف لإسم الفولة

Benvensiti (M.), The Crusaders, P.323

كما وردت باسم كاستيلوم فابي (Castelum Febe) وفابا Feba وفين Fene وفيف Feve

Rey (E.), Les Colonies Franques en Syrie aux XII Siecles, Paris 1883, P.439;

طالب الصوافي، القلاع والحصون شمالي فلسطين، ص٢٠٠.

2) Benjamin (Z. Keder)، Denys Pringle, Lefeve "A Crusader Castle in the Jozreel Velly, Israek Explaration Jornal، Vol.35، No.203، Jerusalem 1985، P.164.

3) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٨.

Kedar and Pringle, Lefeve, P.164.

4) Kedar and Pringle, Lefeve, P.165;

فؤاد عبد الرحيم الدويكات، إقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي، ص١٣٦.

5) الصالحي الدمشقي، المواكب الإسلامية، القسم الثانى، ص١٣٥-١٣٦.

6) دانيال، رحلة دانيال، ص١٢٠.

7) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٤.

8) دانيال، رحلة دانيال، ص١٢٠.

9) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٩٤.

الجبال الأخرى التي وجدت حوله وانعزاله تماماً عنها، وبذلك فقد أشرفت القلعة بدورها على أغلب الطرق والمسالك خاصة في سهل مرج ابن عامر، والطريق القادم من عكا إلى دمشق، بالإضافة إلى صعوبة الوصول إلى القلعة الواقعة فوق الجبل، ومحاولة الاستيلاء عليها لكونها على جبل صخري وعر(١)، كذلك أشرفت القلعة على بحيرة طبرية، وبحيرة الحولة، وجبال فقوعة(٢).

ونلاحظ أن قلعة صفد كانت من أكبر القلاع الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري فقد أعيد بنائها وتحصينها، فكانت من القلاع المهمة التي تدافع عن الساحل الشامي، وتحميه من الداخل(٣).

وقد امتاز الموقع الجغرافي لقلعة صفد بأهمية إستراتيجية نظراً لوقوعها في منطقة جبلية، مما أدى إلى صعوبة الطرق، ووعورة المسالك المؤدية إليها، مما جعلها تشكل نقطة مراقبة ممتازة، وأيضاً عامل إنذار مبكر لاقتراب أي هجوم للجيوش الإسلامية في هذه المنطقة، إذ كان يعتمد عليها مع القلاع المجاورة في نقل أخبار التحركات العسكرية للمسلمين(٤) للتحذير من قدوم أي هجمات إسلامية.

من القلاع التابعة للساحل لحمايته من الداخل قلعة "كوكب الهوا" Kaukab-El Hawa(٥) وقعت القلعة في شمال فلسطين في إقليم الجليل على تل بارز يطل على وادي الأردن بين السهول الواقعة بين طبرية وبيسان(٦) حيث كانت شمال مدينة بيسان وشرقي

1) دانيال، رحلة دانيال، ص١٢٠؛ إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٤.

2) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٨م، ص٦٧.

3) Wise (T.), The wars of the Crusades 1096-1291, P.202;
إيمان كامل ثابت، القلاع في بلاد الشام، ص٦٥.

4) Benvensiti (M.), The Crusaders, P.283;
إيمان كامل ثابت، القلاع في بلاد الشام، ص٦٦.

5) استولى المسلمون على هذه القلعة عقب معركة حطين ثم عادت للسيطرة الصليبية حتى استردها الظاهر بيبرس عام ١٢٦٣م. بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص٩٥ هامش (٤)؛ يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص١٤٦ هامش (١)؛ العماد الأصفهاني، الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح؛ ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص١٢٥-٢٧٠-٢٧١.

6) William of Tyre, Vol.II, P.473;

مدينة جبل طابور(١) "الطور".

وقد مكن الموقع الجغرافي للقلعة تامين الطرق المؤدية إلى وادي الأردن الشمالي والطرق الواقعة إلى الجنوب من بحيرة طبرية حتى بيسان(٢) وأدى وقوعها في مكان مرتفع إلى وصفها (بالنجم العالي) ،ونجمة الرياح، وحصن الكوكب(٣) مما منح موقعها أهمية إستراتيجية لوقوعها على الطرق القادمة من دمشق باتجاه فلسطين حيث شمال الأردن، فالأغوار جنوب بحيرة طبرية، حتى ينتهي إلى عكا(٤) لذا لعبت القلعة دوراً مهماً في حماية الحجاج من الهجمات الإسلامية القادمة من جهة دمشق.

كذلك، مثل الموقع الجغرافي لقلعة كوكب الهوا أهمية إستراتيجية للمملكة الصليبية بصفة عامة، ومدينة عكا بصفة خاصة، حيث موقعها تحكم في مجرى نهر الأردن الشمالي والأوسط والطرق من وإلى فلسطين وشرقي الأردن في تلك المنطقة التي يمر بها الحجاج للوصول إلى نهر الأردن، لذلك تعد قلعة كوكب الهوا من أهم القلاع الصليبية التي أقيمت في شمال فلسطين(٥).

ونجد أيضاً قلعة حيفا التي وقعت على الساحل الفلسطيني جنوب مدينة عكا، حيث بعدت عنها بحوالي عشرين ميلاً(٦)، وهي أسفل جبل الكرمل، الذي كان يعد أصغر السلاسل الجبلية في المنطقة، حيث لا يزيد ارتفاع أعلى قمة له عن خمسمائة وستة وأربعين متراً، وقد وقع بين حيفا والجزء الشمالي من سلسلة جبال نابلس وامتد باتجاه شمالي غربي - جنوب شرقي(٧)، وقد أشرقت القلعة بموقعها على نهر المقطع "نهر كيشون"، الذي وقع

إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الهجري، ص٦٧.

1) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، ص١٤٦ هامش (١).

2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٤؛ جوناثان رايلي سميث، الإستبارية فرسان القديس يوحنا في مملكة بيت المقدس وقبرص، ت. صبحي الجابي، ط. دمشق ١٩٨٤م، ص١١٨.

3) Benvensiti (M.), The crusaders, P.29.

4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج١، ط. دمشق١٩٦٢م، ص١٦١؛ القلقشندي، صبح الأغشي، ج٤، ص١٦٠؛ إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٧.

5) طالب الصوافي، القلاع والحصون في شمالي فلسطين، ص٢٥٢.

6) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ط. القاهرة ١٩٧٧م، ص٣٦٥.

7) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٢٨-٢٩؛ بورشارد، الأرض المقدسة، ص٣٨، هامش (١)؛

خلفها[1].

كذلك، أدى وقوع القلعة على الساحل إلى تمتعها بأهمية اقتصادية كأحد المراكز الاقتصادية على الساحل الشامي، وقد وصف ميناءها بأنه ميناء حسن جيد لرسو السفن[2] بما تحمله من حجاج لزيارة تلك المنطقة.

أما قلعة أرسوف Arsuf فنجدها من القلاع الساحلية البالغة الأهمية للمملكة الصليبية في بلاد الشام لاسيما خلال القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري[3] وقد وقعت أرسوف على الساحل الفلسطيني بين قيسارية ويافا[4] إذا بعدت حوالي تسعة أميال شمال يافا[5] وحوالي ثلاثة فراسخ[6] جنوب قيسارية[7].

وقد شيد الصليبيون القلعة على حافة جرف صخري مشرف على البحر، واعتبر هذا الجرف في الأساس كميناء ومحط لرسو السفن[8] بما تحمله من حجاج نظراً لوقوعها على الساحل بالقرب من الميناء المهم يافا [9].

إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٨.

1) بورشارد، الأرض المقدسة، ص٣٩.

2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٣٦٥؛ إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٨.

3) عرفت في المصادر الإسلامية أرسوف، بينما ذكرت في المصادر الصليبية بعدة أسماء منها: Arsuf, Arsur, Arsuth. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠١٨.

4) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص١٦٦.

5) دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة، ص٨٦ هامش (٤).

6) الفرسخ ما يعادل ٥٥٤٤ متراً أي أن أكثر من خمس كيلومترات ونصف بأربعة وأربعين متراً. الفرسخ ثلاثة أو ستة أميال والأرجح ثلاثة انظر: ابن منظور، لسان العرب مادة فرسخ،ج ١١،ط٤ بيروت ٢٠٠٥، ص١٥٥.

7) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٦٢.

8) إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٧٠.

9) محمد مؤنس عوض، معركة أرسوف في الصراع الإسلامي – الصليبي، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص٨.
كانت أرسوف إمارة إقطاعية خلال فترة الحروب الصليبية، منحها الملك الصليبي لأحد أتباعه وبعد ذلك سيطر عليها فرسان الإسبتارية الذين كانوا يدفعون إلى سيدها الإقطاعي وورثته مبلغ ٨٠ ألف بيزنط ذهبي في السنة. انظر: بورشارد الأرض المقدسة، ص١٦٣، وظلت لوردية خاضعة للسيادة الصليبية إلى أن تمكن الناصر صلاح الدين من إستردادها في أعقاب معركة حطين عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ مما أدى إلى قدوم الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد (قلب الأسد) ملك إنجلترا ودارت بينه وبين صلاح الدين عدة معارك بينها

ومن القلاع المهمة الواقعة على الساحل الفلسطيني نجد قيسارية، حيث وقعت ما بين حيفا ويافا، فهي من أهم المدن الفلسطينية على ساحل البحر المتوسط[1]، وقد شكلت قلعة قيسارية مع القلاع المجاورة الأخرى حاجزاً منيعاً لحماية مملكة عكا الصليبية، سواء من هجمات الأيوبيين أو المماليك من جهة الساحل، بالإضافة إلى تأمين خطوط إمدادها، وليس أدل على أهميتها من كونها من أكثر القلاع الصليبية الساحلية التي تعرضت للعديد من الهجمات الإسلامية في القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري[2].

لذلك، حرص قادة وملوك الصليبيين على إخضاعها لعمليات تعزيز وتقوية لدفاعاتها، وقد أشار الرحالة الصليبي "بوشارد" بالموقع الجغرافي لقيسارية، وذكر أن المدينة امتازت بموقع قوي حصين، حيث كان يحدها من الغرب البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق جدول مياه عذبة عميق[3] فقد كانت قلعة قيسارية بمثابة حلقة وصل بين شمال وجنوب المملكة الصليبية[4].

أما قلعة يافا فقد وقعت على الساحل الفلسطيني بين أرسوف وعسقلان[5] ،على ساحل البحر المتوسط، حيث بلغت المسافة بين يافا وأرسوف حوالي ستة كيلو متر أو أكثر، في حين بلغت المسافة بينها وبين مدينة اللد داخل فلسطين عبر السهول أكثر من عشرة كيلو متر [6].

معركة أرسوف وانتهت بعقد صلح الرملة الذي كان من نتائجه عودة أرسوف إلى الحوزة الصليبية. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد مؤنس عوض، معركة أرسوف ، ص٤٢.

1) دانيال، وصف الأرض المقدسة، ص٨٦ هامش (٥). تجدر الإشارة إلى أن تشييد قلعة قيسارية تم في عام ١٢١٧م/٦١٤هـ لأول مرة بعد أن ظلت بدون قلعة منذ استيلاء الصليبيون عليه في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي السادس الهجري، وذلك لازدياد أهمية إقطاعية قيسارية في المرحلة الثانية من الحكم الصليبي لها بعد أن أصبحت المملكة الصليبية عبارة عن شريط ساحلي كان يتسع ويضيق حسب الظروف والأحوال التي كانت تمر بها منطقة الشرق الأدنى، لمزيد من التفاصيل انظر: حسن عبد الوهاب حسين، تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص١٥٨-١٧٢.

2) إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٩.

3) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٦١-١٦٢.

4) إيمان ثابت كامل، القلاع الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٦٩.

5) إبراهيم سعيد، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٧م، ص١٢.

6) دانيال، وصف الأرض المقدسة، ص٨٦.

وقد شيدت على التلة القائمة أمام الميناء[1] مما مكنها من الوقوف على مصاف الموانئ المهمة للصليبيين على الساحل الفلسطيني والاستفادة منها كمحطة لاستقبال الوافدين منهم إلى الأراضي الفلسطينية[2] فقد حرص الصليبيون على الاستيلاء عليها لضمان ميناء آمن لرسو سفنهم كي ترسوا أسفل أسوار هذه المدينة[3].

ونلاحظ أن قلعة يافا تميزت بموقع جغرافي استراتيجي مكنها من أن تكون بمثابة خط الدفاع الأول على السواحل الجنوبية لمملكة عكا الصليبية ضد هجمات المسلمين، خلال القرن الثالث عشر الميلادي السابع الهجري، بعد سقوط عسقلان في يد المسلمين، بل كانت أيضاً مركزاً مهماً لتجمع القوات الصليبية، ونقطة لانطلاق الصليبيين من المنطقة الساحلية إلى داخل البلاد لتنفيذ عملياتهم الحربية ضد الأراضي الإسلامية[4] لتأمين الحجاج الصليبيين الذين يزون هذه المنطقة.

نخلص من العرض السابق، أن الصليبيين عملوا على تشييد العديد من القلاع على طريق الحج لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة المسلمين لهم، فكان تأمين طريق يافا - القدس واجباً مقدساً عمل الملوك الصليبيين على توفير الأمان لهم.

أما عن القلاع الصليبية التي كانت تؤمن المملكة الصليبية عبر حدودها المختلفة، ففي القرن الثاني عشر تم تشييد في عهد الملك بلدوين الأول قلعة صفد، وحصن تبنين أو تورون، وقلعة هونين، وكذلك بناء حصن تل المعشوقة، وحصن العال، ثم استكمل الملك بلدوين الثاني بناء المستوطنات التي تقوم بتأمين يافا - القدس، أما عهد الملك بلدوين الثالث، فتم تشييد قلعة غزة، وفي عهد الملك بلدوين الرابع تم إنشاء حصن بنات يعقوب وذلك بعد توقيع معاهدة صلح مع صلاح الدين.

أما عن القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، فقد أصبحت المملكة الصليبية في صورة عكا متمثلة في الشريط الساحلي الضيق وبعد الأراضي الداخلية، ونلاحظ

---

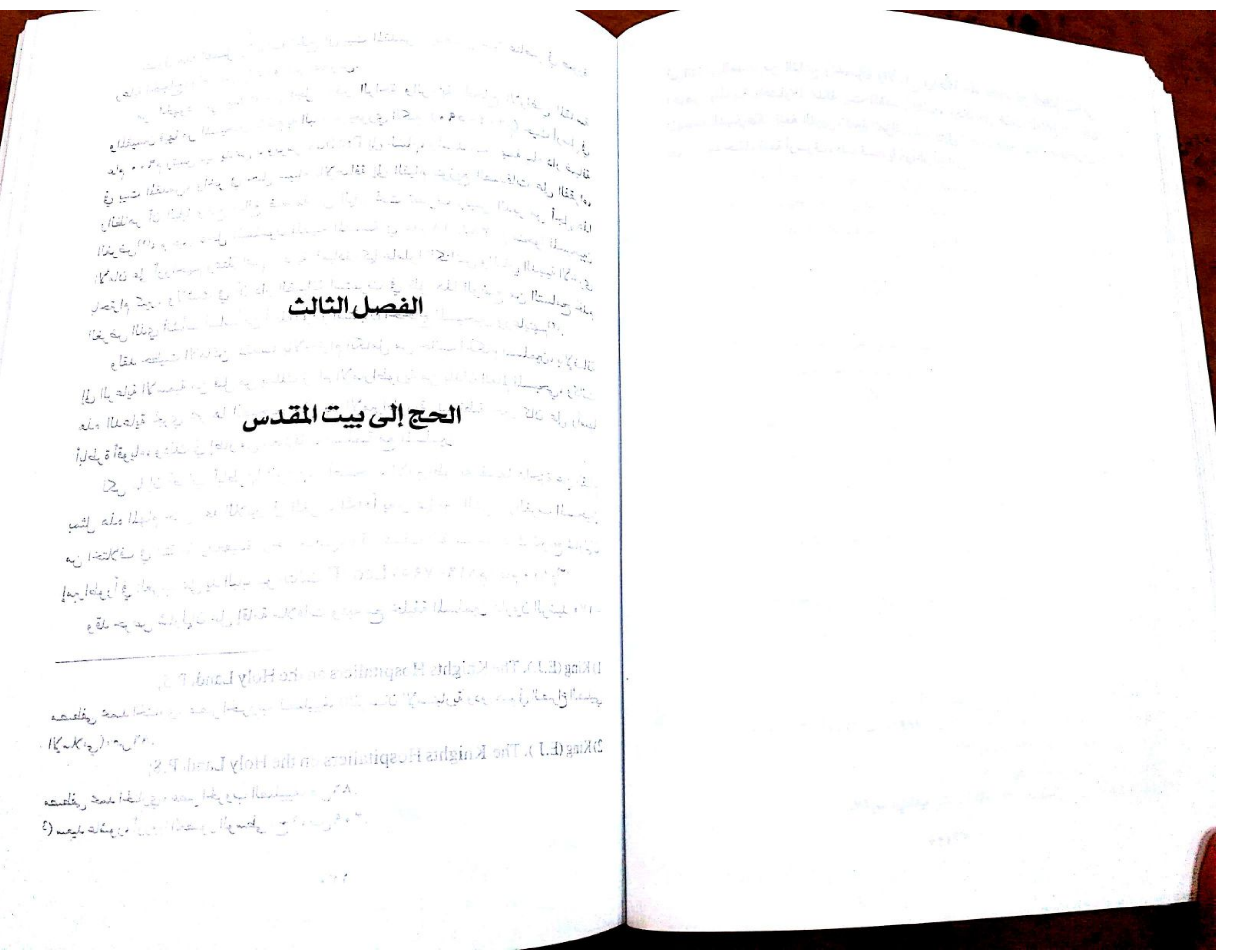
[1] يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٢٧ هامش (٣).

[2] المقدسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. ليدن ١٩٦٧م، ص١٧٤؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، تحقيق رينودى سلان، ط. باريس ١٨٤٠م، ص٢٣٩.

[3] يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٢٨.

[4] إيمان ثابت كامل، القلاع الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، ص٧٢.

أن انتشار العديد من القلاع والحصون والأبراج في عكا جاء كجزء من النظام الدفاعي الخاص بالمدينة باعتبارها مملكة بيت المقدس الثانية، وكان من ضمن القلاع الساحلية المدعمة لمدينة عكا قلعة القرين، قلعة الفولة، قلعة جبل الطور، قلعة صفد، قلعة كوكب الهوا، قلعة حيفا، قلعة أرسوف، قلعة قيسارية، وأخيراً يافا.



الفصل الثالث

الحج إلى بيت المقدس

يتناول هذا الفصل بالدراسة الحج إلى بيت المقدس، ويتضمن عدة عناصر في صورة رعاية الحجاج، وأهم المزارات، وأهم الطقوس.

من الجهود التي بذلت من أجل توفير الراحة والرعاية لحجاج الأراضي المقدسة والمقيمين فيها من المسيحيين ما قام به البابا جريجوري الكبير (٥٩٠-٦٠٤م) حيث أرسل في عام ٦٠٠م رئيس دير يدعى بروبوس Probus إلى الشام، وأسند إليه مهمة بناء دار ضيافة في بيت المقدس، وآخر في جبل سيناء بالإضافة إلى القيام بتوزيع الصدقات على الفقراء، والظاهر أن البابا وضع مبالغ ضخمة من المال تحت تصرف رئيس الدير من أجل هذا الغرض[١]، وحينما دخل المسلمون المدينة المقدسة في عام ١٨هـ/٦٣٨م منحوا المسيحيين الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم وحرية العبادة، كما عاملوا الكنائس والمباني الدينية الأخرى باحترام كبير، ولاشك في أن دار الضيافة استمرت في ظل هذا الوضع من التسامح تخدم الغرض الذي أنشأت أساساً من أجله، وهو استقبال الحجاج المسيحيين ورعايتهم[٢].

ولقد حظيت الأماكن المقدسة بالاحترام الكامل من جانب الحكام المسلمين، بالإضافة إلى الرعاية الاسمية من قبل من يملك زمام الإمبراطورية من بلدان العالم المسيحي، وكانت هذه الدعاية تجري مجراها الصحيح على يد الإمبراطورية البيزنطية حين كان على رأسها أباطرة أقوياء، وذلك في إطار من العلاقات السلمية مع المسلمين.

لكن ما إن أصاب أباطرتها الوهن، وأصبحت الإمبراطورية نفسها عاجزة عن القيام بمثل هذه المهام حتى اتجه اللاتين في الغرب اتجاهاً يعبر عما بين الشرق والغرب المسيحيين من اختلاف في الثقافة والعقيدة بوجه خاص، وقد كشف النقاب عن ذلك تتويج شارلمان إمبراطوراً في الغرب على يد البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥-٨١٦م) عام ٨٠٠م[٣].

وقد حرص شارلمان على إقامة علاقات ودية مع خليفة المسلمين هارون الرشيد ١٧٠-

---

1) King (E.J.)، The Knights Hospitaliers an the Holy Land، P.5;
مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، (الفرسان الإستبارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي)، ص٨٦.

2) King (E.J.)، The Knights Hospitaliers on the Holy Land، P.8;
مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٨٦.

3) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص٢٠٩.

١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م عن طريق السفارات المتبادلة بينهم، وقد أدت هذه السياسة السلمية إلى نجاح كبير حيث تمت الموافقة على تخصيص بيت لاستقبال الحجاج اللاتين، ومنذ ذلك الحين نالت الأماكن المقدسة الكثير من اهتمامات هذا الإمبراطور، وأصبحت موضع عنايته فعمل على ترميم المباني المقدسة وإصلاحها[١]، هذا فضلاً عن المنشآت التي شيدها لمنفعة الحجاج الغربيين، وعرفت جميعها في العصور الوسطى الباكرة باللاتينية Latinie تميزاً لها عن المؤسسات البيزنطية الأرثوذكسية[٢].

كذلك تم تشييد كنيسة للقديسة ماري St. Mary أقيمت فيها الصلوات باللغة اللاتينية، ومكتبة زاخرة على مقربة من كنيسة القبر المقدس، وأنيط بإدارة كل من المستشفى والكنيسة إلى الرهبان البندكتيين[٣]، والذين كانوا يقيمون على جبل الزيتون Mount Olives.

وقد أشار برنارد الراهب Bernard the Monk الذي زار بيت المقدس في عام ٨٧٠م بهذه المنشأة وذلك بقوله:

"وصلنا بيت المقدس حيث قمنا في دار ضيافة الإمبراطور العظيم شارلمان، وكل من أتوا إلى بيت المقدس للعبادة ممن يتكلمون اللغة الرومانية (اللاتينية) نالوا كرم الضيافة هناك، وبجانب دار الضيافة كنيسة بنيت تكريماً للقديسة ماري، والشكر للإمبراطور لأن في بيت المقدس مكتبة واسعة ضخمة، واثنى عشر مسكناً وحقول وأفنية وحديقة في وادي يهوشافاط، وفي مواجهة دار الضيافة هذه كان يوجد مكان سوف يؤجر المحل فيه بقطعتين

---

1) Wilkinson (J)، Jerusalem Pilgrims before the Crusades، England 1977، PP.11-12.

2) King (E.J.)، The Knights Hospitaliers، P.9;
مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٨٨.

3) البندكتين نسبة إلى القديس بندكت (حوالي ٤٨٠-٥٤٣م)، صاحب الفضل في تأسيس النظام الديري الذي عرف باسمه، والذي جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة في الغرب بعد أن حل النظام البندكيتي محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة خصوصاً بعد أن تمتع لأول مرة بتأييد البابوية وعطفها. وكان النظام البندكيتي يقوم على ثلاثة أركان رئيسية هي: إنكار الذات، والطاعة، والعمل. وامتازت الحياة البندكتيسة داخل الدير بالمساواة التامة بين أعضاؤه، واتسمت أيضاً بروح الاعتدال في الجمع بين العبادة والعمل انظر: سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٣-١٨٥.

من الذهب كل عام[1].

ظلت هذه المنشآت تقدم العديد من الخدمات للحجاج اللاتين في جو يسوده التسامح من جانب المسلمين فيما عدا ما اشتهر به عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ٣٨٦-٤١٠هـ/٩٩٦-١٠٢٠م الذي شكل اضطهاداً لرعاياه على اختلاف طوائفهم من مسلمين ومسيحيين ويهود، وبوفاة الحاكم عام ٤١١هـ/١٠٢١م بدأت إعادة بناء المباني المقدسة التي أصابها الدمار والتخريب توضع في الاعتبار لدى أباطرة القسطنطينية، الذين انتقلت إليهم حماية الأماكن المقدسة من أباطرة الغرب لفترة طويلة (حتى هزيمتهم أمام السلاجقة في موقعة منزكرت١٠٧١م)، واعترف بهذه الحماية رسمياً في ذلك الوقت للإمبراطور البيزنطي بازيل الثاني Basil II (٩٦٣-١٠٢٤م)[2].

وكان لجمهورية أمالفي[3] الإيطالية تجارة نشطة مع المسلمين، وخصوصاً مع مصر

---

1) Bernard the Monk، A Journey to the Holy Places and Babylon in Jerusalem Pilgrimes before the Crusades، P.142.

2) عمر كمال توفيق، مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٢٢-٢٤؛

King (E.J.)، The Knights Hospitaliers، P.9, No.4;

مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٩٠.

3) أمالفي Amalfi، مدينة وقعت في كامبانيا Cambania في مقاطعة سالرنو Salerno بإيطاليا على بعد سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من مدينة سالرنو على الساحل الشمالي من الخليج الذي يحمل اسم المدينة Gulf of Salerno، وكانت أمالفي مستعمرة بيزنطية وعلى الرغم من أنها كانت موجودة منذ القرن الرابع الميلادي، إلا أنها لم تكن ذات أهمية تجارية كبيرة حتى أواسط القرن السادس، وشاركت مع المدن الإيطالية التجارية الأخرى مثل البندقية في التجارة مع الشرق، وزادت أهميتها في القرن التاسع الميلادي، وذلك بعد انتهاء ارتباطها بنابولي وحافظت أمالفي على تجارة مزدهرة مع صقلية والشام ومصر، وحصلت على استقلالها منذ وقت مبكر من القرن الحادي عشر الميلادي، وفي حوالي عام ١٠٧٣م أرغمت على الاعتراف لروبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم النورمان الذي هاجمها على رأس جيشه واعتبر البعض ذلك التاريخ البداية الحقيقية لتدهور أمالفي كقوة تجارية حيث صارت موضعاً للمنافسة من جانب جنوة وبيزاعنها انظر:

William of Tyre، Vol. II، P.242; Pirenne, Mohammed and Charlemagne, London 1954, P.152; Citarello, "The Relation of Amalfi with the Arab World before the Crusades" Speculum, Vol. XLII, No.2, April 1967, PP.299-312; Krueger, "The Italian Cities and the Arabs before 1095, in A History of the

واتسم الأمالفيون إلى جانب كونهم تجاراً يسعون من أجل الربح بروح التقوى والورع، والعديد منهم استطاعوا أن يجمعوا بين أرباح التجارة والخدمة الدينية، ونتيجة لذلك حظي رجال أمالفي بمكانة تفوق غيرهم من التجار لدى حكام الشرق وخصوصاً مصر، وأصبحوا معروفين لرجال البلاط في قصر الخلافة الفاطمية.

ولاشك أن ذلك ساعد على تسهيل مهمتهم في الحصول على تراخيص بقطعة أرض في مدينة بيت المقدس حيث يقيم فيها المسيحيون منشآت لإغراضهم التجارية، وكذلك الدينية بالنسبة للحجاج الغربيين، وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل مستوى عال من العلاقات الدبلوماسية[1].

وقد استجاب الخليفة الفاطمي لهذا المطلب، وأرسل أمراً كتابياً إلى حاكم بيت المقدس يأمره بتخصيص مساحة كافية من الأرض في مدينة بيت المقدس في الجزء منها الذي يشغله المسيحيون كي يقيم رجال أمالفي ما يرغبون في إقامته من مباني ومنشآت، وبناءاً على أمر الخليفة خصص والي بيت المقدس للأمالفيين أرض واسعة في مواجهة كنيسة القبر المقدس حيث قاموا على مسافة لا تزيد عن رمية حجر من هذه الكنيسة ببناء دير وكنيسة تمجيداً للقديسة مريم، والحقوا بهذا المبنى المكاتب وأماكن الإقامة اللازمة للرهبان[2]، وسمي كنيسة أودير القديسة ماري اللاتينية لأداء الصلوات فيه باللاتينية وفقاً للمذهب الغربي الكاثوليكي، وتمييزاً له عن كنيسة السريان حيث اتبعت العادات والنظم الأرثوذكسية[3].

وقام الأمالفيون أيضاً ببناء دار ضيافة Hospice يأوي إليها القادمون من مقاطعة أمالفي بصفة خاصة مع السماح لحجاج آخرين بالإقامة فيها وفقاً لما تستوعبه منهم، وأشرف

Crusades", Vol. I, Pennsylvania 1958, P.52;

أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٢٣٩-٢٤٠؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٢، ت. أحمد رضا، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٧٢.

1) مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٩١؛ سعيد محمد سعيد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٥-٦٨٧هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ٢٠٠٣م، ص٢٩.

2) William of Tyre, Vol. II، P.243.

3) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٨٧.

على هذا العمل خمسون من التجار الذين أرسلوا بعد ذلك إلى بلدهم في إيطاليا يستدعون رئيس دير ورهبان من البندكتيين كي يتولوا الخدمة في الدير، ويشرفون على القائمين بالعمل في دار الضيافة، إلى جانب العناية بالمرضى والفقراء اللاتين الذين يقيمون فيها[1].

وحدث بعد ذلك وأكثر من مرة أن أتى من أجل الحج نساء كرسوا أنفسهم للخدمة في المدينة المقدسة وكان أكثرهم من الأمالفيات، وبأي حال لم يرغب هؤلاء المقيمون في الدير أن يستقبلوا النساء في دار ضيافتهم خوفاً من التردي (الوقوع) في الخطيئة وتجنباً لشبهة فضيحة أو عار، ونتيجة لهذا الوضع قام تجار أمالفي ببناء دير آخر صغير كرس للقديسة مريم المجدلية St. Maria Maddalena، وألحق بهذا الدير دار ضيافة للنساء Opspizio Per Le Donne حيث أقام بصفة منتظمة عدد من الرهبان البندكتيين ذوي الأصل النبيل من أجل القيام بخدمة الحجاج من النساء القادمات إلى الأراضي المقدسة، وبعد فترة من الوقت قاموا إلى جانب ذلك بأعمال التمريض في المستشفى[2].

وقد عين رئيس الدير هذا أحد الحجاج الذين قدموا إلى المدينة المقدسة، وكرسوا أنفسهم للخدمة بها، ويدعى جيرار Gerard مشرفاً على دار الضيافة والمستشفى، بينما قام بإدارة العمل في الدير الخاصة بالنساء رئيسة دير اسمها أجنز Agnes ذكر عنها وليم الصوري أنها امرأة مقدسة رومانية المولد من طبقة النبلاء، وذات نسب عال من حيث الأصل، كرست نفسها من أجل الرب، وعاشت في بيت المقدس لبضع سنوات بعد سقوطها في أيدي الصليبين[3].

ومن الجدير بالذكر أن أعداد القادمين إلى بيت المقدس من أجل الحج أو الزيارة قد زادت بحيث أصبحوا عبأ ثقيلاً لكثرة المرضى، والجرحى بينهم، وهؤلاء كانوا في حاجة إلى فترة إقامة أطول ومزيد من العناية المتصلة في تدبير العلاج اللازم وتوفير سبل الراحة، هذا

---

1) William of Tyre، Vol. II، P.243; مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٩٥.

2) William of Tyre، Vol. I، P.80، Vol. II، P.243; يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٨٧؛ مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٩٥.

3) William of Tyre، Vol. II، P.245; يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٨٧-٨٨.

بالإضافة إلى أنهم كانوا يتولون مهمة دفن من عاجلتهم المنية من هؤلاء المرضى أو الجرحى، رغم أن ذلك كان فوق طاقاتهم[1].

ومن الملاحظ أن عصر جديد أخذت تتوافد فيه على الأراضي المقدسة حشود ضخمة من الحجاج اللاتين كانت إرهاصاتها جماعات من الصليبيين تفيض حماساً متهوراً أفقدها عنصر الحذر والحيطة إزاء ما قد يواجهها من أخطار، فكانت النتيجة أن وقعت فريسة لكمائن الأتراك السلاجقة قبل أن تصل إلى بغيتها المقصودة، مما دفع الغرب الأوروبي إلى ضرورة تنظيم هذا العمل كي يكفل له النجاح، وكانت الحملة الصليبية الأولى أول نوع من هذا القبيل وساعدها على النجاح في مهمتها الفوضى التي عرفت فيها بلاد الشام بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم ببعض وبين السلاجقة والفاطميين، والبيوت العربية التي كونت لنفسها إمارات مستقلة من ناحية أخرى، واستطاع الصليبيون بفضل هذه الأوضاع الاستيلاء على عدد من المدن والبلدان الإسلامية المهمة، وأن يتقدموا في سهولة إلى مدينة بيت المقدس التي يحترقون رغبة للوصول إليها وانتزاعها من أيدي المسلمين[2].

وبعد استيلاء الصليبيين على القدس، أصبحت مستشفى الإسبتارية محل ثقة المسيحيين عامة، وملوك بيت المقدس خاصة، وتدفقت عليها التبرعات والهبات التي ساعدت على ازدهارها والثابت أن جودفري البويوني منح المستشفى قرية باسم (*Casale Hessilla*) قريبة من القدس، وتعتبر هذه أول هبة تلقتها مستشفى الإسبتارية من ملوك بيت المقدس[3]، ومما يدل على عظم الخدمات التي كانت تقدم للمستشفى في بدايات فترة الاحتلال الصليبي للقدس، أن رئيسها جيرهارد Gerhard اكتسب لقب حامي فقراء المسيح Guardien des Pauvres[4].

وقد زار عدد من الحجاج الأوروبيين تلك المستشفى على امتداد المرحلة موضوع

---

1) William of Tyre، Vol. I، P.80، Vol. II، P.248.

2) مصطفى محمد الحناوي، عصر الحروب الصليبية، ص٩٧.

3) نبيلة مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ص١٣؛ محمد الحافظ النقر، التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس، مؤتمر بلاد الشام فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج٢، اليرموك ٢٠٠٠م، ص٦٦٩.

4) محمد الحافظ النقر، التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في بيت المقدس، ص٦٦٩.

الدراسة، فقد أشار سايولف Saewulf (١١٠٢-١١٠٣م/٤٩٥-٤٩٦هـ) عندما تناول كنيسة القديسة مريم Santa Mary في بيت المقدس، إلى أنه بالقرب منها مستشفى مخصصة للقديس يوحنا المعمدان[1] ولم يقدم أية تفصيلات عنها خلال تلك السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وذلك لأن مبانيها اتسمت بالبساطة.

ولا نغفل حقيقة مهمة، تتمثل في أن مملكة بيت المقدس الصليبية كانت محط مقدم الآلاف من الحجاج الأوروبيين الذين رغبوا في زيارة الأماكن المقدسة، التي ارتبطت بالتاريخ المبكر للمسيحية في فلسطين، وكانت أعداد أولئك الحجاج في تزايد مستمر خاصة بعد نجاح الصليبيين في احتلال تلك المناطق، وقد قطع أولئك الحجاج الأوروبيين رحلة شاقة لمسافات طويلة من أجل الوصول إلى هدفهم النهائي، وعندما كانوا يصلون إلى يافا Joppa، وهي ميناء بيت المقدس كان عليهم أن يقطعوا الطريق بين يافا والمدينة المقدسة، وكانت هناك هجمات المسلمين على أولئك الحجاج، وتعرضت عناصرها للقتل والجرح[2]، ومن ثم وجدت الحاجة إلى المحافظة على أرواحهم، وإسعاف العناصر المصابة منهم، وتوفير الرعاية الصحية لهم، بالإضافة إلى أن عناصر الحجاج عندما عادوا إلى بلادهم في الغرب الأوروبي تحدثوا عن إمكانيات المملكة الصليبية فيما يتصل برعايتهم صحياً على نحو كان يعنى الدعاية السياسية للوجود في بلاد الشام، ويضمن للصليبيين مكانة متميزة في الأوساط الدولية في الغرب الأوروبي[3].

بعد ذلك نجد وصفاً أكثر تفصيلاً لتلك المستشفى من جانب أحد الحجاج الألمان، وهو يوحنا أوف ورزبرج John of Wurzberg (١١٦٠-١١٧٠م) وقد ذكر أنها احتوت على عدد من الحجرات حوت بدورها عدداً كبيراً ومتزايداً من المرضى من الجنسين، وقدم إضافة مهمة من خلال إشارة إلى عدد المرضى قدر بألفي شخص، تقوم المستشفى بعلاجهم، ويبدو أنه كان هناك توجهات فيما يتصل بنجاح تلك المستشفى في علاج روادها، فهو يقرر أن

---

1) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف، ص٢٩؛

Saewulf، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.104.

2) دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٢٧-٢٨؛

Daniel The Abbot، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.126.

3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م، ص١٢٥.

المرضى يشفون يومياً على نطاق واسع، ولكن من زاوية أخرى أوضح أن عدد الوفيات بين المرضى يبلغ أكثر من خمسين شخصاً في اليوم[1]، وهو معدل مرتفع وله خطورته من خلال ملاحظة أن ذلك حدث في وقت عانى فيه الصليبيون أصلاً من مشكلة نقص العنصر البشري، فقيمة ما قدمه ذلك الرحالة من أرقام إحصائية عند زيارته للمستشفى أتت من أنه شاهد عيان له احتكاك مباشر بتلك المؤسسة العلاجية الصليبية[2].

وقد أشار إلى تلك المستشفى بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela (١١٦٣-١١٧٠م/٥٥٨-٥٦٥هـ) وقد ذكر أمرها على اعتبار أنها مستشفيان لا واحدة، وأشار إلى أنهما متسعتان لإيواء أربعمائة من فرسان الإستبارية Hospitallers المرضى الذين يتم تجهيزهم بكل ما يحتاجونه في الحياة وبعد الممات[3]، مما يعكس وجود بعض الحالات التي لم يقدر عددها التي أخفقت المستشفى في علاجها على نحو أدى بها إلى الموت[4].

أما ثيودريش Thoaderich (١١٧١-١١٧٣م/٥٦٦-٥٦٨هـ) وهو أحد الحجاج الألمان فقد ذكر أن المستشفى تمتع بثراء كبير في الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وأشار إلى أنه كان عاجزاً عن معرفة المرضى الذين كانوا يعالجون بها، وقدر عدد الأسرة بأنها أكثر من ألف سرير، وحظيت المستشفى بمرافقها بإعجابه من حيث مبانيها وحجراتها، والأسرة

---

1) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م، ص٧٨؛

John of Würzburg، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.266;

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات نقدية، ص١٢٥.

2) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات نقدية، ص١٢٦.

3) Benjamin of Tudela، Travels of Benjamin of Tudala، in Wright Early Travels in Palestine، London 1848، P.43; Peters، Jerusalem the Holy City، Princeton 1985، P.382;

سعيد محمد سعيد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٣١.

ويلاحظ أن المستشفى الثانية التي أشار إليها بنيامين التطيلي هى مستشفى الداوية عن ذلك انظر:

Hume، Edgar، (E.)، Medival Work of the Knight Hospitallers of Saint John of Jerusalem، Baltimore 1940;

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات نقدية، ص١٢٦.

4) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات نقدية، ص١٢٦.

والمستلزمات الأخرى التي يحتاجها المرضى في علاجهم[١].

وكان الاهتمام بالجانب الطبي أمراً له أهميته فيما يتصل بمركز المملكة الصليبية الخارجي، فالإفادة من الموارد الطبيعية في المناطق التي احتلها الصليبيون مثال ذلك عيون طبرية بمنطقة الجليل، وهي التي وصفها أحد الرحالة اليهود بأنها تندفع بقوة من باطن الأرض[٢]، ونعرف عن تلك العيون أنها كانت شديدة الحرارة للغاية، ووصفت بالعذوبة، وطيب الرائحة[٣]، وقد عرفت تلك العيون بقدرتها على معالجة الأمراض، وكانت كل عين مخصصة من أجل معالجة مرض من الأمراض[٤] الجلدية التي عانى منها بعض الحجاج[٥].

ومن زاوية أخرى ارتبطت عناصر التبرك والقداسة بالمعالجة في أذهان الصليبيين، ومن أمثلة ذلك اللجوء إلى عين سلوان Poole of Siloe، الواقعة في وادي قدرون شرق القدس، التي ارتبطت بحادثة إعادة السيد المسيح ﷺ – بإذن الله تعالى – البصر للأعمى[٦].

---

1) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ط. عمان٢٠٠٣م، ص٧٨؛

Theoderic, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.287.

وقد أخبرنا الرحالة لودولف فون سوخم عند حديثه عن مستشفى الإسبتارية في بيت المقدس فقد ذكر الخدمات التي يلقاها المرضى من الحجاج، وأنها تتسع لإقامة ألف نزيل بسهولة وتوفر للنزيل احتياجاته مقابل دفع ثمنها، ويدفع النزيل فلسين بندقيين فقط لإقامته، حتى لو امتدت إقامته عاماً كاملاً.

Ludolph Von Suchem; Description of the Holy land, and of the way thither, translated by Aubrey Stewart. M.A., in Palestine pilgrims, Society, Vol. XII,London 1895, P.106-107;

حسن أحمد عبد الجليل البطاوي، لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام ١٣٣٦-١٣٤١م، المجلد رقم ٤٥، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٥٩١.

2) بنيامين التطيلي، الرحلة، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٣م، ص١١١.

3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ص١٢٣.

4) السائح الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق دومنيك سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م، ص٢١؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٦٤؛ القزويني، أثار البلاد، ص٢١٨؛ محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ص١٢٣.

5) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ص١٢٣.

6) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٨٦.

إن رعاية مرضى الجذام كان ينظر لها على أنها عمل من أعمال الإيمان العميق والتواضع، كما أن مستشفى مرضى الجذام في بيت المقدس لها تاريخ طويل سابق على فترة الحروب الصليبية، ومن المحتمل أن البدايات

وكذلك كانت مياه نهر الأردن ينظر إليها الصليبيون بقداسة على اعتبار قدرتها الشفائية نظرا لارتباطها بتعميد السيد المسيح فيها وتعميده للحواريين، ولذا وجدنا من المرضى من يذهب إلى هناك كي يغتسل بمياه ذلك النهر رغبة في الشفاء[١].

بعد استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م أبقى صلاح الدين الأيوبي على عشرة من الإستبارية لعلاج جرحى الصليبيين ومرضاهم، وقد استمر العمل في مستشفى بيت المقدس تحت سيادة المسلمين، وكان ضرورياً لهذه الجماعة أن تجد لها مقراً آخر يكون مركزاً لها تقدم فيه العلاج للحجاج والمحاربين، وفي البداية اتخذت الجماعة من مدينة صور مقراً مؤقتاً لها حيث تجمعت هناك الفلول الصليبية بعد هزيمة حطين، وسقوط العديد من المدن الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي، ولم يستقر المقام بجماعة مستشفى الاسبتارية في مدينة صور بعد أن شعروا بالأخطار تتهددهم من كل جانب، فأثروا الانتقال إلى المرقب[٢] حيث توجد قلعتهم، وهناك أنشئوا ديراً ومستشفى في حدود ما كانت تسمح به

الأولى لمستشفى القديس لازاروس ترجع إلى منطقة بيت المقدس. ولقد قام القديس باسل بإنشاء مستشفى لمرضى الجذام خارج أسوار قيسارية أواخر القرن الرابع الميلادي، وإن كان من المحتمل وجود مستشفى لهم خارج أسوار بيت المقدس في فترة مبكرة من القرن الثالث الميلادي. كما أن أحد حجاج بيت القدس قد أشار إلى استخدام مرضى الجذام المياه من عين سلوان والتي كانوا يعتقدون في قدرتها على الشفاء من ذلك المرض.

أدريان بوس، مدينة بيت القدس زمن الحروب الصليبية، ترجمة علي السيد علي، ط. القاهرة ٢٠١٠م، ص٧٠.

وعن هيئة القدس لازار انظر:

David Marcombe, Leper Kninghts, The order St. Lazrus of Jerusalem in England, C.1150-1544, Britain 2003, PP.6-16;

سرور علي عبد المنعم، فرسان القديس لازاروس في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، المؤرخ المصرى، العدد الثامن والعشرون، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١٦١-١٨٠.

1) Euphrosine، Pelerinage au Palestine de L'Abbesse Euphrosine، Traduit par de Khitroux، R.O.L., T. III، Annee 1895، P.33.

2) قلعة المرقب تعد من أهم القلاع الصليبية المدافعة عن إمارة أنطاكية الصليبية ويفصلها عنها أراضي تابعة للمسلمين باللاذقية وجبلة، وهي أول ما يشاهده القادم إلى الظهير من جهة البحر، وتقع القلعة على سطح مثلث الشكل يرتفع إلى ما يزيد على ٣٠٠ متر فوق سطح البحر، وتحيط بالقلعة الميول الحادة من جميع الجهات، وكان لها إضافة إلى التحصين الطبيعي، أسوار متعاقبة تتخللها الأبراج المستديرة القوية. وقد عاش في قلعة المرقب مئات من فرق المشاه تحت قيادة عسكرية، وكان نمط إعاشتهم أشبه بالثكنات، وقد قامت

ميزانيتهم الضعيفة، لأن معظم أموالهم استخدم في افتداء كثير من الصليبيين الذين وقعوا في أسر المسلمين، وفي الجزء الذي خصص في المرقب للعناية بالمرضى والجرحى واصل الإستبارية عملهم على نحو متواصل حتى مجيء الحملة الصليبية الثالثة في عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[1].

عندما استولى الصليبيون على مدينة عكا في ١٣يوليو من نفس العام (١١٩١م/٥٨٧هـ) جعل الإستبارية من المبنى الذي كان صلاح الدين قد حوله أثناء استرداد المسلمين للمدينة إلى مدرسة إسلامية ثم إلى مستشفى بحيث أعادوا تنسيقه وتعديله بما يكفل ملاءمته لأغراض العلاج[2] ورعاية الفقراء من الحجاج، ونالت أيضاً شهرة، ولكن تدنوا تلك التي نالتها مستشفى بيت المقدس.

كانت هناك جموع كثيرة من الألمان تأتي لزيارة الأرض المقدسة، وواجهت هذه الجموع مشكلة اللغة التي مثلت لها حجر العثرة[3] بالإضافة إلى الأخطار التي كانت تهدد الألمان في طريقهم لزيارة المزارات المسيحية المقدسة فكانت الحاجة تلح إلى إيجاد رابطة تربط الألمان من خلال مؤسسة تقوم بالأعمال الخيرية لكي يتمكنوا من أن يجدوا علاجاً لهم، ومن جهة أخرى لكي يتمكنوا من الترابط فيما بينهم في مؤسسة تجمعهم من خلال وحدة اللغة الألمانية التي تجمعهم فكانت هيئة فرسان التيوتون التي ارتبطت بالحجاج الألمان.

وترجع هذه الهيئة في أصولها إلى عام ١١٢٨م، عندما أسس حاج ألماني ثري وزوجته

بشن العديد من الهجمات ضد أملاك المسلمين في حماة.

Cahen (C.), La Syrie du nord a l'Epoque de Croisades et la Princinpaute Franque d' Antoiocle, Paris 1940, P.172;

أسامة سيد علي، الظهير الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٦م، ص٢٠١.

1) Hume Edagar (E.)، Medical work of the Knights Hospitallers، P.10;

مصطفى محمد الحناوي، أضواء جديدة على منشآت الفرسان الإستبارية في بلاد الشام، ط. الرياض ٢٠٠٧م، ص٢٢.

2) Hume Edagar (E.), Medical work of the Knights Hopitallers، P.18;

مصطفى محمد الحناوي، أضواء جديدة على منشآت الفرسان الإستبارية في بلاد الشام، ص ٢٢.

3) محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٤م، ص٣٨٢.

مستشفى مريم العذراء في بيت المقدس، من أجل مواطنيهم الحجاج الألمان الفقراء ويبدو أنها وضعت بطريقة ما تحت أشراف المقدم الأكبر لهيئة الإستبارية، وقد اندمج رهبان المستشفى الألماني تحت لواء النظام الأوغسطيني المعروف في الغرب الأوروبي، وارتدوا عباءة بيضاء مطرز عليها صليب أسود، ولا ريب أن رهبان المستشفى تطلعوا إلى الاستقلال التام، إذ قدر لهم في أقل من نصف قرن، أن يتطوروا إلى هيئة شهيرة سميت باسم هيئة فرسان التيوتون Order of Teutonic Knights[1] ويبدو أن تطلع المستشفى للانفصال عن هيئة الإستبارية، يرجع إلى أنها كرهت أن تكون في موقف التابع.

وفي عام ١١٤٣م/٥٣٨هـ أصدر البابا كلستين الثاني Celestine II، وثيقة أقر فيها استقلال المستشفى الألماني عن نفوذ مقدم الإستبارية جزئياً، على شرط أن يكون مقدمها ورهبانها من بين الذين لهم القدرة على التحدث باللغة الألمانية بشرط موافقة مقدم الإستبارية على الاختيار[2].

ولدينا وصف لهذه المستشفى أورده أحد المصادر اللاتينية المعاصرة، فنجد أن الرحالة الألماني يوحنا أوف ورزبرج John of Wurzberg (١١٦٠-١١٧٠م) قد أشار إلى كنيسة ونزل حديث البناء على شرف القديسة مريم St. Mary وتسمى بيت الألمان The House of the Germans، وأشار إلى أن أحداً لا يستطيع أن يقدم الصدقات إلا إذا كان ألمانيا[3].

وقد ظلت هيئة التيوتون تباشر دورها الخيري والإنساني في مدينة بيت المقدس عن طريق مستشفاها وكنيستها حتى تم للمسلمين استرداد المدينة على يد صلاح الدين الأيوبي، غير أن من الواضح أن تلك المؤسسة الطبية الألمانية كان دورها محدودا إذا ما قورنت بمستشفى القديس يوحنا السالفة الذكر[4]. ولو كانت المستشفى الألماني هيئة عسكرية لكان

---

1) King (E.J.)، The Knights Hospitallers on the Holy Land، P.42;

محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ط. القاهرة ١٩٧٩م، ص٧٠؛ محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون في شرق أوروبا دراسة في التاريخ السياسي والعسكري (١٢٢٦-١٤٦٦م)، ص٢٢.

2) King (E.J.)، The Knights Hospitallers on the Holy Land، P.42;

حسن عبد الوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأرض المقدسة، ص٦٢.

3) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٧٩؛ محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية، ص٣٨٣.

4) نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان في بلاد الشام، ص١٦٢.

لم دور في التصدي لصلاح الدين عند فتح القدس، ولعاملهم صلاح الدين معاملته القاسية للداوية والاسبتارية، لكن ذلك لم يحدث لأنهم كانوا مجرد رهبان في المستشفى الألماني.

ووجدت بعض التنظيمات الأصغر، ومن أمثلتها تنظيم القديس لازاروس St. Lazarus[١] وهي هيئة قامت أساساً من أجل رعاية المبرصين، أو الذين أصيبوا بمرض البرص[٢] وهو مرض محدد من الأمراض الجلدية[٣]، ومعنى ذلك أن جموع الحجاج كانوا يعتقدون في قدرات هذا القديس وكراماته، ويعني أيضاً أن القديس لازاروس قد حظي بتقدير كبير على المستوى الشعبي في المملكة اللاتينية. أما على المستوى الرسمي، ففي عهد الملك الصليبي فولك أوف أنجو قامت الملكة مليزاند بإنشاء بعض الأبنية الخيرية ومنها الذي كرسته للقديس لازاروس وأختيه مريم ومارثا[٤].

والجدير بالذكر، كان هناك عدد من المستشفيات في الإمارات الصليبية مثل طرابلس Tripolis، والرها Edessa، من ذلك ما نعرفه من وجود مستشفى تم تشييدها في مواجهة طرابلس في صورة قلعة الحاج التي أقامها ريموند الصنجيلي Raymond de St. Gilles (١١٠٢-١١٠٥م/٤٩٦-٤٩٩هـ) وأعيد تشييدها فيما بعد على نحو أكثر ثراءاً في عهد خلفه برتراند Bertrand (١١٠٨-١١١٣م/٥٠٢-٥٠٧هـ)، ومن زاوية أخرى، هناك إشارة إلى تشييد مستشفى في رفنية إلى الشمال من طرابلس، ووجد بها عدد من الأطباء، وكان هدفها خدمة الفقراء المحليين، وكذلك الحجاج[٥] المارين بالمناطق الصليبية وصولاً إلى الأماكن

---

1) هو (اليعاذر) المعروف في الغرب باسم القديس (لازاروس) St. Lazarus، وأخته "مارثا" و"مريم" من أشد الناس إخلاصاً للسيج المسيح، رفع المسيح ﷺ من الموت بإذن الله تعالى- عاش في قرية بيثاني Bethany جنوب شرق جبل الزيتون بالقرب من القدس.

Attwater، Dictionary of Saints، P.238;

Unger، Unger's Bible Dictionary، Chicago 1964, P.651;

Ency. America، "Lazarus"، Vol. XVII، U.S.A. 1970, P.94.

2) البرص أو البهاق بياض يظهر في ظهر البدن ويعرف الأسود منه بالقوباء، وهى مقدمات الجذام، إذا لم يتعفن، أما إذا تقرح وتعفن أحدث الحمى انظر: ابن سينا، القانون في الطب، ج٣، بيروت ب.ت، ص ١٤٠.

3) محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية، ص ٣٩٠.

4) Runciman(S,), A History of the Crusades، Vol. II London 1978، P.231.

5) Richard, "Hospitals and Hospital Congregation in the Latin Kingdom during the first period of the Farankish Contuest", in Outremer Studies in the History

المقدسة، وقد أنهى الكونت بونز Pons (١١١٣-١١٣٧م/٥٠٧-٥٢٧هـ) استقلاليتها من خلال إخضاعها لهيئة الإستبارية، وذلك في ٢٨ديسمبر عام ١١٢٦م[١].

كما تم تأسيس مستشفى أخرى في إمارة الرها Edessa، إذ أننا نجد مستشفى في تربسيل Turbessel وهى التي ضمها إلى كنيسة القديس رومين St. Romain وقد عهد بها جوسلين الثاني Joscelin II إلى الإستبارية في عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ[٢].

ومن الملاحظ أن عدد المستشفيات في بيت المقدس كان كبيراً بحكم أن تلك المدينة كانت العاصمة الدينية، والسياسية للصليبيين خلال تلك المرحلة وتزايد أعداد الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المقدسة، ولذلك زادت أعداد تلك المؤسسات بها بالمقارنة بما كان لدى الإمارات الصليبية الأخرى[٣].

أما فيما يختص بأهم المزارات فنجد مدينة بيت المقدس فترة الاحتلال الصليبي كان لها خمس بوابات رئيسية، وعدد من الأبواب الصغيرة أو المداخل والتي ربما وصل عددها إلى ثمانية. أما البوابات الرئيسية فهي بوابة داود "باب الخليل" إلى الغرب، وبوابة القديس ستيفان باب العمود إلى الشمال، وبوابة يهوشافاط، أو بوابة القديس ستيفان، والبوابة الذهبية "باب الرحمة"[٤] إلى الشرق، وبوابة جبل صهيون إلى الجنوب، وكأي مدينة مسورة، فإن بوابات مدينة بيت المقدس كانت تغلق عند غروب الشمس، وحتى شروقها في اليوم التالي ومعظم البوابات، بل ربما كلها كانت تتم حمايتها عن طريق الأبراج ذات المدخل غير المباشر[٥].

---

of the Crusading Kingdom of Jerusalem, Jerusalem 1982، P.91;

محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ص١٢٨.

1) Delaville Le Roulx، Cartulaire General de L'Ordre des Hospitallers de St. Jean de Jerusalem (1110-1130)، Vol. I, Paris 1894, P.90.

2) William of Tyre، Vol. II، P.292.

3) محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ص١٢٨.

4) محمد الحافظ النقر، التغييرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس، ص٦٦٢.

5) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٢١-١٢٢؛ سماح عبد المنعم السلاوى، الأوضاع الحضارية في مصر واالشام في العصر المملوكى من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٨م، ص ٢١٢-٢١٣.

تقع بوابة الخليل في الجانب الغربي من جبل صهيون، في مقابل برج داود، حيث توجد المدينة السفلى، وأمام هذه البوابة توجد بناية مقنطرة، وفي الجهة اليمنى من هذه القنطرة، قيل بأن يهوذا[1] علق نفسه هناك بشجرة جميز ومات مشنوقاً، وكانت هذه البوابة تعرف باسم بوابة السمكة، فمنها كان الطريق يمتد إلى يافا، اللد، وساحل البحر، وعلى طول هذا الطريق اعتاد الناس إحضار السمك وكانت تعرف ببوابة التجار، لكون هذا الطريق كان يمر منها إلى بيت لحم، الخليل، غزة، مصر، أثيوبيا، وحملت أيضاً اسم بوابة داود، لكون البرج ومدينة داود يقعان فوقها[2].

إن أهمية بوابة داود "باب الخليل" تظهر بوضوح من الطريقة التي تظهر بها على خرائط بيت المقدس للعصور الوسطى. ففي معظم هذه الخرائط يظهر طريقان فقط خارج أسوار المدينة، أحدهما قادم من النبي صموئيل في الشمال الغربي، والآخر يتجه من بيت المقدس إلى بيت لحم، والطريق الواصل إلى بوابة داود "باب الخليل" يعرف باسم الطريق إلى المدينة. أما الطريق الآخر فهو الذي يغادر المدينة من عند نفس البوابة، ولقد خضعت البوابة لبعض التحصينات في عام ١١٥١م. ففي ذلك العام أمرت الملكة ميليسند بهدم طاحونة تخص جماعة القديس لازاروس، ويبدو أنها كانت تعرف المدخل، ومن المحتمل أن تلك الطاحونة كانت تخص مرضى الجذام من النساء، والذين كان مكانهن إلى جوار بوابة داود[3].

أما البوابة القديمة فإنها تقع على الجانب نفسه من السور الواقع شمال بوابة الخليل وتدعى بالبوابة القديمة، وسميت بهذا الاسم لكونها قائمة منذ اليبوسيين[4]، وكانت تسمى

---

1) يهوذا الإسخريوطي، هو واحد من تلاميذ المسيح الإثنى عشر خانه وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضة، وبعد ذلك ندم على فعلته ورد المال لليهود ثم قتل نفسه.

2) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٤-١٤٥؛ إبراهيم الجندي، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين، المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية، العدد (٣)، رام الله ٢٠٠٣م، ص١٣٣.

3) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٢٣.

4) اليبوسيون هم أول من بنى مدينة القدس التي كانت تسمى يبوس واليبوسيون هم أحد بطون العرب الأولين الذين نشأوا في الجزيرة العربية ثم هجروها مع بقية القبائل الكنعانية وهم أول من بنى حجراً في المدينة المقدسة حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وقد انقسم الكنعانيون في هجرتهم بين بابل وفلسطين وكانت هذه المنطقة تسمى أرض كنعان نسبة إلى استقرار القبائل الكنعانية فيها. وأنشأ الكنعانيون في هذه المنطقة مجموعة من المدن منها يبوس (القدس) وشكيم (نابلس) وبيت شان (بيسان) وغير ذلك من المدن

أيضاً ببوابة القضاء أو الحكم، بسبب إصدار الحكم أمامها، والعقوبات التي كانت تنفذ بعد إصدار الحكم خارج تلك البوابة، ويعتقد المسيحيون بأنه خارج هذه البوابة صلب السيد المسيح عليه السلام لأن مكان الحكم كان داخل السور قرب تلك البوابة، وما زالت آثار هذه البوابة على السور القديم ظاهرة حتى الآن[1].

وتعتبر بوابة العمود (بوابة القديس ستيفان باب العمود) من أشهر بوابات بيت المقدس وأضخمها وأكبرها حجماً لكونها تمثل المدخل الرئيسي للمدينة، عرفت زمن الحروب الصليبية باسم بوابة القديس ستيفان وذلك لقربها من المكان الذي استشهد فيه القديس ستيفان كما كانت تعرف أيضا باسم باب العمود[2]، وأهمية هذه البوابة تكمن في أنها تؤدي إلى الطريق الشمالي المؤدي إلى نابلس[3] ومن هناك إلى عكا ودمشق وفي القرن الثاني عشر للميلاد، وقبل أن تقع المدينة في أيدي قوات صلاح الدين الأيوبي، وتظهر هذه البوابة وكأنها تستخدم بواسطة الحجاج المسيحيين أثناء دخولهم بيت المقدس عن طريق هذه البوابة يدخل الحجاج إلى المدينة، وعن طريقها يدخل القادمون براً من عكا إلى بيت المقدس، وكذلك القادمون براً من عسقلان بعد الوصول إليها بحراً[4].

الفلسطينية، ورغم أنهم وصلوا الى هذه المنطقة متفرقين لكنهم سريعاً ما أسسوا كياناً متضامناً للدفاع عن أنفسهم ضد الغزاة والأعداء وأسسوا حضارة كبيرة في هذه المنطقة وبنوا مدناً حصينة وهم أول من عرف زراعة الزيتون التي علموها لمن جاء بعدهم إلى المنطقة كبني إسرائيل ومن أشهر الصناعات التي عرفت بها هذه المنطقة في عهد اليبوسيين صناعة الفخار والمعادن والنسيج كما اخترعوا الكتابة وسنّوا القوانين من أشهر ملوكهم (ملكي صادق) وهو من بني (يبوس) وقيل أنه كان يسكن في كهف وكان له نفوذ واسع على القبائل المجاورة وكانت الملوك تدين له ولقب بكاهن الرب الأعظم هذا الملك هو الذي بنى (قرية السلام) ومن هنا جاء اسم (سالم) و(شاليم) في سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر و(أورو - سالم) وهو الذي التقى بإبراهيم عليه السلام عندما جاء من مصر وخرج لاستقباله في موكب مهيب وقدم له الهدايا.

1) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٥؛ إبراهيم الجندي، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين، ص١٣٤.

2) Anoymous Pilgrim, in Palestine text Society، translated Aubrey Stewart، Vol. V، London 1894، P.22; On the site of Jerusalem، and of the Holy Places inside the city or round it، in Jerusalem pilgrimage 1099-1185، P.177.

3) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٦.

4) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٢٤.

ونجد بوابة الساهرة (بوابة هيرود) شرقاً وعند زاوية المدينة الواقعة فوق وادي قدرون، وتدعى باسم بوابة الزاوية، وتعرف أيضاً باسم بوابة بنيامين، فمنها عبر الطريق إلى عناتا وبيت ايل، والبرية[١] وتقع جنوب بوابة الزاوية وفوق وادي قدرون بوابة الأمن (بوابة الروث)، ومنها يمر الطريق المؤدي إلى داخل الصحراء، وكانت الطرق المؤدية لها غير مأهولة بالسكان[٢].

وتقع جنوب بوابة الأمن (بوابة الأسباط) وتدعى أيضا باسم بوابة الضأن، لأن الأغنام التي كانت تقدم للأضحية في المعبد كانت تساق عبر هذه البوابة، وذلك بسبب وجود بركة الضأن بها، وكانت تدعى أيضاً بوابة الوادي، لكون الطريق الذي يمرعبرها يؤدي إلى وادي جوسفات، ويقع قبر السيدة مريم العذراء على مسافة قريبة منها، وكانت تسمى بوابة عين التنين لأنه يوجد خارجها نبع يدعى (تنين)، ويقود هذا الطريق إلى جبل الزيتون، وبيثاني (العيزرية) ومن ثم إلى نهر الأردن[٣].

أما البوابة الذهبية[٤] "بوابة الرحمة أو بوابة التوبة" فتقع جنوب بوابة الأسباط، وتوجد في ساحة المعبد فوق وادي قدرون، وهذه البوابة ليست بوابة للمدينة ولكنها بوابة للمعبد، وكان الطريق يمر خلالها عبر قنطرة من جبل الزيتون في الجانب البعيد من وادي جوسفات ومنها ينطلق طريق يقود إلى بيثاني (العيزرية) أريحا – الأردن[٥].

هذه البوابة كان لها مكانة عظيمة في المعتقدات المسيحية، فمن خلال هذه البوابة دخل السيد المسيح ﷺ قبل عملية الصلب – كما يعتقد المسيحيون – وأثناء الفترة الصليبية، كانت

---

1) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٦؛ إبراهيم الجندي، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبين، ص١٣٤.

2) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٦.

3) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٦-١٤٧؛ إبراهيم الجندي، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبين، ص١٣٤.

4) تسمى البوابة الذهبية حيث قابل يواكيم والد مريم العذراء زوجته حنة، وتنفيذاً لأمر الملاك ومن خلال نفس البوابة دخل السيد المسيح ﷺ المدينة راكباً على حمار قادماً من العيزرية (بيثاني) انظر: سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٣١؛
Saewulf, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، London 1988, P.105.

5) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٧.

تستخدم في مواكب أحد السعف[١] وفي أعياد رفع الصليب[٢] وأنه ليبدو من الأوصاف المختلفة أن البوابة الذهبية كانت تتكون فترة العصور الوسطى من بابين خشبيين في مدخلها الداخلي والخارجي، ومغطاة مثل بوابات المدينة الأخرى بصفائح معدنية قد بقيت حتى عام ١٥٤١م، عندما تم إغلاق البوابات بالحجارة[٣].

بوابة المغاربة تقع في وادي قدرون، في جنوب البوابة الذهبية بين جبل صهيون وجبل المعبد، وكانت تدعى بوابة عين سلوان، أو بوابة الماء لكونها تقود إلى الينبوع وبركة الاستحمام في سلوان ووادي النار، وادي جهنم، وحقل الدم وحديقة الملك[٤].

اهتم الصليبيون بالمقدسات المسيحية وخصوصاً كنيسة القيامة (الضريح المقدس) التي كانت تقع وسط مدينة بيت المقدس، وهي أهم مركز روحي للمسيحية، لما لها من مكانة عظيمة، فهي مركز تدفق أكبر عدد من الحجاج والرحالة المسيحيين عليها، لدرجة أنهم كانوا يدخلونها عدة مرات طوال فترة إقامتهم في بيت المقدس، وجدير بالذكر أن هذه الكنيسة شهدت طوال تاريخها كثيراً من أوجه التغيير، وذلك منذ أن أكمل الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير Constantine the Great كنيسته الكبرى حوالي عام ٣٣٥م[٥]، وفي عام ٦١٤م هدم الفرس الكنيسة وأحرقوها، وأحرقوا معها جميع الكنائس والأديرة التي كانت في الأرض المقدسة يومئذ، فأعاد بناؤها رئيس الدير موديستو عام ١٥هـ/ ٦٣٦م،

---

1) أحد الشعانين (أحد السعف) السابع من الصوم الكبير والأخير قبل عيد الفصح أو القيامة ويسمى الأشجار والنخيل، وترمز أغصان النخيل أو السعف إلى النصر أي أنهم استقبلوا يسوع.

2) Anoymous Pilgrim، in Palestine Pilgrims text Socity، Vol. II، P.9;
أرنول، وصف الأرض المقدسة، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، الجزء السابع والثلاثون، ط. دمشق ١٩٩٩م، ص٩٧؛
Guide in Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem، in *Jerusalem Pilgrimage 1099-1185*، P.172.

3) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٣٣-١٣٤.

4) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٤٧؛ إبراهيم الجندي، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبين، ص١٣٥.

5) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٩٦؛ سماح عبد المنعم السلاوى، الأوضاع الحضارية في مصر واالشام في العصر المملوكى من خلال كتابات الرحالة الأوروبين، ص ٢١٢-٢١٣.

ولكن بشكل مصغر[١]، ولما فتح الخليفة عمر بن الخطاب القدس عام ١٦هـ/٦٣٧م، أعطى للبطريرك صفرونيوس عهد أمان له وللمسيحيين، ولكنائسهم يسمى "العهدة العمرية"[٢].

ولقد تعرضت الكنيسة في عام ١٠٠٩م/٤٠٠هـ للتدمير بأمر من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢٠م/٣٨٦-٤١٠هـ) ووفقاً لمعاهدة صلح بين الإمبراطور البيزنطي والخلافة الفاطمية أعاد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine Monomachas في عام ١٠٤٨م/٤٣٩هـ بناء الكنيسة[٣] وقد ورد وصف لها بعد ذلك بحوالي عشر سنوات على لسان الرحالة المسلم ناصر خسرو إذ قال بأنها: "فسيحة تسع ثمانية ألف رجل، وهي عظيمة الزخرف في الرخام الملون والنقوش والصور، وهي مزدانة (مفروشة) من الداخل بالديباج الرومي واللوح وزينت بطلاء الذهب... وليس لهذه الكنيسة نظير في أى جهة من العالم، ويقيم بها كثير من القسس والرهبان"[٤] هذا الوصف يؤكد أن الكنيسة كان لها رجالها القائمون على خدمتها، تمثلوا في أفراد السلك الكهنوتي البيزنطي الأرثوذكسي الذين أتيح لهم الإشراف عليها، بالإضافة إلى مجموعة الرهبان المقيمين في دير ملحق أو قريب من الكنيسة اعتادوا التردد عليها لخدمتها[٥].

---

1) Boase، (T.S.R.)، Ecclesiastical Art in the Crusader State in Palestine and Syria, A. Architecture and Sculpture، B. Mosaic, Painting and Minor Arts, in Setton، Vol. IV، U.S.A. 1977، P.75.

2) كتب الخليفة عمر بن الخطاب وثيقة الأمان التالية وهي التي عرفت فيما بعد بالعهدة العمرية
"بسم الله الرحمن الرحيم": هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل أيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بأيلياء أحد من اليهود، وعلى أهل أيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن.
الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ط. القاهرة ١٩٦٢م، ص٦٠٩؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد، القسم الأول، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٢٣٢-٢٣٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٩٢م، ص١٦٤.

3) Brehier،(L)، L'Eglise et L'Orient Au Moyen – Age، Les Croisades, Paris 1921، PP.35-37.

4) ناصر خسرو، سفرنامه، تحقيق يحيي الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م، ص٣٦-٣٧.

5) على أحمد محمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين

وما لبث أن توفي بطريرك بيت المقدس الأرثوذكسي سمعان Simeon في قبرص فتولى أرنول دي شوكس Arnoal de Choqus بدلاً منه عام ١٠٩٩م فكان ذلك إيذاناً ببدء مرحلة تغلب فيها النفوذ الكاثوليكي على الكنيسة الشرقية في القدس بعد الغزو الصليبي لها[١]، ومن ناحية أخرى قرر جودفري دي بوايون Godfrey de Buillon أول حاكم صليبي (١٠٩٩-١١٠٠م) عمل تجديدات في كنيسة القيامة، وفي ذلك يذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre أنه بعد بضعة أيام من اختيار جودفري بوصفه أول حاكم في بيت المقدس أقام رجالاً من الكهنوت بكنيسة القبر المقدس وأغدق عليهم من فيض جوده وأقر لهم الرواتب الكنسية ووفر لهم المساكن الملائمة وأقر القواعد الكنسية المعروفة في الغرب، وأقطعهم أراضي شاسعة[٢].

لقد بذل الصليبيون جهوداً في تطوير وتجديد المباني الخاصة بكنيسة القيامة، فقد ورد في رحلة الرحالة سايولف وصفاً لعناصر ثلاث أساسية يتكون منها مجمع الكنيسة إضافة إلى تفاصيل أخرى مثل الجدران القوية التي بالكنيسة، والسجن الذي أودع فيه السيد المسيح (عليه السلام) بعد الغدر به، ومواقع جلده وتعذيبه. كما تضمن الوصف الأماكن المقدسة الأخرى الملحقة بالكنيسة مثل جبل الجمجمة الذي شهد تضحية كل من السيد المسيح (عليه السلام) وإبراهيم (عليه السلام) بابنه إسحاق (عليه السلام)[٣] وفقاً للمعتقدات المسيحية، وفي أسفل الجبل يوجد المكان المسمى جلجثة ثم بعد الوصف أسماء لعدة كنائس ملحقة بنيت ونظمت حتى أن أي شخص يقف عند أبعد كنيسة يستطيع أن يرى بوضوح جميع الكنائس الأخرى التي تحمل أسماء الثالوث المقدس يوحنا المعمدان والقديس يعقوب St. Jacup الحواري[٤]، وهذه الأوصاف ترجع

لها (١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٢هـ)، الإنسانيات، العدد (١)، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٨م، ص٣٣٤.

1) Brehier،(L.), L'Eglise et L'Orient، PP.82-83.

2) William of Tyre، Vol. I، PP.291-293;
منح جودفري كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية داخل حدود بيت المقدس برغم أن الكيان الصليبي لم يكن قد ثبت قدمه بعد عن ذلك انظر: سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ)، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م، ص١٦٣-١٦٧.

3) المعتقد الإسلامي أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام) وليس إسحاق (عليه السلام).

4) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٢٦-٢٩؛

بأن المبنى القسطنطيني الذي وجده الصليبيون لا يختلف كثيراً عن الأبنية القديمة كما أنهم تعرفوا على جميع المقدسات المتعلقة بكنيسة القيامة مما يشير إلى اهتمامهم بإبراز هذه الأماكن للزوار رغم انشغالهم الكبير بالأعمال الحربية في السنوات الأولى للغزو(١).

لقد تدخل الصليبيون في إضافة مدخلات معمارية على أبنية كنيسة القيامة فقد وصف الراهب دانيال الروسي الكنيسة بأنها كانت مستديرة وتحتوي على اثنى عشر حجراً ضخماً على شكل عمود، وستة من الأعمدة مكسوة بألواح من الرخام فائق الجمال، والأروقة وستة عشر عموداً وتحت السقف وفي أعلى الأروقة تم رسم صور للحواريين بالفسيفساء وكأنهم على قيد الحياة، بينما تم تصوير المسيح في عدة أشكال حول المذبح بالفسيفساء كذلك، كما أن قبة الكنيسة لم يتم غلقها في أعلاها، ويذكر الرحالة أيضاً أن الصليبيين أقاموا أعمدة تنتهي ببرج مرتفع من عروق خشبية تعلوه أطباق فضية للزينة عمداً وأنهم يقيموا البرج فوق الكهف المقدس بحيث تحتضنه الأعمدة ويرتفع من خلال الفتحة العلوية الموجودة في سقف الكنيسة، وفي أعالي البرج نصب الصليبيون تمثالاً للسيد المسيح ﷺ من الفضة غلب عليه ملامح الفن الرومانسيكي الغربي(٢)، وفي وقت زيارة الرحالة الصليبي ثيودريك للقدس، استبدلوا التمثال الفضي بصليب من الذهب(٣).

كذلك يشير وصف الرحالة دانيال إلى أن البطريرك ورجاله كانوا يقيمون في منازل في الطابق العلوي فوق البهو الواقع جهة الشمال(٤)، وتطور البناء بحيث يوصف بأنه كبير يمتد من الشمال حتى غرب البرج وقد رفع اسم البطريرك اللاتيني أرنولف أوف شوكس Arnalf of Chacques ١١١٢-١١١٨م/٥٠٦-٥١٢هـ من على نقش فوق لوحة إرشادية سجلت بتاريخ يرجع إلى عام ١١١٤م/٥٠٨هـ(٥)، ومن ثم تعد المنازل من

Saewulf، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.102-103.

1) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٣٣٧.

2) دانيال الروسي، وصف الأرض المقدسة، ص٤٩-٥١؛

Daniel the Abbot، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.127-128.

3) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة، ص٦٣؛

Theoderic، in Jerusalem pilgrimage 1099-1185، P.279.

4) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٥١.

5) Boase، T.S.R، Ecclesastical Art in the Crusader، P.79;

الإضافات الأساسية التي أدخلها الصليبيون في هذا العام تقريباً، كما يشهد اسم البطريرك على قيامه بإتمام جانب من الأعمال الإنشائية بكنيسة القيامة.

حث البطريرك جبلين Gebllien في عام ١١١٢م الملك بلدوين الأول Baldwin I (١١٠٠-١١١٨م/٤٩٣-٥١٢هـ) أن يأخذ على عاتقه عملية الإصلاح الكنسي وقد لبى الملك مطالبه وتم بالفعل تطبيق تلك الإصلاحات عام ١١١٤م/٥٠٨هـ وذلك بأن فرض على رجال السلك الكهنوتي الحياة في تنظيم جماعي مشترك، وهو النظام الذي يقوم على التعاليم الأوغسطينية نسبة إلى أوغسطين أف هيبو Augustine of Hippo، وهو نظام جماعة الرهبان القائم على التعاليم الأوغسطينية في الرهبنة المعروف في الغرب منذ أواسط القرن الرابع الميلادي، وكان عددهم عشرين(١)، كذلك أشار الرحالة الصليبي فتيلوس Fetellus (١١١٨-١١٣٠م)، الذي زار القدس في عهد الملك بلدوين الثاني إلى أنه قد تم إمداد جماعة القساوسة الرئيسيين بمجموعة منشدين (جوقة من المرتلين) Choir كما بدأ في إقامة احتفالات سنوية بمناسبة الاستيلاء على المدينة(٢)، وذلك في إطار عملية إعادة هيكلة وبناء كنيسة الضريح المقدس، وهذه الإشارات تعني أن عام ١١١٤م شهد لأول مرة بناء الدير الملحق بالكنيسة الذي حدد موقعه جهة الشرق وكان الدير للبندكتيين أكثر من أهمية، فمن ناحية لعب دوراً روحانياً بأن سكنه أولئك الرهبان الذين كانوا في ذات الوقت عمال بناء حتى يكونوا على مقربة من مقر عملهم للقيام بأعمال التجديدات داخل الكنيسة، ومن ناحية أخرى قام الدير بتدريب عدد كاف من الرهبان ليكونوا منشدين في الكنيسة(٣).

وفيما يختص بمعمار الدير فما فعله الصليبيون يعد شيئاً جديداً بالملاحظة حقاً، ذلك أن كنيسة الضريح المقدس كان ذروة ما تم التوصل إليه في كنيسة للحج المسيحي، ولقد اختار

علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٣٣٨.

1) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٣٣٨.

2) فتيلوس، وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)، ص٣٤٥؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٥٠؛ أدريان بوس، مدينة المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٩٩؛ نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، ضمن القدس عبر عصور التاريخ، حصاد ١٨، اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ٢٠١٠م، ص١٤٨.

3) علي أحمد محمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٣٣٨-٣٤٠.

الصليبيين أن ينوها على طراز كنائس مزارات الحج الرومانسكية والتي تم بناؤها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي على طول الطريق من فرنسا إلى كنيسة القديس يعقوب في كومبستلا في شمال شرق أسبانيا حيث اشتركت كل من كاتدرائية تورز، وليموج، وتولوز وكاتدرائية القديس يعقوب نفسها في ملامح خاصة جعلتها مختلفة تماما عن الكاتدرائيات الرومانسكية الأخرى، وهى الأجنحة الواسعة المفصولة بصف من الأعمدة عن الصحن والأجنحة المتساوية أو ربما قريبة التساوي مع الأجنحة الجانبية، والممشى المسقوف والكنائس ذات القطر المتساوي وذات أنصاف الدوائر، والكنائس الإضافية على الحوائط الشرقية لجناح الكنيسة، ولقد كان التصميم نموذجاً ومناسباً لموقع مهم من مواقع استقبال الحجاج وهو كنيسة الضريح المقدس، مما سمح لإعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين بالحركة في أنحاء الكنيسة دون إزعاج الرهبان وبخاصة عند قيامهم بالتراتيل في المكان المخصص لجوقة التراتيل، ووفر لهم العديد من المداخل الموصلة إلى الكنائس المختلفة في جناح الكنيسة والممشى المسقوف بدرجة تسمح بأداء عدة صلوات في وقت واحد(1)، لذا كانت تبدو عليها الطراز الغربي أكثر من أبنية كنيسة القيامة ذاتها.

وفي المرحلة التالية شهد معمار كنيسة القيامة تطورات تاريخية مهمة، إذ تم دمج الأماكن المقدسة الثلاثة: الضريح المقدس، موضع الصلب، كنيسة القديسة هيلينا في مبنى واحد بحيث أزيلت أبنية الفناء، واستبدل بهذه الأبنية كنيسة من الطراز الرومانسيكي، وقد روعى أن يكون البناء متناسقاً مع نمط المبنى الدائري حول الضريح الذي يعلوه البرج(2). والذي شهد هو أيضا تطورات معمارية مهمة عبر عنها الإدريسي بقوله: "وعليها (أي المقبرة المقدسة) قبة معقودة، قد اتقن بنائها وحسن تشييدها، وأبدع تنميقها"(3) وتظم المبنى الجديد على أساس أن يضم مكاناً لمجموعة المنشدين الرئيسية، وجناحين مفصولين عن صحن الكنيسة بصف أعمدة وشملت الكنيسة أيضاً سرداب القديس هيلينا موضع اكتشاف صليب الصلبوت كما تم إعادة بناء كنيسة صغيرة خاصة بموضع الصلب الذي كان يضم عموداً من الرخام، وذلك في الطرف الشرقي من الجناح للكنيسة الجديدة أما المبنى الدائري القديم فوق

(1) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص١٩٨-١٩٩.
(2) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٢٤٠.
(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٢٥-١٢٦.

الضريح فقد تم الحفاظ عليه مع قليل من التعديل بحيث يكون عرش البطريك خلف المذبح العالي الجديد مواجهاً مباشرةً للبرج الذي فوق الضريح"(1)، ونظراً لما شهدته الكنيسة من نمو وتطور في هذه المرحلة قد غدت جديرة بأن تذكر بالكاتدرائية.

وفضلاً عن التطورات المهمة التي أدخلها الصليبيون على مباني الكاتدرائية فتعددت واجهتها الجنوبية ذات الشهرة العريضة من أفضل القطع المعمارية التي خلفها الصليبيون في الأراضي المقدسة، وكانوا قد استندوا في إقامتها على ذات الواجهة التي ترجع إلى عصر الإمبراطور قسطنطين موناماخوس وتضم الواجهة بوابتين رئيستين تؤديان إلى الداخل إضافة إلى العديد من النوافذ التي تشبه الشرفات العالية وبعد الفراغ من استكمال الأعمال الإنشائية في الواجهة، اهتم الصليبيون بإقامة برج للأجراس ضم خمسة منها يسار الواجهة(2)، وقد أشار الجغرافي المسلم الإدريسي إلى برج الأجراس عند وصفه للكاتدرائية، وحدد موقعه بدقه إلى جوار المدخل(3).

اهتم الصليبيون أيضاً بتزيين جنبات وعقود الكاتدرائية باستخدام مكثف للصور الجصية والفسيفساء ، ومن ذلك أن عقد الكنيسة الصغرى المقامة فوق موضع الصلب تم تغطيته بالفسيفساء التي تصور الحواريين حاملين صحفاً عليها عبارات ونصائح من الكتاب المقدس تعبر عن آلام السيد المسيح ﷺ منذ ليلة العشاء الأخير وما بعدها(4)، ومما يذكر أيضاً أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس Manwil Comines I (١١٤٣-١١٨٠م/٥٣٨-٥٧٥هـ) شارك في جهود تزين الكاتدرائية حينما قدم الموزايك الذهبي لزخرفة داخل الضريح المقدس(5).

أما الموقع المقدس الثاني في الكنيسة فهو كنيسة الصعود ذلك أن شهرة جبل الصعود كانت قد ازدادت في العصور الوسطى فقد جاء ذلك في قول الرحالة سايولف: "بعد ذلك

1) William of Tyre، Vol. I، PP.339-342; نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، ص١٤٨
2) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٢٤١.
3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٢٦؛ Muhammad al Idrisi، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.224.
4) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٦٥-٦٦.
5) John Phocas، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.324.

صعدنا جبل الصعود، حيث قام البطريرك إبراهام بوضع المذبح، وحاول التضحية بابنه وفقاً لأوامر الإله، هناك فإن ابن الرب أعاد تصوير نفس المشهد، عندما ضحى بنفسه لإرضاء الأب من أجل خلاص العالم"[1].

وعلى العكس من القبر المقدس، فإن كنيسة الصعود قد قدر لها البقاء سليمة باستثناء الموزايكو الذي بقيت منه بعض البقايا إلا أنها على مستوى فني رفيع، وهناك بعض الإضافات القديمة والحديثة التي أجريت على هذا المبنى والتي قد أخفت تماماً النقوش التي وجدت على الجهة الشرقية من الواجهة منذ عام ١١٤٩م. فالمدخل الرئيسي لكنيسة الصعود من عند فناء الكنيسة وحتى الدرج الخارجي، والكنيسة الصليبية على الجانب الشرقي من الواجهة قد تم إغلاقها، ربما على يد صلاح الدين. كما يوجد درجان حديثان يسمحان بازدواجية حركة المرور في هذا الموقع المهم، حيث تمت إضافتها إلى الجهة الغربية من الكنيسة[2].

كما قام الصليبيون ببناء كنيسة ذات طابقين يضم كل من الجلجثة والصعود في كنيسة واحدة، هذه الكنيسة تشغل النصف الشرقي من المنطقة الجنوبية من جناح كنيسة الصعود، وتتكون من أربعة سراديب رئيسية ذات عقود، ومن أسفل كنيسة الصعود، في كنيسة آدم فإن الصخرة المنكسرة للجلجثة يمكن رؤيتها، وأي حاج مسيحي يدخل الكنيسة بوسعه أن ينتقل من كنيسة إلى أخرى في سهولة ويسر، حيث ينهي رحلة حجه عند الضريح المقدس، وعند الجلجثة فإنه يترك الصليب الذي يحمله طوال رحلته، كدليل على إنهاء واستكمال رحلة حجه، ويذكر ثيودريك أنه رأى على الجلجثة مقادير كبيرة من الصلبان التي أحضرها الحجاج المسيحيون معهم والتي سيقوم حراس كنيسة الصعود بإحراقها في عيد القيامة[3].

وعلى طول الممشى المسقوف بين الكنيستين الشرقية والغربية، هناك درج آخر يؤدي إلى أسفل حيث الكهف الذي تم العثور فيه على الصليب المقدس بل وتبعاً لبعض الروايات فقد عثر فيه على التاج الشوكي والشاكوش والمسامير التي تم استخدامها في عملية الصلب، ويقال أن الذي عثر عليها أم قسطنطين (هيلينا)، وهنا يوجه الجزء النصف دائري الجنوبي

---

1) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٢٦.

2) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٠٢.

3) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٧٥.

الثالث وإن كان تخطيطه مختلفاً بعض الشيء، وأبعد إلى جهة الشرق قليلاً من الجزءين السابقين في المستوى العلوي، وفي عام ١١٨٧م عندما استرد صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس فإنه تجاهل تماماً رغبة بعض الأمراء في هدم الكنيسة، وذلك لأنه كان مدركاً مدى قداسة المكان وليس المبنى المقام عليه، وذلك الذي كان يجذب المسيحيين كنوع من التوقير له، كما أنه أحل رجال الدين الروم محل رجال الدين اللاتين[1].

وننتقل إلى جبل صهيون وكنيسة جبل صهيون الكبرى[2] بما تضمه من كنائس صغرى أقيمت منذ العصر البيزنطي تخليداً لذكرى واقعة العشاء الأخير ووفاة السيدة مريم العذراء، وكذلك فهناك كان منزل الحواري يوحنا المبشر صاحب الإنجيل الرابع وحيث موضع هبوط الروح القدس على الحواريين في يوم عيد العنصرة Pente Cost[3].

وقد أشار الإدريسي إلى وقوع كنيسة خارج المدينة وبالقرب من بوابة صهيون جهة الجنوب بمسافة قصيرة[4]، أولى الصليبيون كنيسة جبل صهيون اهتماماً كبيراً فقد أشار الراهب دانيال الروسي إلى أن الصليبيين قاموا أولاً بإصلاح الكنيسة التي يرجع بناؤها إلى العصر البيزنطي ومدوا لها سقفاً من الخشب[5].

لقد جاء ذكر كنيسة جبل صهيون وكنيسة العشاء الرباني الأخير عند المؤرخ فيتلوس حوالي عام ١١٣٠م في وصفه للموقع حيث يقول: "جهة الشرق، يوجد المكان حيث ظهر المسيح ﵇ بعد ثمانية أيام من قيامه، وحيث كانت الأبواب مغلقة، فظهر لتلاميذه، وحيث كان توماس أيضاً حاضراً قائلاً لهم: السلام عليكم، وأظهر لهم يديه وجنبه، وطلب منهم أن

---

1) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٠٢-٢٠٣.

2) بلغت مساحتها ٧٢متراً × ٦٣متراً بحيث كانت ثاني أكبر كنيسة في بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي. أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٠٧؛ سماح عبد المنعم السلاوى،الأوضاع الحضارية في مصر واالشام في العصر المملوكى، ص٢١٧.

3) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧١-٧٢.

عيد العنصرة، عيد مسيحي يحتفل به بعد عيد الفصح بخمسين يوماً. ويقصد به حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعود يسوع بعشرة أيام بحسب رواية سفر أعمال الرسل.

4) قال عنها الإدريسي: "هي كنيسة جليلة حصينة وفيها العليا (إناء الطعام) التي أكل فيها السيد المسيح ﵇ مع تلاميذه وفيها المائدة باقية إلى الآن وبها ميعاد في يوم الخميس". الإدريسي: نزهة المشتاق، ص١٢٦.

5) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧١.

يلمسوها، ويذكر الحواريون ذلك، كما ظهر في أعلى هذا المكان" وحيث يمكنك الصعود فوق عدة سلالم إلى المكان الذي تناول فيه مع تلاميذه العشاء الأخير(١).

وقد وصف ثيودريك أن الكنيسة لها قبة، ولها حوالي ثلاثون درجة سلم في نهاية الجزء نصف الدائري يؤدي إلى غرفة العشاء الأخير، حيث يمكن رؤية مائدة العشاء الأخير وفي الحجرة السفلية منها هناك وعاء حجري حيث غسل السيد المسيح عليه السلام أقدام تلاميذه الحواريين، وإلى اليمين يوجد مذبح يدل على المكان الذي لمس فيه توماس جراح جنب المسيح، وفي حجرة داخلية أخرى هناك مذبح أقيم فوق قبر القديس ستيفان(٢)، ولقد ناداها فوكاس باسمها التقليدي أم الكنائس، ولاحظ أنها كانت ذات حجم كبير ولها سقف معقود(٣). وإذا ما انتقلنا للتعرف على مجموعة المقدسات الواقعة على جبل الزيتون(٤) فنجد أهمها كنيسة سيدتنا مريم Notre Dame الواقعة عند سفح الجبل، مشرفة على وادي قدرون أو جوزيفات جنوب شرقي كنيسة القيامة فهذه الكنيسة والدير الملحق بها كانا رمزاً لما جرى من أحداث مهمة وبخاصة ما يتعلق منها بالعشاء الرباني الأخير، وفي هذا المكان ظهر السيد المسيح عليه السلام لتلاميذه بعد عملية الصلب(٥)، وكان البيزنطيون قد أقاموا كنيسة

---

1) فيتلوس، وصف الأرض المقدسة ١١٣٠م، ص٣٤٦ ؛نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربيين ص١٥٢.

2) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٥-٩٦.

3) يوحنا فوقاس، رحلة حج يوأنس فوقاس في الأرض المقدسة في عام ١١٨٥م، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، الجزء الرابع والثلاثون، ط. دمشق ١٩٩٨م، ص٣٨٨.

4) يقع جبل الزيتون بالقرب من بيت المقدس وإلى الشرق منها ويفصله عن المدينة، وادي يهوشافاظ، الذي يعرف أيضاً بـ"وادي القديسة مريم"، "وادي جهنم"، "وادي سلوان"، و"وادي النار"، و"وادي قدرون"، "وادي الدموع"، ويسمى جبل الزيتون بهذا الاسم بكثرة أشجار الزيتون المزروعة عليه، وهو مكان جميل جداً، وأطلق عليه الفرنجة الصليبيون اسم جبل الأنوار، ويدعى أيضاً بجبل الطور، وذكره المؤرخون العرب باسم "طورزيتا"، ويوجد على الجبل أشجار الزيتون والتين والعنب، كما يزرع على سفح الجبل القمح الجيد، ويقال أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلى على هذا الجبل، وأن عيسى عليه السلام صعد منه إلى السماء، انظر: دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٦١ هامش (٣)؛ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٨، ق٢، ص١٥-١٧؛ لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمد عمايري، ط. عمان ١٩٧٠م، ص٨٤-٨٧؛ سعيد البيشاوي، الممتلكات الكنيسية، ص١١٨ هامش (٣).

5) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٠٦.

بازيليكية وصفها الحاج المسيحي برنارد الحكيم حوالي عام ٨٧٠م بأنها غير مسقوفة(١).

ويبدو أن الصليبيين أضافوا أسقفاً عليهم إذ وصفها دانيال الروسي بأنها ذات أسقف خشبية فوق المكان الذي اعتقدوا أن السيدة مريم دفنت فيه ثم رفعت منه إلى السماء وفيه يوجد كهف بارتفاع قامة الرجل أقيم من فوقه ضريح، وكعادة الرحالة الصليبيون الصق دانيال تهمة هدم الكنيسة إلى المسلمين(٢)، وحينما غزو الصليبيون القدس وجدوا الضريح خاوياً، وما لبث أن أسندت خدمته إلى مجموعة من الرهبان البندكتيين من دير كلوني الذين أسسوا مبنى أحسنوا تشييده على الطراز المألوف لدى الأوروبيين الغربيين(٣).

علاوة على ذلك لقيت الكنيسة والدير الذي تأسس بوجود الرهبان رعاية شخصية من ملوك بيت المقدس الصليبيين أنفسهم، إذ دفنت به اثنتان من البيت الملكي وهما: مورفيا Morphia زوجة بلدوين الثاني وابنته الملكة ميلسندا Melisende التي دفنت في قبر حجري أسفل الكنيسة ذي أبواب حديدية وإلى جواره مذبح كان يقام فيه القداس اليومي(٤).

من الملامح المعمارية الصليبية التي ظهرت في هذا العصر في كنيسة سيدتنا مريم تلك القبة المتقنة البناء التي أقامها الرهبان فوق الضريح ملتزمتين بالأسلوب المعماري الذي شيد به البرج الذي يعلو ضريح السيد المسيح في كنيسة القيامة(٥)، كذلك اهتم الرهبان بتزيين جدران السرداب الحجري المؤدي إلى الكهف بلوحات جصية، كما اهتموا بتشييد مدخل

---

1) Bernard the Monk، A Journy to the Holy Places and Babylon, ed. John Wilkinson (J.)، Jerusalem Pilgrims before the Crusades، London 1977. P.9.

2) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٥٩.

3) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٢٩؛ Hamilton (B.)، Rebuilding Zion، The Holy Places of Jerusalem in the twelfth century، studies of the Church History، Vol. XIV، London 1977، P.108؛ علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٢٤٥.

4) Kohler, Ch.، Chartes de L' Abbaye de Notre Dame de la Vallée de Josaphat en Terre-Sainte (1185-1291)، Analyses et extraits, Révue de L' Orient Latin، Vol. VII، Paris 1899، no. 18، P.128, William of Tyre، Vol. II، P.291; سماح عبد المنعم السلاوى، الأوضاع الحضارية في مصر واالشام في العصر المملوكى، ص٢١٦.

5) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٨٨؛ علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٤٦.

مهيب اتخذ الطراز الرومانسيكي يؤدي إلى سلم متواصل من أربعين درجة عالية تؤدي إلى الضريح[1].

لقد كانت كنيسة القديسة مريم مثل معظم الكنائس الصليبية، كنيسة مثلثة الأضلاع حيث لاحظ ثيودريك أن الكنيسة كانت "جيدة التحصين ذات أسوار، وأبراج، وذات شرفات لإطلاق النيران على هجوم الأعداء"[2]، ويقول الإدريسي أنها كنيسة جميلة قوية التحصين[3].

ويذكر الرحالة فوكاس أيضاً التحصينات مؤكداً أن الكنيسة كانت داخل قلعة، وأن دفاعاتها كانت مهمة بسبب موقعها خارج أسوار المدينة هذا النوع من الكنائس المحصنة يمكن رؤيته حالياً في كنيسة صموئيل. ولقد أضاف فوكاس بعض التفاصيل الأخرى عندما قال: "عندما يدخل الإنسان البوابات الجميلة، يجد على يساره منزل القديس يوحنا الإنجيلي، حيث كان تسكن العذراء المبجلة، وأيضا بعد موتها في ذلك المكان توجد صومعة صغيرة محاطة بسياج حديدي، وحيث توجد كتلتان حجريتان في الموقع الذي أسلمت فيه العذراء روحها، وفي الجهة اليمنى من الكنيسة، وإلى الجهة اليمنى من المذبح، هناك غرفة علوية، لها سلم مكون من ستين درجة يؤدي إليها. هذه الكنيسة لها أربعة أقواس وقبة، وفي الجانب الأيسر من الغرفة العلوية ربما يمكن رؤية المكان الذي شهد العشاء الرباني الأخير، وفي الجزء الثاني من الكنيسة نزل الروح القدس على الحواريين، وفي الجزء السفلي من هذه الكنيسة حدث غسل أرجل الحواريين، وفي مواجهة هذا المكان توجد كنيسة في الموقع الذي دخل منه السيد المسيح ﷺ على الحواريين، على الرغم من أن الأبواب كانت مغلقة، وهناك يرقد القديس ستيفان بعد قذفه بالحجارة وقد استشهد ثم نقله إلى مكان آخر[4].

ونجد كنيسة أخرى تعد من أقدس الأماكن ضمن مجموعة الكنائس الواقعة على جبل الزيتون وهي كنيسة الجسمانية Gethsemane[5] وموقعها يحمل ذكرى تردد السيد المسيح

---

1) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٦.

2) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٨.

3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٢٨.

4) يوحنا فوقاس، رحلة حج فوقاس في الأرض المقدسة، ص٣٨٩.

5) الجسمانية: تقع بين النفطتين التي منها يرى المشاهد في بيت المقدس، انقلاب الشمس الصيفي أو الشتائي،

ﷺ على المكان للتعبد هو وتلاميذه[1]، وقد قضى السيد المسيح ﷺ فيها أيامه الأخيرة قبل أن يقبض عليه، ويرجع الفضل في تشييد هذه الكنيسة إلى البيزنطيين الذين أقاموها في القرن الرابع الميلادي، ولكنها دمرت عام ٦١٤م على يد الفرس، وعندما استولى الصليبيون على القدس تولى الرهبان الإشراف على الموقع وسرعان ما بنوا فيه كنيسة صغيرة فوق الكهف الذي اعتقدوا أن الحواريين استغرقوا في النوم فيه، ولكنها كانت بسيطة البناء، وبذلك يلاحظ أن الصليبيين كانوا شديدي الحرص على تميز غزوهم سريعاً بقدر ما لديهم من إمكانيات[2].

وقد أشار الإدريسي أن الرهبان توسعوا في أعمال البناء، واستبدلوا الكنيسة الصغيرة بأخرى أكبر منها وذلك بعد مرور حوالي خمسين عاماً من الغزو الصليبي[3]، ويفهم من الرحالة الألماني يوحنا فورزبورغ أن أعمال البناء استغرقت بضعة سنوات فقد أشار إلى قيام كنيسة جديدة دعيت باسم كنيسة المنقذ[4].

أي رؤية شروق الشمس في الصيف والشتاء، أو بين الشمال الشرقي أو الجنوب الشرقي والجسمانية تحريف "جتسماني Gethsemane" المؤلفة من كلمتين: "جت" ومعناها معصرة و"سماني" ومعناها "الزيت" فيكون المعنى "معصرة الزيت" وتقع الجسمانية في أسفل جبل الزيتون في وادي جهنم عند ملتقى الطريق بين بيت المقدس وسلوان، ويذكر أن السيد المسيح ﷺ كان يتردد على هذا المكان كثيراً طلباً للعزلة وترويح النفس، وقضى فيه أخر أيامه متعبداً، وفيه أيضا ألقى اليهود عليه بدلالة تلميذه الخائن يهوذا الاسخريوطي. وقد أقام الرومان في القرن الرابع الميلادي كنيسة في الموقع، ولكن هذه الكنيسة دمرت عام ٦١٤م على يد الفرس، وقام الصليبيون بتجديد البناء، ثم دمرت الكنيسة عام ١١٨٧م وظلت خراباً إلى أن أعيد بناؤها عام ١٩١٩م، انظر: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٨، ق٢، ص١٨-١٩؛ دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٥٨ هامش (٨).

1) على ضوء الإنجيل وقعت عدة أحداث في هذه المغارة: كان السيد المسيح ﷺ يذهب عادة مع تلاميذه إلى هذا المكان في وقت وجودهم في مدينة أورشليم (لوقا: ٢١-٣٧ ولوقا: ٢٢-٣٩).
إلى هذا المكان: جاء المسيح ﷺ وتلاميذه بعد العشاء الأخير في خميس العهد (مر: ١٤-٣٢ ويو: ١٨-٢).
في هذه المغارة: ترك المسيح ﷺ تلاميذه، وأخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا ليصلي حيث الأن توجد كنيسة النزاع (متى: ٢٦: ٢٦-٣٧).
بعد صلاة النزاع، عاد المسيح ﷺ إلى المغارة، حيث تم القبض عليه ليصلب (يوحنا: ١٢: ١٨).

2) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس الدينية، ص٢٤٧.

3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٢٨.

4) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٥٩.

ويبدو أن الصليبيين بذلوا جهداً كبيراً في معمار كنيسة الجسمانية حيث أنها وصفت في شكلها النهائي بأنها كاتدرائية ذات ثلاث أجنحة مفصولة عن بعضها بصف أعمدة بطول ثلاثة وعشرين متراً تقريباً كما أن الموزايك يغطي أرضها بحيث أصبحت تحمل جميع سمات الطراز الصليبي في البناء[1]، ولم يقتصر أعمال البناء على الكاتدرائية بل قام الرهبان بتأسيس منزل لضيافة الفقراء من الحجاج وذلك بجوار الكاتدرائية عند موقع كنيسة بيزنطية مهدمة كانت قد أقيمت في موقع رغم أنه موضع النزع الأخير[2].

تتوج قمة جبل الزيتون كنيستان يرجع أصلها إلى القرن الرابع الميلادي وهما كنيسة تعاليم المسيح عليه السلام Pater Noster والمعروفة باسم إليونة Eleona[3]، وكنيسة الصعود The Ascension، وقد دمرت كنيسة إليونة تماماً في عام ٦١٤م على يد الفرس، ولكن الصليبيين أقاموا كنيستين صغيرتين تحمل إحداهما مسمى الصلاة الربانية Noster Pater والأخرى بمسمى العقيدة Credo في نفس الموضع بكنيسة الصعود فأعادوا تجهيزها حيث أنها تحمل ذكرى عزيزة لديهم فقد شهد موقعها صعود السيد المسيح عليه السلام في الثامن عشر من مايو عام ٣٠م إلى السماء، تاركاً آثاراً لقدميه على الصخرة المقدسة[4].

أحاط الصليبيون هذه الصخرة بسور دائري مرتفع وغطوا الأرضية المحيطة بها بالرخام، وأقاموا بعض الحجرات المستندة إلى السور وسرعان ما اكتمل بناء الكنيسة غير أنهم جعلوا قبتها مفتوحة في الوسط مثل كنيسة الضريح المقدس رمزاً لإفساح طريق صعود السيد المسيح عليه السلام من الصخرة المقدسة إلى السماء، وقد أقاموا مذبحاً فوق الصخرة مكوناً

1) Boase، (T.S.R.), Ecclesastical Art Crusader، P.94;

علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٤٧.

2) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٤٨،

3) تعتبر كنيسة أبانا هي أول كنيسة شيدت على جبل الزيتون عام (٣٢٦-٣٣٣م) بأمر من القديسة هيلانة، والدة الإمبراطور قسطنطين، وقد سميت الكنيسة "إليونة Eleona" وهي كلمة يونانية معناها: أخدود الزيتون" أو "غابة الزيتون". أقيمت الكنيسة فوق المغارة التي كانت مقراً لصلاة السيد المسيح عليه السلام فوق جبل الزيتون، وفي هذه المغارة علم المسيح عليه السلام تلاميذه الصلاة الربية (المغارة مازالت موجودة حتى الآن). انظر: راهب من برية شيهيت، القدس، ط ٢، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٥٤.

4) Boase، (T.S.R), Ecclesastical Art Crusader، P.98;

نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، ص١٥٤-١٥٥.

من قطع الرخام، وقد بلغ تقديس المسيحيين له إلى حد تقبيله، كما تم تخصيص بابين للكنيسة وإقامة سلم من اثنتين وعشرين درجة يؤدي إلى مكان الصعود[1]، ويفهم من ذلك الوصف أن الصليبيين التزموا بتخطيط بناء الكنيسة البيزنطية البازيليكية القديمة بشكل عام وجددوها من الداخل أيضاً بإقامة السور الدائري حول الصخرة ملتزمين بشكل الكنيسة الصغرى التي أقيمت في القرن السابع الميلادي، ولما كانت الوثائق قد أشارت إلى وجود هيئة رجال الدين في عام (١١١٢م/٥٠٦هـ) فقد أشرفت على شئون الكنيسة ويعتقد أنهم تولوا أعمال البناء فيها[2].

وقد أشار الرحالة المسلم الإدريسي إلى المكان حينما قال: "وفي طريق الصعود إلى هذا الجبل (الزيتون) كنيسة أخرى حسنة معظمة وفيها رجال ونساء يبتغون بذلك أجر الله ﷺ[3]"، بالإضافة إلى ما قدمه الرحالة ثيودريك من بعض تفاصيل إضافية عن العمارة الصليبية داخل المبنى حيث قال: "فقد تم إعادة بناء ضريح فوق الصخرة، كما تم تزين الضريح بمزيد من الرخام الباروسي الأبيض المنسوب إلى جزيرة باروس اليونانية، وكذلك بالرخام الأزرق، وتتم الطقوس الدينية في الكنيسة بوساطة رجال الدين، والكنيسة محصنة بالأبراج سواء الكبيرة أو الصغيرة" بالإضافة إلى وضع حراسة ليلية عليها مما يدل على أهميتها وقدسيتها[4].

ومن الملاحظ أن الصليبيين استبدلوا الكنيسة البازليكية البيزنطية الدائرية بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ثمانية الشكل[5] بحيث اتخذت طابع التحصينات الصليبية كما يمكن ملاحظة وجود بعض الطراز الرومانسيكية في المبنى، ويرجع بقاء أبنيتها التي يغلب عليها الفنون الصليبية في وقتنا الحاضر إلى قيام العرب بترميمها بعد

1) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٦١؛ علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٣٩.

2) Delaville Le Roulx. J. (ed)، Cartulaire Génerale de L' Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jerusalem (1100-1310)، Vol. I, Paris 1899، No.25;

علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٥٠.

3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٢٨.

4) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١٠٣.

5) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢١١.

فتح صلاح الدين الإيوبي لها[1].

وتعتبر كنيسة القديسة حنة، من أهم الكنائس داخل أسوار مدينة بيت المقدس الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بركة الغنم إلى جوار بوابة يهوشافاط، وقد بنيت فوق المغارة التي ولدت فيها العذراء مريم، وكانت في أوائل القرن الرابع الميلادي تقريباً، ولكن هذه الكنيسة هدمت وأقيم في نفس مكانها كنيسة أخرى في القرن السادس الميلادي، والتي هدمها الفرس عام ٦١٤م، أعاد بناؤها الصليبيون في القرن الحادي عشر الميلادي وأضافوا إليها ديراً للراهبات[2]. ويرجع أصوله الأول إلى أيام بلدوين الأول الذي قرر أن يعزل زوجته أردا Arda في ذلك الدير عام ١١٠٤م، واستمرت شهرته في التزايد وبخاصة عندما تشرف الدير بحضور الأميرة إيفيت Yvette ابنة بلدوين الثاني وأخت الملكة ميلسندا وزادت عائداته، بزيادة الأوقاف المحبوسة عليه[3]، ولقد تم بناء كنيسة القديسة مريم فوق بقايا كنيسة بيزنطية مكرسة للقديسة حنة، أم السيدة مريم العذراء، حيث كانت تعيش مع زوجها يواقيم، والمكان نفسه يحمل ذكرى قيام المسيح ﷺ بشفاء مريض عانى من الشلل[4].

وتعد كنيسة القديسة حنة كنيسة صغيرة بنيت على الطراز الرومانسكي ثلاثية الأضلاع، وبخلاف جناح الكنيسة ذي الزخارف، والقبة الواقعة عند نقطة التقاء صحن الكنيسة وجناحيها، وهما من الملامح المهمة للكنائس الصليبية[5]، وفي عام ١١٩٢م قام صلاح الدين الأيوبي بتحويل الكنيسة إلى مدرسة وأطلق عليها (الصلاحية).

هناك كنيسة أخرى رئيسية، وهي قبر مريم العذراء[6]، والموجودة أسفل وادي

1) علي أحمد السيد، أهم التطورات في أبنية القدس، ص٢٥٠-٢٥١.
2) ثيودريك، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١٠٢.
3) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢١٢.
4) دانيال الروسي، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٥٦.
5) الواجهة الغربية للكنيسة لها باب رئيسي، مقبب، وبابا آخر إلى الجنوب، وفوق الباب الرئيسي شباكان آخران، والشباك العلوي منهما في نفس إتساع الباب هذا الملمح يعكس وعلى نطاق أصغر، المدخل المزدوج والشبابيك التي إلى الواجهة الجنوبية لكنيسة الضريح المقدس.
6) ترجع أصول هذه الكنيسة إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين ففي حوالي عام ٦٨٠م يصف الحاج المسيحي أركولف كنيستين مستديرتين إحداهما فوق الأخرى على أنهما يدلان على موضع رفع السيدة مريم العذراء إلى السماء بعد موتها، وقد تم تدميرها على يد الفرس عام ٦١٤م، ومن المحتمل أن

يهوشافاط أسفل جبل الزيتون في الجسمانية، كانت هذه الكنيسة ديراً لرهبان القديس بندكت، كما كانت من أغنى المنشآت الدينية في مملكة بيت المقدس الصليبية لما كان يتدفق عليها من هبات الملوك والبارونات، ومنذ عام ١١١٢م فصاعداً فإن الرهبان البندكتيين أعادوا بناء الكنيسة وبعض المباني الديرية ويبدو أنهم قاموا بتوسيع السلم، وأضافوا إليه بعض العقود الرومانسكية وواجهة للمدخل، ومن المحتمل أنه تم إعادة بناء الكنيسة العلوية على نمط البازيليكا، وتم تزيين غرفة القبر بصور من الفريسكو تمثل نوم العذراء وقد تم رفعها إلى السماء بعد موتها. كما تم تزيين الكنيسة الجديدة بنفس الرخام الفرنجي وكذلك الضريح[1].

ويصف لنا يوحنا أوف ورزبرج القبر بالتفصيل على أنه على شكل قبة مبنية من الذهب والفضة الموضوعة من الرخام ومزدانة بتصاوير رائعة بالفريسكو، وكذلك السرداب حيث يقول "دفن الجثمان في وسط السرداب بتوقير وتشريف مناسبين، وقد زين قبرها بغطاء رخامي رائع وزخارف فخمة بالوان مختلفة، وعلى الرغم من أن جسدها لم يكن طويلاً، إلا أن قبرها كان باهراً سواء بالنسبة للغطاء الرخامي أو بالنسبة للقبة التي تشبه بناءً من الذهب أو الفضة التي بواسطتها غطى القبر"[2].

أما ثيودريك فلم يكن وصفه أقل تفصيلاً للرخام والموزايكو الذي يزين الضريح من الغرب إلى الشمال، والمحاط بعشرين عموداً وكرة وفوقها الصليب، ولقد لاحظ أنه بين كل زوجين من الأعمدة حول القبة تم تعليق مصباح[3]، وفي عام ١١٦١م تم دفن الملكة ميلسندا في كنيسة صغيرة تقع إلى اليمين عندما ينزل الواحد الدرج إلى قبر السيدة العذراء مريم[4]، وقد ذكر ثيودريك: "إن الكنيسة نفسها وكل المباني المرتبطة بها قد تم تحصينها تحصيناً قوياً بأسوار عالية، وبأبراج قوية وشرفات لإطلاق النيران على الأعداء منها[5].

يكون الدمار قد لحق الكنيسة العليا، والتي تم إعادة بنائها على يد موديستوس حوالي عام ٦١٦م. أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢١٤.
1) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢١٤-٢١٥.
2) يوحنا فورزبورغ، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٨٧-٨٨.
3) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٧.
4) William of Tyre، Vol. II، P.291;
نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربين، ص١٥٦.
5) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٨.

ومن الأديرة التي احتلت مكانة كبيرة في بيت المقدس دير القديس سباس Monastry of St. Sabas[1]، وقد ذكر عنه الرحالة سايولف أنه بالغ الجمال والاتساع، وأن هناك أكثر من ثلاثمائة من الرهبان اليونانيين يعيشون ضمن جماعة ديرانية تخدم الرب والقديس[2]، أما الرحالة ايوفروزين Euphrosine فقد أرادت أن تدفن في الأرض المقدسة، وطلبت من رئيس دير القديس سابا الموافقة على ذلك، ومن الممكن ملاحظة أن من كان يشغل ذلك المنصب تمتع بمكانة كبيرة لدى الأوساط الدينية في مملكة بيت المقدس الصليبية، إذ كان يعتبر كبير الموظفين الأرثوذكس، ومن جهة أخرى، اعتبره البعض أهم من بقى بفلسطين من عناصر رجال الدين الأرثوذكس[3].

---

1) وقع دير مارسابا على بعد خمسة عشر ك.م إلى الجنوب الشرقي من بيت المقدس، وقد تم بناؤه عام ٤٨٤م، وأضيفت إليه إضافات في عهد الإمبراطور جستنيان. انظر:
نقولا زيادة، رواد الشرق في العصور الوسطى، ص٨٢ حاشية (٦)؛ عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤م، ص٢٥٨؛ عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب علاقة البندقية بمصر والشام من ١١٠٠-١٤٠٠م، ص١٨٧-١٨٨؛ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس، ص٤٨.
القديس سباس St. Sabas، ولد هذا القديس في مدينة قيسارية Caesarea في كبادوكيا Cappadocia، وذلك في عام ٤٢٩م، ويعد أحد البارزين من الجيل الأول من الرهبان، وقد صار قدوة لغيره على نحو صارت معه تعاليمه تؤثر تأثيراً كبيراً على الحركة الدايرنية الشرقية، وعندما كان شاباً صغيراً لازم القديس ايوثيميوس الكبير Euthymius the Great، وفي عام ٤٧٨م أسس جماعة ديرانية في منطقة مقفرة فيما بين بيت المقدس Jerusalem والبحر الميت Dead Sea وقد ازدهر أمرها من بعد ذلك بصورة كبيرة، وفي عام ٤٩٣م كانت له زعامة على كافة الرهبان في فلسطين الذين عاشوا حياة مشابهة لحياته التقشفية، وقد لعب القديس سباس دوراً نشطاً في التاريخ الكنيسي العام لتلك الرحلة، وأرسل مرتين من قبل بطريرك بيت المقدس إلى القسطنطينية، ووصلتنا سير حياته عن طريق Cyril of Scythopolis، وقد قابل القديس سباس وتأثر بتعاليمه، ويسمى دير ذلك القديس باسم مارسابا Mar Saba ويعد أحد أقدم الأديرة المعمورة في العالم، ويشغله رهبان تابعين للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وأدركت المنية القديس سباس في عام ٥٣٢م، ويلاحظ أن عيد الاحتفال به هو الخامس من ديسمبر.
Attwater، the Penguin Dictionary of Saints، P.291;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس ١٠٩٩-١١٨٧م، ص٦٣ هامش (٤٤).
2) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٣٨.
3) Runciman، A History of the Crusades، Vol. II، London 1978، P.321;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ص١٥٠.

وقد حرص الملوك الصليبيون على تقديم الأراضي للدير المذكور وتدعيم مكانته ودوره في الأرض المقدسة، ونظراً لكون رئيس دير سابا قد تمتع بتلك المكانة الكبيرة لدى عناصر المسيحيين الأرثوذكس فقد اتجه الحجاج الروس من أجل معاونتهم في كافة ما عندهم من أمور تتعلق برحلتهم في فلسطين خلال تلك المرحلة، ومن الضروري أن نتذكر حقيقة هامة ألا وهي أن دانيال الروسي اتجه إلى الدير المذكور، وكان ذلك من أوائل المناطق التي زارها هناك[1]، ولا جدال أن تكرار تردد ذكر دير القديس سباس ورئيسه في كل من الرحلتين الروسيتين يدل بجلاء على أن الحجاج الروس بصفة عامة أكثروا من التردد على الدير المذكور لزيارته، وللاتصال برئيسه الذي تمتع بمكانة دينية كبيرة واتصل بالقيادات السياسية الصليبية على نحو هيأ له فرصة تذليل الصعاب التي واجهتهم على ما يبدو[2]، وظل المسيحيون الشرقيون يقصدون الدير من أماكن متعددة كما تكدست فيه ثروات هائلة نتيجة الهبات التي كانت تصله[3].

من الخصائص التي اختص الله بها سيدنا عيسى ﷺ، معجزة إحياء الميت فقبر هذا الرجل الذي شرفه الله بمعجزة نبيه ومتعه بنعمة الحياة في قرية العازرية "بيت عنيا"[4]، كانت تعيش في بيت عنيا مريم ومرثا، أخوهما إليعازر، ويبدو أن بيت عنيا كانت مكان إقامة السيد المسيح ﷺ عند زياراته لليهودية (متى: ٢١:١٧ ومرقس: ١١:١١)[5]، يزور الحجاج هذه القرية منذ بداية القرن الرابع الميلادي، وقد بنيت كنيسة بجوارها قبل نهاية القرن وقد أعيد بناؤها في القرن السابع الميلادي[6].

---

1) دانيال الروسي، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٦٩-٧٠؛
Daniel the Abbot، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.121;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ص١٥٠.
2) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدسة الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ص١٥٠.
3) محمد الحافظ النقر، التغييرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس، ص٦٦٧.
4) كامل جميل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص مع دراسة مفصلة عن حياته وشخصيته العلمية، ط. عمان ١٩٨٦م، ص١٩٣.
بيت عنيا اسم ارامي يعني "بيت العناء"، وهي قرية تبعد ٣،٥ كيلو متراً شرقي القدس، على السفح الشرقي لجبل الزيتون على الطريق من القدس إلى أريحا. راهب من برية شيهيت، القدس، ص١٥٠.
5) راهب من برية شيهيت، القدس، ص١٥٠.
6) Pringle (D.)، The Planning of some Pilgrimage Churches in Crusader

عند الدخول إلى بوابة المدينة، يشاهد المرء على اليمين الكهف الذي به مقبرة إليعازو وفي منتصف هذه المدينة توجد كنيسة كبيرة عالية، وكانت مزينة بسخاء برسومات، إن المسافة هي ٢٥.٦ متراً من هذه الكنيسة حتى مقبرة إليعازو، والتي تقع غرب الكنيسة، بينما الكنيسة ذاتها وجهتها إلى الشرق[1].

وفي بداية القرن الثاني عشر الميلادي، كانت بيت عانيا تتبع كنيسة القبر المقدس، إلا أنه في عام ١١٣٨م، قام الملك فولك باعطاء مراسم بعض الأراضي لرجال الدين في تقوع[2] في تبادل مع أراضي بيت عانيا، بحيث يتمكن هو والملكة مليسندا من تأسيس دير للراهبات البندكتيات، والذي نصبت عليه أختها الصغرى "إيفيت" لتكون رئيسة له، بين أعوام ١١٤٤م، ١١٥٧م[3] علماً إن الأوقاف التي خصصتها الملكة مليسندا للدير الجديد قام وليم الصوري بتسجيلها[4].

Palestine، World Archaeology، Vol. 18، No.3، Archaelogy and the Christian Church، (Feb. 1987)، P.355.

1) Pringle (D.)، The Planning of some Pilgrimage Churches in Crusader Palestine، P.355.

2) قرية تقوع هي أحدى القرى الفلسطينية، وتعرف باسم خربة تقوع Khirbet Takuet، وقد ورد اسمها في الوثائق الصليبية بأشكال مختلفة Al- Tuque-Tccau، وقرية تقوع إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، وعلى بعد سبع كيلو مترات منها، وهى ترتفع عن سطح البحر نحو ثمانمائة وخمسة عشر متراً ويحدها من الشمال قرية أرطاس Artais انظر: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٨، ص٤٩٦.

3) Pringle (D.)، The Planning of some Pilgrimage Churches in Crusader Palestine، P.355.

4) كان من الممتلكات التي وهبتها الملكة أيضاً لهذا المكان الطاهر مدينة أريحا الشهيرة بكل ملحقاتها الواقعة في سهل الأردن والغنية جداً بكل شيء، وزيادة على ذلك فقد أهدت الملكة الدير عدداً كبيراً من الأواني الذهبية والفضية المقدسة المرصعة بالجواهر، كما منحته أقمشة حريرية لتزين بيت الرب، وأفاضت أنواع الثياب لرجال الدين حسبما تقضي بذلك القواعد الديرية ثم أن الملكة صرفت كل اهتمامها إلى ذلك المكان الذي عهد به إلى تلك المرأة الموقرة التي ما كادت تموت حتى قامت "مليسندا" بجعل أختها رئيسة له بعد موافقة البطرك.

William of Tyre، Vol. II، P.133;
Geneviéve (B.B), Le Cartulaire du Chapitre de Saint-Sepulcre de Jerusalem, Paris 1984, P.76-77;

إن "بيت عانيا" كانت غنية بترابطها بالعهد الجديد، والتي منذ أقدم الأزمنة كانت مرتكزة على موقعين أساسيين، منزل سمعان الجريان (والتي بها قد جرت أحداث متعلقة بالأختين ماري ومارثا) ومقبرة إليعازر، وعند البناء لدير الراهبات البندكتيات في العام ١١٤٠م، فقد كانت الأولى تحوي علامة كنيسية عمرها ٦٠٠عام، والأخيرة، منفصلة عنها بساحة مكشوفة، بكهف مقطوع في الصخر، تلك المواقع قد تكون اجتذبت أعداداً ضخمة من الحجاج، ليس فقط لأن بيت عانيا كانت تقع في الطريق إلى الأردن، ولكن أيضاً بسبب علاقة الكنيسة بطواف أحد الشعانين[1]، ولمعيشة هؤلاء الناس دون إزعاج الحياة الرهبانية للراهبات والتي كانت لتخلق العديد من المشاكل إذا جرى الاحتفاظ بالكنيسة الشرقية ككنيسة رهبانية رئيسية، واقتضى الحل بناء كنيسة جديدة فوق مقبرة إليعازر، وتوزيع المباني التقليدية الجديدة جنوباً منها وعلى نفس المستوى المرتفع، وربما دخل الحجاج المكان من الشمال عبر بوابة تؤدي إلى ساحة بين الكنيستين، ومن هناك، قد يقومون بالاتجاه نحو اليسار إلى داخل كنيسة القديسة ماري ومارثا، أو يميناً إلى داخل مقبرة إليعازر، إلا أنهم وفي وقت لا يذكر، كان بإمكانهم دخول الكنيسة العلوية للقديس إليعازر وإلى جنوب الكنيسة الشرقية تقع مساحة مقفلة، تحميها أبراج نافذة، والتي كانت تبدو نوعاً من فناء سفلي أو منطقة خدمات، تحوي المطابخ والمخازن، وربما بعض أماكن الإقامة للخدم والمساعدين، والطريق الوحيد لدخول هذه المنطقة من منطقة مجمع الحجاج كان من خلال باب في الحائط الشمالي للساحة ما بين الكنائس[2].

سهير محمد مليجي علي، المرأة الصلبيية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس٢٠٠٢، ص٣٢٢.

1) أحد الشعانين (لدى الطوائف المسيحية الشرقية) هو الأحد السابع من الصوم الكبير والأخير قبل عيد الفصح أو القيامة ويسمى الأسبوع الذي يبدأ به بأسبوع الشعانين أو أسبوع الآلام، وهو يوم ذكرى دخول السيد المسيح إلى بيت المقدس واستقبله الشعب أحسن استقبال، وترمز أغصان النخيل أو السعف إلى النصر أي أنهم استقبلوا يسوع المسيح كمنتصر، إذ أنهم كانوا يظنون المسيح قادماً لكي يطرد الرومان ويؤسس مملكة دنيوية. يأتي قبل أحد الشعانين سبت لعازر الذي قام فيه يسوع حسب ما جاء في الأناجيل بمعجزة إقامة لعازر من الموت حسب المعتقد المسيحي.

2) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١٠٤؛
Pringle (D.)، the Planning of some Pilgrimage Churches in Crusader Palestine،

ونجد الرحالة فوكاس يذكر عددا من الأديرة المهمة في مملكة بيت المقدس الصليبية ومن أمثلتها دير القديس ثيودوسيوس St. Theodosius[١]، وقد أحيط بصورة دائرية بالعديد من الأبراج، وفي وسطه نجد كنيسة شيدت على أرض مرتفعة، وبها توجد مقبرة القديس ثيودوسيوس كذلك تحتوي على العديد من رفات كبار القديسين[٢]، ويبدو أن موضع دفن أولئك القديسين كان مجالاً متسعاً للتبرك من جانب آلاف الحجاج الذين يقدمون لزيارة الأماكن المقدسة[٣].

بالإضافة إلى ذلك هناك دير القديس يوثيميوس الكبير St. Euthmius the Great[٤]، والدير كما يقرر يوحنا فوكاس محصن بعدد من الأبراج والحوائط الكبيرة، وفي

P.357.

1) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة ١١٨٥م، ص٣٩٤.
وفيما يتصل بالقديس ثيودوسيوس St. Theodosius تجدر الإشارة إلى أنه ولد في كبادوكيا Capadocia، وذلك في عام ٤٢٣ م، وعندما بلغ الثلاثين من عمره غادر موطنه واستقر في فلسطين، وقد كون جماعة ديرانية صغيرة وذلك بالقرب من بيت لحم، وطبقت شهرتها الآفاق على نحو واضح، وتكون رهبانها من شعوب مختلفة تتحدث بلغات متعددة، واتجهت تلك الجماعة إلى القيام بعدة أعمال خيرية كان من أبرزها معالجة المرضى والعمل على توفير سبل الشفاء لهم، وفي الوقت الذي كان فيه القديس ساباس St. Sabbas رئيساً لكافة الرهبان في فلسطين كان القديس ثيودوسيسو على رأس أولئك الرهبان الذين أخلصوا لفكرة الحياة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، وقد أدى ذلك إلى تنحيه عن منصبه لمدة قصيرة على يد الإمبراطور أناستاسيوس Anastasius، ويلاحظ أن ذلك القديس توفي بالقرب من بيت لحم عام ٥٢٩ م، عن عمر ١٠٥ عاماً، وقد تقرر أن يكون عيده يوافق يوم الحادي عشر من يناير عنه انظر:
Attwater، Penguin Dictionary of Saints، P.312;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٣٢٦ هامش (١٢).

2) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس، ص٣٩٤؛
John Phocas، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.327.

3) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٢١٧.

4) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٣٩٤.
القديس إيوثيميوس الكبير St. Euthmius the Great، ولد حوالي عام ٣٧٧ م في ميليتين Melitene، ومسقط رأسه في أرمينيا Armenia، وهناك صار راهباً وأصبح مشرفاً على مؤسسة ديرانية، وعندما بلغ الثلاثين من عمره اتجه إلى فلسطين حيث عاش حياة منفردة في أماكن متعددة، وفي المعتاد فضل سكن أحد الكهوف وأخيراً استقر في أحدى المنافذ الواقعة بين بيت المقدس وجرش وجمع حوله العديد من الأتباع واستطاع أن يؤثر فيهم بأفكاره في الزهد والتقشف، ويعد يوثيميوس الكبير أحد أهم الرهبان الفلسطينيين في

وسطه شيدت كنيسة ذات سطح دائري، وبها مقبرة القديس إيوثيميوس الكبير[١].

زد على ذلك، هناك دير العمود، وهو مزود بعدد من الأبراج، وشيدت كنيسة في وسطه ويقال أنها أقيمت في عهد الحواريين، فهي تعد من أقوم الكنائس، وبها صورة للسيد المسيح عليه السلام بين ذراعي مريم العذراء والصورة كما يقال ملونة بيد القديس لوقا St. Luke[٢] مما أعطاها مكانة سامية في نفوس الحجاج المسيحيين الوافدين على المملكة الصليبية[٣].

كذلك أشار ذلك الرحالة إلى عدد من الأديرة الأخرى مثل دير النبي الياس Elias فقد تم تشييده من قبل أناس أتقياء في عصور غابرة، وتم تدميره على أثر زلزال نكبت به بلاد الشام، ولكن تم إعادة بناءه[٤] بالإضافة إلى دير الراعي وهو في منتصف الطريق إلى بيت لحم[٥]، ودير القديس خاريتوس أو خوريستون St. Charitos أو Choriston[٦]، ومن الأديرة المهمة أيضاً دير للرهبان الأسبان والذي حدد موقعه بأنه في الجهة اليمنى من مدينة بيت المقدس باتجاه برج داود[٧].

بوجه عام، يمكن القول أن العديد من الرهبان والحجاج من مختلف الجنسيات أقاموا في هذه الأديرة المتناثرة في أنحاء مختلفة من المملكة الصليبية.

أما فيما يختص بالناصرة[٨] فهي مدينة مقدسة عند المسيحيين بوصفها مدينة مخلصهم

تلك المرحلة المبكرة، وقد كان موضع استشارة الإمبراطورة يودوكيا Eudocia زوج الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II وقد توفي ذلك القديس في فلسطين في عام ٤٧٣م، ويوم الاحتفال بعيده يوافق العشرين من يناير.
Attwater, Penguin Dictionary of Saints، P.123;
محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية، ص٢٢٧ هامش (١٣).

1) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٣٩٤؛
John Phocas, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.328.

2) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٣٩٥.

3) محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص٢١٧.

4) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٤٠٠؛
John Phocas, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.332.

5) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٤٠٠.

6) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٣٩٦.

7) يوحنا فوكاس، رحلة حج يوأنس فوكاس في الأرض المقدسة، ص٣٩٩.

8) الناصرة: إحدى المدن الفلسطينية، نسب إليها السيد المسيح عليه السلام الذي دعى بالناصري، وولدت فيها

وكعبة حجهم، وموطن للسيدة العذراء[1]، ومكان إقامة السيد المسيح عليه السلام[2] على الرغم أن والدته وضعته في بيت لحم، كانت في عهد السيد المسيح عليه السلام، ضيعة صغيرة، ثم أخذت تكتسب تدريجياً مكانة مرموقة مع انتشار المسيحية، واعترف الرومان بها، وأضحت منذ ذلك الحين محجاً للمسيحيين لوجود كنيسة البشارة فيها، يقصدها الحجاج المسيحيون بالحماس نفسه الذي كانوا يقصدون به قبر المخلص في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم[3].

ترجع كنيسة البشارة[4] إلى القرن الثاني الميلادي، وقد بنيت قرب المغارة المقدسة التي كانت جزءاً من بيت السيدة العذراء والقديس يوسف، حيث سكنا عقب عودتهما من أرض مصر، أن هذا المكان بشر الملاك جبرائيل عليه السلام السيدة العذراء مريم بمولد السيد المسيح عليه السلام، وفي القرن الخامس تقريبا عام ٤٢٧م، حلت كنيسة ذات الطراز البيزنطي محل الكنيسة الأولى، ولكن هدمها الفرس عام ٦١٤م[5].

استمر وضع الناصرة مقدراً خلال الحكم الإسلامي لفلسطين، ولو أن المدينة تعرضت أحياناً للضرر بسبب الصراعات الدامية التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين، كان أخرها ما أصابها من خراب، في أعقاب الحملة الفاشلة التي قادها الإمبراطور البيزنطي يوحنا

السيدة مريم العذراء، وهي مكان مقدس لدى المسيحيين، والناصرة تقع على بعد ٧٠ ميلاً (٤١كم) شمال بيت المقدس، كما أنها تقع على بعد ٧٦كيلو متر شمال نابلس. وقد ذكر القزونين أن الناصرة مدينة بالقرب من طبرية، وقيل أن اسم النصارى مشتق منها انظر:
القزونني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٩م، ص٢٢٧؛ انظر أيضاً: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ق٢، ص١٧٠؛ سعيد البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية، ص٦٨ هامش (٢٤٦)؛ دانيال، وصف الأرض المقدسة، ص٢٩ هامش (٢)؛ سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٣٦ هامش (٣).

1) Saewulf، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.110;

يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٣١؛ يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٧٤.

2) An Account of the Location of the Places، in Pilgrimage 1099-1185، P.192.

3) أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ضمن كتاب مسيحيون ومسلمون في زمن الحملات الصليبية بين المواجهة واللقاء، ط. بيروت ٢٠٠٧م، ص١٩.

4) The Abbasid Road to Nazareth and Acre، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.61.

5) راهب من برية شيهيت، القدس، ص١١٨.

تزيمكيس John Tzimisces على المنطقة عام ٩٧٥م فخلت الناصرة من سكانها آنذاك، وظلت كذلك حتى عام ١١٠٢م، وفق شهادة الرحالة سايولف الذي زارها في أثناء خضوعها للأمير الفرنجي تنكرد Tancard، فأعاد هذا الأمير ترميم ما تهدم منها، وجدد بناء كنائسها، ونقل إليها أسقفية بيسان، لتكون أسقفية للمرة الأولى، واتبع بأسقفها نائباً في طبرية[1].

بنى اللاتين كنيستهم في الناصرة وفق نسق هندسي شبيه بطراز الكاتدرائيات العائدة للعصور الوسطى في أوروبا، المتأثرة إلى حد بعيد بالهندسة الفرنسية ذات الطابع القوطي منه إلى الطابع البيزنطي الشرقي[2].

وذكر الراهب دانيال الروسي (١١٠٦-١١٠٧م) كنيسة البشارة اللاتينية وكنيسة الناصرة، ولم يكن قد مضى وقت طويل على عمارتها، فأبدع في وصف هياكلها، ومغارتها، وأبوابها، ومقام السيدة العذراء فيها، وقبر مار يوسف خطيب السيدة مريم حيث يقول في وصف كنيسة البشارة اللاتينية[3]: "للكنيسة ثلاثة هياكل: عن يسار الداخل، وأمام الهيكل الصغير، مغارة قليلة الغور، لها بابان صغيران: أحدهما من الغرب والأخر من الشرق، فيدخل إليها من كليهما. وإذا نزلت من الباب الغربي، تجد عن يمينك بيتاً له باب صغير في هذا البيت سكنت السيدة مريم العذراء مع يسوع المسيح عليه السلام، وفيه دكة غير مرتفعة كثيراً، كان السيد المسيح عليه السلام ينام عليها".

"عند أول نزولك من باب المغارة الغربي تجد قبر مار يوسف، خطيب السيدة مريم، حيث دفنه السيد المسيح عليه السلام بيديه الطاهرتين، ويخرج من هذا القبر ماء أبيض يشبه الزيت يشفون به من أمراضهم. وقرب هذا الباب المكان الذي كانت العذراء جالسة فيه حين بشرها جبرائيل عليه السلام، وحيث كانت تجلس، وهي حبلى....".

"وعند عمود ثالث مائدة صغيرة قائمة على عمود حيث يقام القداس، هناك بيت يوسف، حيث توجد مغارة مقدسة فوقها كنيسة باسم البشارة، كانت قد دمرت قبلاً،

---

1) أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢١.

2) أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٥.

3) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص١٠٢-١٠٤؛
Daniel، in Jerusalem pilgrimage 1099-1185، P.163.

فجددها الأجانب، وأحسنوا ترتيبها".

أما عن مزار الخليل، فكانت الخليل تشغل حيزاً أساسياً من الأرض التي اعتبرها معتنقو الأديان السماوية الثلاثة أراضي مقدسة باركها الله، فنجد اليهود ارتبطوا في أعيادهم وطقوسهم منذ القدم بالحرم الإبراهيمي، فهم يعتقدون في أن إبراهيم عليه السلام يعد الأب الأكبر للسلالة العبرانية، ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل الذي ينتسب إليه الأسباط اليهود الاثنا عشر[1].

ونجد تباين في آراء اليهود حول الحج، فالبعض يرى في الحج إلى القدس[2] واجب يحتمه الدين ثلاث مرات في العام، في حين يذهب البعض الآخر إلى أن تهدم الهيكل في بيت المقدس قد وضع نهاية لشعيرة الحج اليهودي[3]، ومن ثم فترحال اليهود إلى الخليل لم يكن يشكل قسماً من رحلة حجهم، وإنما كان الذهاب إليها من قبيل التبرك بالأنبياء الراقدين فيها والأماكن ذات الذكرى الطيبة لديهم، في حين انعدمت أعداد اليهود في مدينة الخليل حينما استولى عليها الصليبيين فقضوا على كل نشاط ديني لليهود بها[4].

من الجلي البين أن المسيحيين يعتقدون بنفس معتقدات اليهود حول مقدسات الخليل

---

1) Archer (T..H.)، and Kingsford (C.L.)، The Crusader, P.297;
علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، ص ٢٦١.

2) وفور وصول الحاج إلى القدس كان يتبع ذلك مجموعة من الممارسات الدينية، وأهمها كانت طقس التعزية - وبالأخص تمزيق الشخص لملابسه، والنطق بالصلاة المناسبة عند زيارة القدس لأول مرة، والمدينة وإن كانت مزدهرة، كان ينظر إليها وكأنها "متهدمة" بسبب هدم المعبد وقدس الأقداس به.
Prawer (J.)، The Hebrew Itineraries of the Crusader Period، in the History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem، Oxford 1988، P.172.

3) إن الحج إلى القدس، باعتبارها كوصية دينية، أصبحت معلقة لبعض الوقت، بعد هدم المعبد، على الرغم من أن بعض الحجاج الذين كان لديهم الشعور بأنهم يؤدون واجب ديني، فلم يكن ذلك مضموناً لاهوتياً، ومبدأ الحج كمغفرة للخطيئة كان نادراً ما يمارس عند نهاية القرون الوسطى، وعندما كانت المغفرة مرتبطة أكثر بواقع المنفى الاختياري عن المنزل والعائلة، وعن الأهداف الحسية والجغرافية للحج، واليهودية لم تعرف أبداً السماح وعبادة الأماكن المقدسة، وعندما تطورت هذه إلى المسيحية فأرض القدس مقدسة وكذلك جبل المعبد.
Prawer (J.)، Pilgrimage، Immigration، and Settlement in the History of Jews in the Latin Kindom of Jerusalem، P.129

4) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٦٢.

فكلاهما يؤمن بما جاء به العهد القديم في هذا الصدد، ومن أهم هذه المعتقدات دفن إبراهيم وأبنائه عليهم السلام في مغارة المكفيلة[1].

ويعد سايولف من أوائل الرحالة الصليبيين الذين زاروا الحرم الإبراهيمي ودون ملحوظاته، حيث يذكر أنه في شرقي المدينة يرقد الأنبياء القديسون: إبراهيم، إسحاق، يعقوب عليهم السلام كل دفن مع زوجته بالإضافة إلى أبي الخلق آدم عليه السلام، وأحيطت قبورهم منذ القدم باستحكامات في غاية المناعة والمقصود بها أسوار مبنى الحرم، وكل قبر يبلغ من الكبر حداً يشبه الكنيسة الضخمة ويحوي كل منها قبرين أولها لأحد من الأنبياء والآخر لزوجته، وقد وضعت في جلال مهيب، وقد عطرت هذه القبور بأطيب أنواع العطور وما زالت حتى يومنا هذا تزكى بأريجها أنوف من يذهب لزيارتها[2].

أما الرحالة دانيال الروسي فيصف الوضع الذي كان عليه الحرم وقت زيارته له عام (١١٠٦-١١٠٧م)، ويذكر أنه عبارة عن مبنى قوي تحيطه أسوار ذات حجارة ضخمة وارتفاع شاهق وتقع المغارة في الداخل وسط هذا المبنى وكل أرضيته من الرخام الأبيض، والمغارة تقع أسفل تلك الأرضية وفيها يرقد الأنبياء وأزواجهم، وتتجاوز مقبرتا سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجته "سارة" رضي الله عنها وكذلك إسحاق عليه السلام وزوجته "رفقة" رضي الله عنها ويعقوب عليه السلام وامرأته "ليئة" رضي الله عنها أما قبر يوسف عليه السلام فيقع داخل المغارة ولكن عند طرفها[3]، وهنا نجد تشابه إلى حد كبير بين رواية الرحالة سايولف ورواية الرحالة دانيال الروسي وذلك لتقارب الفترة الزمنية بين الرحلتين فلا يفصل بينهم سوى أربع سنوات فقط.

وبعد مرور عقدين من الزمان تقريباً من الوجود الصليبي في الخليل وقع حدث على قدر

---

1) العهد القديم: سفر التكوين، ٢٣: ٢، ١٩، ٢٥: ٩، ٣٥: ٢٧-٢٩، ٥٠: ٤، العهد الجديد: سفر أعمال الرسل: ٧: ١٥-١٦، اعتاد الحجاج والمؤرخون الصليبيون بصفة خاصة على إطلاق لفظ البطاركة Patriachum على الأنبياء المدفونين في المكفيلة، وكذلك على أبناء يعقوب عليه السلام بل وعلى البابوات البارزين. انظر: علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٦٥ هامش (٣).

2) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس، ص٤٢؛
Saewulf، in Wright Early Travels in Palestine، London 1848، P.46.

3) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧٩؛
Daniel the Abbot، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.147.

كبير من الأهمية ألا وهو اكتشاف مقابر الأنبياء ﵈، وقد يرى البعض أن الملك بلدوين الثاني Baldwin II قد أظهر قدراً من المرونة في تعامله مع المسلمين وتظاهر باحترام عقيدتهم الإسلامية، وذلك لقيامه بتجديد أكفان كل من إبراهيم ﵇ وإسحاق ﵇ ويعقوب ﵇ عام ١١١٩م/٥١٣هـ وترميم ما تصدع من المقبرة(١)، والواقع أن الملك بلدوين الثاني كان يهدف من وراء ذلك إلى تشجيع حركة الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة فيما يعرف بأمر السياحة الدينية التي درت على المملكة أموالاً طائلة(٢).

وقد أصدر الملك بلدوين الثاني قراراً بمناسبة اكتشاف مغارة الأنبياء، وذلك في تاريخ يقع فيما بين الرابع والعشرين من أبريل - الحادي والثلاثين من أغسطس عام ١١٢٠م/ الثالث والعشرين من المحرم - الرابع من جمادي الآخر ٥١٤هـ، وهو يقضي بإعفاء الذين يجلبون القمح والشعير والفول والعدس والحمص إلى بيت المقدس من الضريبة التي كانت

---

١) استند راهب الخليل في روايته لأحداث اكتشاف المقابر إلى ما سمعه مباشرة من اثنين من رجال الدين المقيمين في كنيسة سانت إبراهام وهما إيد Eudes، وأرنول وكانا قد شاركا بشكل مباشر في هذا العمل، وذلك في يوم الخامس والعشرين من يونيو ١١١٩م/ الثالث عشر من ربيع أول ٥١٣هـ حيث قام أحد الرهبان أثناء فترة الراحة بالدخول إلى الكنيسة لاتقاء الشمس وحرارتها وجلس بجوار مشهد إسحاق ﵇ ولاحظ تصاعد هواء بارد من خلال فتحة بين بلاطتين في الأرضية، وحينئذ حاول فحص مدى هذا العمق باستخدام ثقل ربطه في خيط وقام بتدليته من الفتحة وتمكن من تحديد العمق بأحد عشر ذراعاً، وبعد عناء وجهد شاقين تمكن الرهبان من كسر حجر ضخم فظهر مدخل المغارة، وكان أرنول يعد أنشط الذين هبطوا وذلك باستخدام الحبال حيث تمكن من التعرف على فتحة الدهليز الذي يؤدي إلى غرفة سفلية تكفي لثلاثين مصلياً مغطاة بكتلة حجرية ضخمة واحدة والحديث كله لراهب الخليل حيث تم العثور على رفات يعقوب ﵇، وفي مغارة فرعية أخرى وجد بها رفات إبراهيم ﵇ وإسحاق ﵇، وعندما اكتشفت رفات البطاركة (الأنبياء المكرمين)، حمل رئيس الرهبان الماء والنبيذ لتنظيف أكفان الرفات مما علق بها من أتربة، وخاصة أن مغارات الدفن كانت تستند إلى جسم الجبل المقام عليه الحرم، كما زعم أن الرهبان حملوا الرفات وطافوا بها في شوارع الخليل ابتهاجاً، ثم عادوا للمغارة ووضعوا كل رفات على منضدة من الخشب كان قد تم إعدادها لهذا الغرض، ثم خرج الجميع، وقام رئيس الرهبان بإغلاق مدخل المغارة حتى لا يتمكن أحد من الدخول دون إذنه.

علي أحمد السيد، اعتماداً على حولية مؤرخ الخليل المجهول. للمزيد انظر: الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٦٨-٢٦٩.

٢) يوشع براور، الإستيطان الصليبي، ص٢٥٦؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٨٧-٢٨٨.

مقررة عليهم أو يرى البعض أن الغرض من هذا القرار هو خدمة الأعداد المتزايدة من الحجاج والصليبيين ليتمكنوا من زيارة المدينة(١).

ومن المرجح أن القرار اتخذ لتشجيع حركة الحج الصليبي إلى الخليل وغيرها من البقاع المقدسة، وذلك بتخفيض أسعار السلع الغذائية ونظراً لاتخاذ القرار بعد فترة أقل من عام من حدث اكتشاف المغارة، يتضح أن صدى عملية الاكتشاف كان وراء قدوم هذه الأعداد الضخمة من الحجاج، ويدعم هذا الاعتقاد حضور حاكم الخليل إلى القدس ومشاركته مراسيم اتخاذ القرار(٢)، ويلاحظ أن حادثة الأكفان كان لها صدى شعبياً على المستوى الصليبي والإسلامي واليهودي بحيث أشارت إليها العديد من المصادر.

فقد تناول راهب الخليل المجهول المبنى بالوصف ويذكر أنه عبارة عن بناء شديد القوة ذي مظهر جميل يثير الرهبة يتكون من أحجار مربعة كبيرة ملساء يبلغ ارتفاع السور ثمانية عشر ذراعاً وطوله تسعة وأربعون ذراعاً، والأرضية من البلاط المربع الكبير الشديد الصلابة، حتى أنه يتحمل إقامة بناء عليه، وتبلغ من القوة ما يفوق مثيل حجمها من الرخام، وتم ترتيب أجزاء المبنى بشكل لا يمكن انتزاع أي منها دون بذل عناء كبير، وقد تم تشييد ست مشاهد رمزاً لقبور الأنبياء بحيث ضمت ثلاث مجموعات كل منها يضم اثنين منها، وتقع مشاهد الأنبياء قبالة مشاهد زوجاتهم بحيث وقع مشهد إبراهيم ﵇ وزوجته سارة ﵂ في الوسط، بينما إسحاق ﵇ ورفقة ﵂ في الشرق، ومشهد يعقوب ﵇ وليئة ﵂ في الغرب، وهذا كله في مغارة على عمق أربعة عشر ذراعاً أسفل البلاط(٣).

أما يوحنا أوف ورزبرج فيذكر أن مدينة الخليل تعد مدينة البطاركة، وذلك لأنها تضم رفات ثلاثة من الأنبياء، وهم: إبراهيم، إسحاق، ويعقوب ﵈، وكذلك زوجاتهم، وهن: أمنا سارة، ورفقة، وليئة ﵅، وقد تم دفنهم جميعاً في الكهف المزدوج(٤).

---

1) Archer (T. H.), and Kingsford (C.L.), The Crusades, P.288;

علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٨٣.

2) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٨٣.

3) علي أحمد السيد، اعتماداً على حولية مؤرخ الخليل المجهول، انظر: الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٦٧.

4) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٩٧-٩٨.

وإذا ما انتقلنا للتعرف على موقف المؤرخين والرحالة المسلمين وما أوردوه من خلال ما سمعوه أو شاهدوه أثناء الزيارة، نجد أن أكثر المدونات معاصرة لحدث الاكتشاف ما سجله المؤرخ المسلم ابن القلانسي في أحداث عام ٥١٣هـ الممتد من الرابع عشر من أبريل عام ١١١٩م حتى الثاني من أبريل ١١٢٠م، حيث قال: "وفي هذه السنة حكى من ورد من بيت المقدس عن ظهور قبور الخليل وولديه إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام الأنبياء وهم مجتمعون في مغارة بأرض بيت المقدس، وكأنهم كالأحياء، لم يبل لهم جسد ولازم عظمهم، وعليهم في المغارة قناديل معلقة من الذهب والفضة، وأعيدت القبور إلى حالها التي كانت عليها، هذه صور ما حكاه والله أعلم بالصحيح من غيره[١].

وقد وصف الرحالة الإدريسي الخليل قائلاً: "وفي مسجدها قبر إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام وكل قبر من قبورهم تجاه قبر إمرأته". والجدير بالذكر أن الرحالة أشار إلى مدينة الخليل باسم مسجد إبراهيم عليه السلام[٢]، ويعد الرحالة الهروي أول من قام بزيارة الحرم وسجل رحلته إبان الوجود الصليبي للخليل حيث قال: "بها مغارة فيها قبر إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، وقيل إن قبر أدم ونوح عليه السلام وسارة رضي الله عنها في هذه المغارة"، ثم تطرق الهروي في حديثه إلى كيف أن أحد الزوار المسلمين كان قد تمكن سلفاً من النزول إلى المغارة التي بها رفات الأنبياء واصفاً إياها بأنها كبيرة والهواء يخترقها، وبها دكة عليها إبراهيم الخليل عليه السلام ملقى وعليه ثوب أخضر وشيبه يلعب الهواء بها، وإلى جانبه إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، وحينما حاول النظر فيما وراء الجدار إذا بصوت ينهره "إياك والحريم" فعاد من حيث نزل ثم استشهد الهروي بالتوراة "سفر التكوين" ليدعم الأعتقاد السائد أن إبراهيم وأبناءه عليه السلام مدفونون في المغارة[٣].

ونجد فيما قدمه الهروي من معلومات ما جاء على لسان الصليبيين أنفسهم عن عملية الاكتشاف حيث يروي "دخلت القدس عام ١١٧٣م/٥٦٩هـ واجتمعت فيه وكذلك في مدينة الخليل برجال كبريين في السن حدثوني أنه لما كان في زمان الملك (بلدوين الثاني) انخسف الموضع في هذه المغارة فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك، فوجدوا فيها

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٢؛ علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٧٢.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٨٧.

(٣) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣٠-٣١.

إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام قد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط ورؤوسهم مكشوفة[١] فجدد الملك أكفانهم ثم أمر بسد الموضع"، ويحدد تاريخ هذه الأحداث بعام ١١١٩م/٥١٣هـ، ويواصل الهروي حديثه قائلاً: "حدثني الفارس بيرن الذي كان مقيماً في بيت لحم ومعروفاً لدى الفرنج لرجلته وكبر سنه أنه دخل مع أبيه إلى هذه المغارة ورأى إبراهيم الخليل عليه السلام وإسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام ورؤوسهم مكشوفة، فقلت: كم كان عمرك؟... فقال: ثلاث عشر سنة، وقال لي: إن الفارس جفري بن جرج كان ممن تقدم الملك إليه ليجدد أكفانهم، ويعمر ما انخسف من المغارة، وهو في الحياة، فسألت عنه فقيل: مات منذ أيام[٢]". ونلاحظ هنا أن الهروى اعتمد في روايته على شخصيات صليبية تدين بنفس المفهوم والمعتقدات الصليبية، ولم يستمع إلى شخصيات إسلامية حتى يتضح جدية هذا الموضوع من عدمه.

ونجد اهتماماً واضحاً من جانب الرحالة اليهود الذين زاروا الخليل أثناء الوجود الصليبي بها فيذكر بنيامين التطيلي أن "بها بيعة حسنة للنصارى تدعى كنيسة القديس إبراهيم عليه السلام" كانت في أيام حكم المسلمين كنيسة لليهود حتى استولى الإفرنج عليها"، وفي هذه الكنيسة ستة قبور يقول النصارى أنها أضرحة إبراهيم عليه السلام وزوجته السيدة سارة ويعقوب عليه السلام وزوجته السيدة ليئة حاج اليها اليهود للتبرك مقابل إتاوة يؤدونها، فإذا جاء يهودي دفع المال إلى الحارس القيم على القبور فيفتح له باباً من حديد يرتقي عهده إلى أسلافنا طاب ذكرهم، فينحدر منه إلى مغارة خاوية وبيده شمعة يهتدي بها وسط الظلام، ومنها يلج مغارة ثانية وهى خالية أيضا ومنها إلى ثالثة حيث يجد ستة أضرحة متقابلة فيقرأ على الأول هذا قبر سيدنا إسحاق عليه السلام وهكذا، وفوق القبور قناديل مرتبة ليلاً ونهاراً، وفي هذا الغار عدد من القوارير مملؤة بعظام الموتى، فقد جرت عادة اليهود أن يأتوا بعظام موتاهم إلى هذا المقام[٣].

(١) ولنا هنا تحفظ على ما رواه الهروى فلا يجوز أن يترك الأنبياء في هذه المغارة هكذا.

(٢) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٣١.

(٣) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص١٠٥-١٠٦؛
Benjamin of Tudela، in Wright Early Travels in Palestine، P.86;
Prawer (J.)، the Hebrew Itineraries of the Crusader Period، P.203;
علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٧١.

أما الرحالة اليهودي فتاحية الراتسبوني Rabbi Petachia، فيذكر في روايته أنه قام بزيارة الخليل مشيراً إلى المبنى بأنه قصر عظيم شيد فوق مقابر الأسلاف، والتي عنى ببنائها النبي إبراهيم عليه السلام، ويبالغ فتاحية في وصف أحجام الأحجار المستخدمة في البناء، فعلى سبيل المثال يقدر طوال الواحد منها بثمانية وعشرين متراً تقريباً، وكل منها حوالي ٧٠ ذرعاً، ويذكر فتاحية الراتسبوني أنه أعطى الحارس قطعة ذهبية ففتح له باب المغارة ووجد بها ثلاث غرف بها توابيت للدفن لكنها توابيت مزيفة تستعمل للتضليل، هكذا حذره يهود عكا، فسأل الحارس عن المقابر الحقيقية معطياً إياه قطعة ذهبية أخرى وحينئذ أقر الحارس بمكان المقابر الحقيقية، وقال: أنه لم يسمح قط لأحد من الوثنيين (أي اليهود والمسلمين) أن يدخل إليها من قبل، ثم أحضر الحارس شعلة وتم نزول سلم يبلغ خمس عشر درجة ينتهي إلى المغارة الداخلية، وهى تؤدي إلى مغارة أخرى شديدة الهيبة، وفي وسطها سرداب ينتهي إلى قبور منحوته في الصخر، ويتوسط مدخل السرداب قضبان حديدية كبيرة الحجم إلى الحد الذي لا يمكن للبشر صنع مثلها إلا بمساعدة من السماء، ويندفع من بين هذه القضبان ريح قوية أدت إلى إطفاء الشعلة وحينئذ تأكد للحضور من أن الأنبياء مدفنون في هذه المغارة فبادروا بإقامة الصلوات، ثم حاول يعقوب الربي التقدم نحو فتحة السرداب حيث المغارة فهبت الرياح بشدة وطرحته أرضاً خارجاً[1].

ويذكر يعقوب الربي ناتانيل هاكوهين أنه ارتدى ملابس غير مناسبة بالنسبة له فيقول: "دخلت على شكل وثني إلى الكهف المراد به المبنى"، وقد وصفها بأنها كنيسة وشاهد القبور الستة ناسياً إقامتها خطأً للرهبان الصليبيين، ويفسر هاكوهين سبب تخفيه في غير ملابسه بأنه لم يسمح لليهود بالهبوط إلى مغارة المكفيلة، وها هي الفرصة قد أتيحت للهبوط إليها، وكانت في نظره تحتوي على كنوز تم إخفاؤها بينما أعدها الرهبان الصليبيين كنوز (الأمهات الحاكمات)، ومن يحظ بالنزول إليها يناله شرف كبير، ثم ينتقل الرحالة إلى وصف جزء أخر فيذكر أنه بداخل المغارة حائط كبير تعلوه بعض الأواني الفخارية، وليس مسموحاً لأي شخص أن ينفذ إلى ما وراء الحائط، وحينما حاول بعض الرهبان أحداث نافذة صغيرة فيه

1) Rabbi Petachia of Ratisbon، The Itinerary of Rabbi Petachia 1170-1187، A.D.، in Jewish Travellers، London 1930، P.89-90; Prawer (J.)، the Hebrew Itineraries of the Crusader Period، P.212.

منعتهم الرياح من إتمام عملهم[1].

من الرحالة اليهود صموئيل بن شمشون الذي توجه إلى الخليل عام ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ تقريباً وزار حرمها، بل وهبط حسب ظنه إلى المغارة السفلية، ولعل أهم ما أمدتنا به مدونته وصفه للسرداب الهابط إليها حيث يروي: هبطنا أربع وعشرين درجة على سلم صغير للغاية حيث لا يمكن التلفت لليمين أو اليسار، وبدا لنا ثلاثة مقابر فصلينا وسجدنا خاشعين ثم رجعنا إلى القدس[2].

كذلك أشار كل من ابن بطوطة والعمري إلى وجود فتحة على يمين المنبر يهبط منها على درج من الرخام إلى سرداب ضيق يفضي إلى ساحة ذات أرضية رخامية فيها صور القبور الثلاثة، ويلاحظ أن الزيارتين قد تمت بعد إعداد المبنى كي يكون مسجداً ويذكر ابن بطوطة معلومة مهمة يقول فيها "وكان هناك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود"[3].

وهكذا نلمس أن الرحالة اليهودي صموئيل بن شمشون لم يكن دقيقاً في وصفه إذ اعتقد أنه هبط إلى المغارة، وإنما حسب وصفه يتضح أنه اكتفى برؤية المشاهد الثلاثة المزدوجة وليست القبور الأصلية الثلاثة[4].

ولقد أصبحت كنيسة سانت إبراهام من أهم الكنائس الصليبية المقامة في الحرم الإبراهيمي[5] حيث جذبت أعداداً كبيرة من الحجاج، وفي إطار مدينة الخليل يقع ضريح

1) Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen، The Itinerary of Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen Twelfth Century، In Jewish Travellers، P.98.

2) Samuel Ben Samson، Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson، in 1210 A.D.، in Jewish Travellers، P.105; Prawer (J)، The Hebrew Itineraries of the Crusader، P.218.

3) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط. بيروت ١٩٨٧م، ص٧٥؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوروثيا كرافولسكي، ط. بيروت ١٩٨٦م، ص٢١٠.

4) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٧٥.

من الجوانب الهامة التي أوضحها الرحالة المتأخر عن فترة الدراسة ياقوت الحموي قوله: أن القبور كان يحيط بها حيزاً وسور محكم البناء حسن الأعمدة والرخام.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢١٢.

5) Benvenisti (M.)، The Crusaders in the Holy Land، P.345.

يوسف النجار ﷺ(1) جاذباً أنظار جميع الطوائف حتى أصبح يعد من المزارات المهمة بالمدينة، وعلى الراغب في زيارة الضريح أن يهبط بضع درجات عن مستوى سطح الأرض، وفي المعتقدات اليهودية فرفات يوسف النجار توجد في غرفة سفلية من مبنى الضريح القائم(2).

كذلك يوجد في نطاق مدينة الخليل وخارجها أبار اكتسبت قدسيتها من واقع سيرة إبراهيم ﷺ وإسحاق ﷺ، والأنبياء والقديسين من بعدهما، ففي وسط الرياض الممتدة في قلب المدينة يفد الزوار من كل مكان لزيارة ما يعرف باسم "بئر إبراهيم"، وقد حرص بعض الحجاج الصليبيين والزوار اليهود على زيارته(3).

إن بئر إبراهيم ﷺ، يعد من البقاع التي اهتم بها معتنقو الأديان الثلاثة، وهذا أمر طبيعي نظراً لانتسابها إلى إبراهيم أبي الأنبياء ﷺ كما أن هناك بئر السيدة سارة ﷺ الذي جذب أيضا انتباه بعض الزوار خاصة اليهود منهم الذين حددوا موقعة في غربي الخليل(4) خارج مدينة الخليل منطقة تعرف باسم وادي البكاء اهتم الحجاج الصليبيون واليهود بزيارتها معتقدين أن قابيل قتل فيها أخاه هابيل(5).

---

1) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري، كتاب زبدة كشف الممالك، اعتني بتصحيحه بولس راويس، باريس ١٨٩٤م، ص٢٥.

2) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧٩-٨٠؛
Jacques de Veronc، Liber Peregrin، 1335 A.D. in R.O.L، Vol. III، Paris 1895، P.253.

3) Rabbi Petachia of Ratisbon (1170-1187)، The Itinerary of Rabbi Petachia، P.91; Samuel Ben Samson، Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson، P.104-105.

4) Rabbi Petachia of Ratisbon (1170-1187)، The Itinerary of Rabbi Petachia، P.91; Samuel Ben Samson، Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson، P.105.

5) Anoymous Pilgrim II، in Palestine Pilgrims text society، translated by Aubrey Stewart، London 1894، P.11; An account of the location of the places، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.182; second guide, in the Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.242; Prawer (J.)، the Hebrew Itineraries of the crusader period، P.212; علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٩٢.

أما المنطقة الشمالية من إقطاعية الخليل الصليبية فتضم عدة مزارات هامة أشارت إليها المصادر المختلفة نعرض لها حسب ترتيبها انطلاقا من الخليل إذ كان الحجاج الصليبيون يحرصون حينما يخرجون من مدينة الخليل على زيارة منطقة شجرة ممري Mambre(1) التي تعد أحد الشواهد الأساسية المطلوب زيارتها ولذيوع صيت الشجرة فقد عرفت قرية بيت إبراهيم باسم ممري، تلك الشجرة التي تعلو القائم بها، وهي من أشجار البلوط الذي تنتشر زراعته فوق تلال بلاد الخليل، أما الموضع فكان معروفاً باسم تربنتيس *Terbinthus*، كما ذكرها الصليبيون، أما المسلمون فقد عرفوها باسم رامة الخليل(2)، وقد اكتسبت شجرة ممري قدسيتها عند النصارى نظراً لاعتقادهم في أن إبراهيم ﷺ عندما استظل بظلها رأى الملائكة الثلاث هابطين من الطريق ليكونوا في ضيافته(3)، بينما لقيت شجرة ممري إقبالاً من الحجاج اليهود على التوجه إلى زيارتها(4).

ويزعم الصليبيون الذين ارتحلوا إلى الخليل أن الشجرة لا تزال شامخة، تحتفظ برونقها ولونها الأخضر بعد فترة قصيرة من الغزو الصليبي للخليل(5)، ويصف دانيال الروسي المكان بأنه يبعث على زائريه الرهبة، نظراً للقدسية الشديدة التي تكتنفه، وأن الرخام الأبيض يحيط به من كل اتجاه، حيث بدت الشجرة وكأنها تنبثق من خلال الصخر، وفوق التل وبجوار الشجرة وإلى الشرق منها يوجد أساس منزل قديم مستوى البناء، ويضيف دانيال أن موضع هذا المنزل المتهدم هو نفسه مكان الخيمة التي نصبها إبراهيم ﷺ وأقام فيها، أما الشجرة ذاتها فلم تكن كبيرة للغاية إلا أنها كثيفة الأغصان والأوراق، وبها كثير من الثمار، وأن

---

1) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٥٦.

2) ثيودويش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١١٥؛ الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص٢٩؛ العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، بيروت ١٩٧٣م، ص٤٠؛ مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٥، ق٢، ص١٦٣؛
Abbasid Pilgrimage to Hebron، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.56.

3) ثيودويش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١١٥.

4) *Rabbi Petchia of Ratisbon (1170-1187)، the Itinerary of Rabbi Petchia، P.90; Samuel Ben Samson، Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson، P.104-105; Rabbi Jacob، the Messenger of Rabbi Jechiel of Paris (1238-1244)، in Jewish Travellers، P.120.*

5) سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف، ص٤٢.

فروعها متدلية قريبة من الأرض ويتعجب الرحالة الصليبي من بقاء الشجرة على ذلك الحال طيلة القرون السابقة دون أن تفنى، كذلك فهو يرى أن كل الأراضي المجاورة شديدة الخصب لأنها مباركة من الله ﷻ(١)، ويؤكد الرحالة فيتلوس على أن شجرة ممري كانت لا تزال موجودة ولكنها جافة(٢)، وهذا ما أكده رحالة صليبي أخر فذكر أن الشجرة كانت قد جفت، ومع ذلك ظل المكان يحظى باهتمام الأهالي والحجاج(٣).

وعندما ينتهي الزائر الصليبي من زيارة منطقة ممري ويريد التوجه نحو الشمال فإنه يعرج على عين الدوار الواقعة بالقرب من بيت صور على طريق الخليل - بيت المقدس، وقد حظيت العين باهتمام الحجاج، فهناك قام فيليب "وهو أحد حواري المسيح ﵇ الاثنى عشر" بتعميد أحد الحجاج الأحباش، وقد عرف المسيحيون هذا الطقس باسم معمودية التوبة(٤)، وقد تنبه الرحالة المسلم القزويني لهذه الظاهرة فسجلها في مؤلفة وأشار إلى العين قائلاً: "إن ماءها عظيم القدر عند النصارى "(٥)، وبطبيعة الحال اقتصر الاهتمام بهذا المزار على المسيحيين سواء كانوا غربيين أو شرقيين(٦).

وتعد تقوع أحد المراكز الدينية الرئيسية الواقعة شمال الخليل، وقد أولاها المؤرخون والرحالة الصليبيون واليهود اهتماماً ملحوظاً، فأثناء استعراض وليم الصوري للأماكن المقدسة في الشام تعرض للبلدة وذكر أنها بيت الرسولين حبقوق Habococ وعاموس

1) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧٨؛
Daniel the Abbot، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.145-146;
علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٩٣.

2) فيتيلوس، وصف الأرض المقدسة، الموسوعة الشامية، ص٣٤٩.

3) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ص٩٨؛
Anonymous Pilgrim، VI (Pesudo Beda 12th Century)، in Palestine Pilgrims text society، translated by Aubrey Stewart، London 1894، P.38.

4) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٦٠؛
Benvenisti, (M.)، the crusaders in the Holy Land، P.325;
علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٩٥.

5) القزويني، أثار البلاد وأخبار العباد، نشره وقدم له جوتنجن ١٩٤٨م، ص١٥٩.

6) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٩٥.

Amos(١) وهما من أنبياء بني إسرائيل، وقد أشار دانيال الروسي إلى وجود كنيسة بالبلدة أقيمت إحياء لذكرى النبي حبقوق حيث كان يعيش(٢).

ونجد البحر الميت من أهم البقاع التي يرغب الحاج المسيحي(٣) في زيارتها، وقد ملأ أجواف زائريه رعباً، فهو يذكرهم بالمدن الغارقة والذنب الذي أدى بسكانها إلى هذا المصير التعس(٤)، وقد غلب على وصف البحر الميت أنه موطن للشيطان، موحش، ذو رائحة كريهة، ولا يستقر عليه شيء ويبتلع كل شيء حي، حتى أخف الأشياء مثل الأخشاب وغيرها(٥)، وإلى الجنوب من البحر يوجد تمثال من الملح لامرأة النبي لوط ﵇ لا يزال شاخصاً للأعين(٦).

ونجد أيضاً مزاراً آخر في الشرق كان الحجاج يزورونه، يقع على الجبل الكائن في قرية صغر جنوب البحر الميت، حيث اعتقدوا أنه يضم (قبر النبي لوط ﵇)، وقبري ابنتيه والمغارة التي هربوا إليها(٧).

1) William of Tyre، Vol. I، P.340.

2) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسيطين، ص٨٢.

3) Fulcher of Chartres، P.144-145.

4) البحر الميت حيث ينتهي فيه نهر الأردن، وهناك كان يوجد أربعة مدن "صادوم"، "عمورة"، "أدما"، و"زيبويم"، والذين تهدموا من زمن بعيد، والبحر الميت يسمى هكذا، لأنه ليس هناك شيئاً حياً يمكنه العيش فيه، ولا حتى سمكة يمكنها أن تسبح أو تعيش هناك، ولا كائن حي يمكنه أن يشرب منه، وإن طار أي طائر فوق هذا البحر فسوف يسقط تلقائياً ويموت، وهذا البحر يسمى نهر الشيطان،
Anonymous Pilgrim ,VI (Pseudo Bedo 12th Century), in Palestine Pilgrims text society, P.39; Guide in Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.217; Henry L. Savage, Pilgrimes and Pilgrim Shrines in Palestine and Syria after 1095 in Setton, A History of the Crusades, Vol. IV,U.S.A 1977, P.59-60;
علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٢٩٨.

5) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٧١؛ فيتيلوس، وصف الأرض المقدسة، الموسوعة الشامية، ص٣٥١؛ ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١١٦.

6) فيتلوس، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص351؛ ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١١٦.

7) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٨٠-٨١؛ فيتيلوس، وصف الأرض المقدسة، الموسوعة

وقد سمح صلاح الدين للحجاج كافة بزيارة المزارات المقدسة، وذلك وفق صلح الرملة في الأول من سبتمبر ١١٩٢م/ العشرين من شعبان ٥٨٨هـ[١] ونظراً للارتباط الوثيق بين الحرمين الأقصى والإبراهيمي يصح الاعتقاد في ما اتبع بخصوص بيت المقدس يكون قد طبق بالنسبة للخليل، وعلى ذلك فقد سمح بزيارة الحجاج الصليبين، وكان على كل حاج تقديم رسم دخول مقابل كل زيارة يقوم بها للحرم الإبراهيمي، واستمر هذا الوضع طيلة عصر الأيوبيين في بلاد الخليل[٢]، وتؤكد الزيارات التي قام بها الرحالة الصليبيون إلى الخليل أثناء ذلك العصر روح التسامح التي غلبت على معاملات المسلمين للصليبيين رغم استمرار الحرب معهم في كثير من الأحيان[٣].

أما فيما يتعلق بالزوار اليهود للأماكن المقدسة فيذكر الربي اليهودي صموئيل بن شمشون حينما قام بزيارة الحرم الإبراهيمي "تهيأت أمامنا فرصة الهبوط إلى مغارة الدفن بمصاحبة الربي الصياغ اليهودي ابن سعدية، وذلك بعد الحصول على تصريح مختوم من سلطان المسلمين (الخليفة العباسي) حمله أحد الأمراء ورافق اليهوديين أثناء الزيارة، ولولا هذا التصريح ما سمح لها بالهبوط "[٤]، وأغلب الظن أن صموائيل بن شمشون تمكن من إتمام زيارته بعد تدخل الرابي ابن سعدية لدى السلطات الإسلامية للحصول على التصريح، ويفهم من هذه الزيارة أنه بعد استرداد المسلمين للخليل اقتصرت زيارة أهل الذمة على المشاهد العلوية، في حين استلزم هبوط سلم المغارة تصريحاً مختوماً من الخليفة العباسي نفسه، وهذا بدوره يعني أن المسلمين تعاملوا بروح من التسامح مع أصحاب الديانات الأخرى

الشامية، ص٣٥٢.

1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٦٠٧-٦٠٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢١٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج٢، القاهرة ١٩٥٣م، ص٤٠٢-٤٠٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، القاهرة ١٩٦٣م، ص٨٩٦-٨٩٩.

2) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، ص٢٣٠؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى زيادة، ج١، ق٢، القاهرة ١٩٣٦م، ص٥٤٤.

3) يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٧١-٧٢؛ علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٣٠٩.

4) Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Samson, P.104-105.

بشكل لم نره في معاملة الصليبيين لهم[١].

أما في عهد السلطان بيبرس ٦٥٩-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م فقد قام عز الدين الحلبي نائب السلطان بزيارة الخليل في الفترة الواقعة من أكتوبر - ديسمبر ١٢٦٧م/صفر - ربيع الأخر ٦٦٦هـ[٢]، والواضح أن الزيارة كانت بإيعاز من بيبرس بغرض تقصي أوضاع الخليل، وذلك أن السلطان قام بزيارة الحرم الخليلي بنفسه[٣]، وقد "بلغه أن اليهود والنصارى.... ويؤخذ منهم حقوق عن زيارة الخليل والنزول إلى المغارة بنجسهم، فأنكر ذلك وكتب مرسوماً يمنعهم من دخول المقام الشريف واستمر الأمر في ذلك"[٤].

ويخبرنا الرحالة الصليبي بورشارد أنه تمكن من زيارة الخليل وحرمها حوالي عام ١٢٨٣م/ ٦٨٢هـ[٥]، وعبر الرحالة الصليبي ريكولدو دي مونت - كروتشى عن غضبه بسبب تطبيق هذا القرار حيث منعه المسلمون من الدخول إلى الحرم خلال زيارته للأراضي المقدسة في تلك الأثناء أو بعدها بسنوات، ولكنه عاود المحاولة فلم يسمح إلا بالصلاة

---

1) علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٣١٠.

2) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٨٧م، ص٦٧؛ اليونيني، مرآة الجنان، ج٢، حيدر أباد - الهند ١٩٥٠م، ص٢٧٣.

3) عندما تولى السلطنة الظاهر بيبرس زار بيت المقدس عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م)، وجدد كل ما كان قد تهدم من أبنية الحرم الشريف، كما أنشأ خاناً يجمع أكبر عدد ممكن من التجار، وأوقف عليه أعياناً كثيرة يصرف ريعها السنوي في تحضير خبز للمسافرين وتصليح نعالهم، كما يقدم مصروفاً للمحتاجين منهم، كما عين خمسة آلاف درهم سنوياً لتصرف على شئون الحرم الشريف. السيوطي، اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد، القسم الثاني، ص١٨٦.

4) المقريزي، السلوك، ج١، ق٤، ص٥٤٤.

في عهد الظاهر بيبرس تم صيانة وترميم المزارات في بلاد الشام، ومصر، والحجاز، وتحت إشرافه كان صيانة المسجد فوق كهف البطاركة في الخليل، ومقابر يوسف عليه السلام في نابلس، وموسى عليه السلام في أريحا.

Josef W. Meri, the Cult of Saint Among Muslims and Jews in Medieval Syria, Oxford 2002, P.259.

5) قد بنى المسلمون قلعة رائعة قوية حول هذا الكهف المزدوج، الذي يوجد داخله مقر الأسقف، وقد رأيت على جدرانها أحجاراً يبلغ حجمها ستة وعشرين قدماً، وثمانية وعشرين قدماً، وثلاثين قدماً ولم أرى مكان قوي مثل هذا بنى على سطح أرضية جافة، وقد زرت قبور الأنبياء هناك، وأقمت به ليلة واحدة. بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص١٥٩.

خارج المبنى(١).

كما كان نهر الأردن من الأماكن الهامة والأساسية لزيارة الحجاج فقد وجه ملوك بيت المقدس اهتماماً خاصاً إلى نهر الأردن لما عرف عنه بأهميته الدينية وما امتاز به من طابع تقديسي، لأن الحجاج والمواطنين كانوا ميالين إلى غسل أجسادهم وملابسهم بورع في مياه نهر الأردن اقتداء بمخلصهم كما يعتقد المسيحيون الذين قد تم تعميدهم على يد القديس يوحنا المعمدان في مياه ذلك النهر(٢)، ومن ثم فقد مثل هذا النهر إحدى المزارات الدينية الهامة، والتي يلجأ إليها الحجاج ضمن رحلتهم المقدسة إلى المملكة الصليبية.

وكان من اليسير على الحاج الوصول إلى أحد الأماكن الأكثر شهرة ألا وهو المكان التقليدي الذي عمد فيه المسيح في نهر الأردن، وهنا ووسط احتفالات خاصة كان الحاج يستحم في مياه نهر الأردن، وكان هذا الاستحمام من أهم مظاهر أعمال الحج(٣)، حيث يقوم

---

1) Ricoldo de Monte-Croce، lettres de – Ricoldo de Monto-Croce, 1280-1300 A.D., ed Rohrict (R.), in A.O.L.، Vol. II، Paris 1884، P.278;

علي أحمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي، ص٣١٠.

2) Anonymous Pilgrims، Palestine Society, Translated by Aubrey Stewart، Vol.I، London 1894، P.3; Anonymous Pilgrims, Palestine Pilgrims Society، Translated by Aubrey Stewart، Vol. IV، London 1894، P.19; Daniel the Abbot, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.138; An Account of the Location of the Places، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.190;

دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٦٥؛ يوحنا فوزربورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص٩٤؛ يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ص٦٦؛ سماح عبد المنعم السلاوى،الأوضاع الحضارية في مصر واالشام في العصر المملوكى، ص ٢٢٣.

3) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٥٥.

"جئنا إلى هذا المكان لغرض الصلاة، وأردنا الاغتسال في الأردن، والقيام بما تبقى من زياراتنا، ووصلنا بعد غروب الشمس، عندما كاد الظلام أن يبدأ، وبالقاء نظرة عامة على هذا السهل كان بإمكاننا أن نرى حسب تقديرنا للأعداد حوالي ستون ألف شخص هنا، ومعظمهم تقريباً يحملون الشموع بأيديهم، هؤلاء الناس كان من الممكن أن يراهم أيضاً الوثنيون الذين يقيمون في جبال العربيا عبر الأردن، هذا معناه أن هناك عدد كبير من الحجاج كانوا موجودين الآن في القدس والذين جاءوا إلى هنا حديثاً في المكان الذي عمد فيه المسيح من حنا، هناك صخرة كبيرة والتي يقال أن مخلصنا (السيد المسيح) وقف عليها خلال عماده.

Theoderic, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.304-305;

الحاج بغسل جسمه بالكامل في نهر الأردن، ففي عهد الملك بلدوين الأول تم اصطحاب ملك النرويج سيجور إلى نهر الأردن وذلك من أجل تعميده في مياه ذلك النهر(١). ويروى أن الأميرة الروسية "يوفروسيني"(٢) التي أتت في عهد الملك عموري الأول لم تستطع أن تتوجه إلى نهر الأردن، ولكن أحدى زميلاتها أحضرت لها بعض المياه من نهر الأردن واستقبلت القديسة الماء بكل سرور فشربت جزء منه وسكبت جزء آخر على كل جسمها، كحركة رمزية عن غسلها من التلوثات الماضية(٣).

ومن هذا المكان كان الحاج يحصل على سعف النخيل(٤) الذي يحمله معه إلى وطنه في أوروبا بعد انتهاء فترة الحج، وفي أوروبا كانت مثل هذه الأشياء التي يحملها معه الحاج من الأراضي المقدسة إلى وطنه تكسبه لقب "الحاج المسعف Palmer"، وكان الحاج يحمل معه أيضاً قارورة مملوءة بالماء من مياه نهر الأردن(٥).

أما عن طقوس الحج فكان يجب على الحاج أن يرتب أموره الحياتية، يأخذ معه علامات سفره، وهو عصاه وبؤجته، وأيضاً علامة مكملة لها، وهو ذقنه وشعره، اللذان يتوجب عليه أن يتركهما ينموان، وقبل أن يقوم الكاهن بقراءة نصوص المباركة، وتكريس هذين الشيئين، فإن القاصد للحج، يكون قد سجى أمام المذبح، بينما يقوم الكاهن بتلاوة مزامير الغفران، ويمكننا ملاحظة التشابه ما بين العصا والبؤجة في القرنين أو الثلاثة قرون الأخيرة السابقة

ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص١٠٨.

1) *The Sage of Sigurd the Crusader (1107-1110), in Wright Early Travels in Palestine, London 1898, P.56;*

محمد مؤنس عوض، عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص٨٤.

2) *Euphrosine, Pelerinage au Palestine de L'Abbesse Euphrosine, p.32;*

محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ص ٣٥.

3) Edmond-Réne Labande, Recherches Sur les Pelerins dans I Europe des IIe et 12e Siecles, Spirtualité et vie Littéraire de L'Occident، XE-XIVES., London 1974، P.340.

4) Edmond-Réne Labande, Les Pèlerin Ages Chrétiens a travers les âges, Spiritualité et vie Littéraire de L'Occident، XE-XIVES., London 1974,P. 121-122.

5) يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٥٥.

لقيام الحركة الصليبية وبين أسلحة الفارس بداية من الاستعداد لحركة الحج بعد مجمع كليرمونت ١٠٩٥م في صورة الحملة الشعبية وحملة الأمراء وحتى أواخر القرن الثالث عشر. فالعصا تتيح للمسافر استبعاد اعتداء الشيطان عليه، حتى يصل بخير وسلامة إلى مبتغاة، وسيف الفارس يسمح له بالانتصار على أعدائه (في صورة الحج المسلح): إذن، فالعصا هي السيف الروحاني للحاج، وكان الحاج قبل رحيله يطلب بركة من مطرانه وبركة خاصة من القديسين بمنطقته، ومن كنيسته ينطلق في رحلته، دون العودة إلى منزله، وهناك البعض يبدأ رحلة الحج بالمشي حافياً لمنطقة قريبة، وسوف تستمر هذه العادة حتى القرن الثالث عشر(١).

أما الحاج الذي كان يقوم بعمل تكفيري فقبل انطلاقه في الطريق، يحصل على مباركة كنيسية خاصة: فيرتدي لباس العقاب، ومعه قبعة ذات حرف عريض، ولابساً حافظ للطعام عبر كتفه، ويحمل بيده عصا عالية بعقبة حديدية، وكان يبارك كالتالي "استلم هذه العصا، لتكن سند لك في سفرتك، وفي متاعب الطريق، وحتى تستطيع القضاء على جحافل الأعداء، وحتى تصل بصحة وسلامة إلى غايتك"، وقبل سفره ينصح الحاج بأن يضع نفسه على حال النعمة، وأن ينظم أموره المهنية، وأن يرد المال الذي حصل عليه بالحرام، وأن يؤمن معيشة عائلته أثناء غيابه، وأن يحسن للفقير، وأن يجنب المال اللازم للطريق الذي كان طويلاً ومكلفاً(٢).

الحج وفق خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقى في مؤتمر "كليمونت" والذي اقتبس من متى قوله: "إن أراد رجل أن يتبعني فلينكر نفسه، ويأخذ صليبه ويتبعني"، وربما أدى هذا إلى رفع حقيقة أن حجاج القدس كانوا يرتدون صلباناً بانتظام، وبعضهم حمل صلباناً خشبية من نفس بلدانهم إلى القدس والتي كانوا ينصبوها على جبل الصلب، إذا الموقف الذهني للحاج كان شعاره حمل الصليب إلى أعلى تقليداً لسيد المسيح عليه السلام، أو باستخدام مصطلح أكثر حداثة، هو الطريق الذي في نهايته يكون أمام الأرض التي صلب فيها السيد المسيح(٣).

---

1) Edmond-Réne Labande، Recherches sur les Pelerins dans L'Europe des XIe et Siecles، Spiritualité et Vie Littéraive de L'Occident، Xe-XIVS., London 1974، P.168.

2) Edmond-Réne Labande، les Pereringes Chretiens a travers les ages، Spiritualité et vie Littéraire de L'Occident، P.105.

3) The way of Cross and the Templars، in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185، P.73-74.

كان على الحجاج الشرقيين أن يتمتعوا بصحة جيدة، فلم يكن الاحتفال بالطقوس في القدس مقصوراً على إنشاد الترانيم، أو الاستمتاع إلى الخطب والمواعظ، بل كان على الحجاج أن يقضوا أياماً وليالي واقفين أو سائرين وهم يتنقلون بين الأماكن المقدسة وقد احتفلوا بأسبوع عيد الميلاد، الذي يبدأ يوم ٦ يناير بالسير في موكب رزين كل ليلة من بيت لحم إلى أورشليم. ولم يكونوا يصلون إلى القبر، الذي أصبح محاطاً بمبنى أناستاسيس الدائري، والذي كان قد اكتمل بناؤه منذ عهد جديد، قبل بزوغ الفجر، ولم يكونوا ينعمون بعدها إلا بفترة راحة قصيرة، ثم يحضرون صلاة تستمر أربعة ساعات، وكانت الجماهير تتجمع في عصر أحد السعف في كنيسة إليونا على جبل الزيتون للصلاة، تتلوها مسيرة إلى سفح الجبل، ثم يعبروا وادي قدرون، عائدين إلى المدينة(١).

وكان الأسقف يسير خلف الموكب راكباً حماره على نحو ما فعل يسوع عليه السلام عند دخوله القدس، والأطفال يلوحون بسعف النخيل وأغصان الزيتون، وتنشد الجموع ترانيمها، مرددين بين الحين والحين **"مبارك من يأتي هنا باسم الرب"** أن الموكب كان يتقدم ببطء حتى لا يصاب المشاركون بالإرهاق، كان احتفال العنصرة مرهقاً بصفة خاصة، فكان الأسقف يقوم بعد القربان المقدس المعهود في يوم الأحد، بالسير على رأس موكب إلى كنيسة صهيون للاحتفال بتنزل الروح القدس "في الموقع نفسه"، ولكن الجماهير لم تكن تكتفي بذلك بل كانت تقضي ما بقى من ساعات العصر في الصعود إلى قمة جبل الزيتون، إحياء لذكرى الصعود إلى السماء. وكان المشاركون بعد ذلك يسيرون ببطء ورفق عائدين إلى المدينة، ويتوقفون عند كنيسة إليونة لصلاة المغرب، وهي صلاة المساء في كنيسة الشهيدة التي بناها قسطنطين ثم يصلون صلاة منتصف الليل في كنيسة صهيون المقدسة(٢).

كان الحجاج في الأسبوع الذي يسبق عيد القيامة (عيد الفصح) يقرؤون ما جاء في الإنجيل عن خيانة يهود ليسوع، وعن عشائه الأخير، وعن القبض عليه، كانت الجماهير عند سماعها هذا في كنيسة الجسمانية تصرخ باكية، ومنذ أن أنشأ قسطنطين أورشليم الجديدة، وصخرة جلجثة قائمة بجوار القبر، وكانت الناس تصلي صلاتين منفصلتين، إحداهما عند

---

1) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٤-٣٣٥.

2) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٥.

الصخرة والأخرى في كنيسة أنستاسيوس مما جعلهم يعتادون تأمل حادث الصلب باعتباره حادثاً منفصلاً ومتميزاً. وكان الحجاج في يوم الجمعة الحزينة يسيرون واحداً بعد الأخر إلى الكنيسة الصغيرة القائمة خلف الصخرة لتقبيل أثر الصليب الحقيقي(١).

وكانت قد بدأت لدى الحجاج نزعة روحية تتوسل بحاسة اللمس، فكانوا يريدون أن يلمسوا الأحجار التي مست جسد السيد المسيح عليه السلام وأن يقبلوها بل ويلعقوها وعندما وصلت بولا، تلميذة جيروم إلى المقبرة، قامت أولاً بتقبيل الحجر الذي تدحرج خارج الكهف في صبيحة "أحد القيامة" إن الدافع الرئيسي الذي يجتذب الناس إلى القدس هو الرغبة في مشاهدة ولمس الأماكن التي يحضرها المسيح عليه السلام بجسده، كان المسيحيون يشعرون بالقوة الإلهية عندما يلمسون عظام الشهداء التي تجسد قداستهم(٢).

يبدأ الحجاج بعد ذلك في العودة إلى ديارهم حاملين قطعاً من الصخور أو بعض التراب أو بعض زيت مصابيح الأماكن المقدسة، بل إن أحد الحجاج بلغ يه الحماس أن قضم قطعة من الصليب الحقيقي عندما قبله في يوم الجمعة الحزينة. كان الناس يريدون أن يمتد تأثير قداسة القدس إلى أوطانهم ويتوافر في بلد كل منهم(٣).

بقيت القدس المدينة الوحيدة المحرمة على اليهود حيث تم فتحها على يد صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة الموافق ٢٧رجب ٥٨٣هـ/ ٢أكتوبر ١١٨٧م وقد سمح لليهود بالهجرة والسكن فيها وأظهر لهم التسامح والعفو(٤).

وفي هذا الإطار استجاب عدد كبير من يهود العالم لهذا النداء، وازدادت رحلات الحج اليهودية في هذه الفترة إلى الأماكن المقدسة، حيث وصلت أعداد لا بأس بها من يهود المشرق، وبيزنطة، وأسبانيا، وحتى فرنسا، ويمكن إرجاع ذلك كله ولو بشكل جزئي إلى سهولة وكثرة وسائل الاتصال الجديدة في ذلك الوقت، والتي ربطت المسيحية بالأرض

---

1) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٥-٣٣٧.

2) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٧.

3) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٨.

4) رياض مصطفى أحمد شاهين، أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي لبلاد الشام، مجلة التاريخ والمستقبل، المنيا يناير ٢٠٠٦م، ص٩١؛ عطية القوصي، صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية، العدد٢٤، القاهرة ١٩٧٧م.

المقدسة، ويمكن إرجاع تنامي حركة الحج اليهودية بشكل جيد كما يرى براور من خلال حقيقة مؤداها أن المصادر اليهودية الحاخامية لتلك الفترة كانت تلزم المرأة اليهودية تحت وطأة عقوبة الطلاق وفقد الصداق، على أن تطيع زوجها إذا ما قرر الهجرة والاستقرار في فلسطين، إلا أن المفسرين لليهود وعلماء المدرسة التفسيرية للمشنا(١) والتوراة قاموا بتعطيل هذا القانون بشكل مؤقت، اعتقاداً منهم بأن بداية نشاة المملكة اللاتينية كانت تمثل خطراً على أولئك الذين يقطنونها، وذلك لأن الأخطار كانت تحدق بهذه المملكة الناشئة من كل جانب، ومع نهاية القرن الثاني عشر الميلادي تغير هذا القانون وتم الرجوع إلى وضعه التلمودي واختار الحجاج اليهود الإقامة إلى جانب الجماعات الموجودة أصلاً بحرية تامة في المناطق الصليبية فيما يسمى بـ"منازل أو منزل اليهود"(٢).

كان الحجاج اليهود يبدأون بالطواف حول أسوار المدينة، ويقومون بالصلاة عند بوابات الحرم، كما كانوا يفعلون في القدم. ثم بعد ذلك يقومون بتسلق جبل الزيتون وهم يرتلون المزامير أثناء صعودهم، فقد كانوا يقفون "متوجهين" نحو المعبد في أيام عطلتهم، أي نحو مكان الحضور المقدس، ومسند قدميه، ورغم المظهر الحزين للمعبد وهو مغطى بالمباني الإسلامية (كما كان اليهود يرونه) فقد كانت المسيرات اليهودية العارمة على جبل الزيتون فرحة ومبهجة وكانوا يحبون التجمع حول حجر كبير على الجبل قبل مغادرتهم المدينة اعتقاداً منهم أن له حضور إلهي(٣).

خلاصة القول، اهتم الملوك الصليبيين برعاية الحجاج الصليبيين وتمثل ذلك في مستشفى الإسبتارية، فقد زاد عدد المترددين عليها من الحجاج نتيجة للعمليات الحربية التي قاموا بها ضد المسلمين في الشرق.

---

1) المشنا: كلمة عبرية، وهو كتاب فقهي بمنزلة التفسير للتوراة، ولكن للربائيين اعتقاد خاص فيه، وهو أنه سنة عن موسى عليه السلام أوصى بها الله إليه أثناء الأيام الأربعين التي قضاها في سيناء، وأمره ألا يكتبها وأن يلقيها شفوياً، ولذا فهي تعرف بالتوراة الشفوية، وقد سميت المشناه، بمعنى الثانية بالنسبة للتوراة المكتوبة، ويقع المشناه في ستة أسفار.
رياض مصطفى أحمد شاهين، أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي، ص٩٠.

2) براور، الإستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٨٨.

3) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ص٣٣٨.

أما فيما يختص بأهم المزارات فنجد مدينة بيت المقدس فترة الاحتلال الصليبي كان لها خمس بوابات رئيسية، وعدد من الأبواب الصغيرة، أو المداخل والتي وصل عددها إلى ثمانية، واهتم الصليبيون بالمقدسات المسيحية وخصوصاً كنيسة القيامة (الضريح المقدس) التي كانت تقع وسط مدينة بيت المقدس، وهي أهم مركز روحي للمسيحية لما لها من مكانة عظيمة، فهي مركز تدفق أكبر عدد من الحجاج المسيحيين عليها، وتعتبر كنيسة القديسة حنة من أهم الكنائس داخل أسوار مدينة بيت المقدس الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بركة الغنم إلى جوار بوابة يهوشافاط، ولقد أعاد بناءها الصليبيون في القرن الحادي عشر الميلادي وأضافوا إليها ديراً للراهبات.

ونجد من الأديرة التي احتلت مكانة كبيرة في بيت المقدس دير القديس ساباس Monastry of st. Sabas، وقد ذكر عنه الرحالة سايولف أنه بالغ الجمال والاتساع، أما فيما يختص بالناصرة فكانت كنيسة البشارة من أهم المزارات التي يقصدها الحجاج، بالإضافة إلى الخليل التي كانت تشتغل حيزاً أساسياً من الأرض التي اعتبرها معتنقو الأديان السماوية الثلاثة أراضي مقدسة باركها الله، فنجد اليهود ارتبطوا في أعيادهم وطقوسهم منذ القدم بالحرم الإبراهيمي، فهم يعتقدون في أن إبراهيم عليه السلام يعد الأب الأكبر للسلالة العبرانية، ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل الذي ينتسب إليه الأسباط اليهود الاثنا عشر.

أما عن طقوس الحج فكان الاحتفال بها في القدس مقصوراً على إنشاد الترانيم، أو الاستماع إلى الخطب والمواعظ، بل كان على الحجاج أن يقضوا أياماً وليالي واقفين أو سائرين وهم يتنقلون بين الأماكن المقدسة بالإضافة إلى التعميد في مياه نهر الأردن اقتداء بالسيد المسيح عليه السلام، ومن هذا المكان كان الحاج يحصل على سعف النخيل الذي يحمله معه إلى وطنه في أوروبا بعد انتهاء فترة الحج.

الفصل الرابع

الآثار المترتبة على حركة الحج إلى الأراضي المقدسة

يتناول هذا الفصل بالدراسة الآثار المترتبة على حركة الحج إلى الأراضي المقدسة، ويعمل على إلقاء الضوء على الآثار: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والحربية، والدينية.

فعلى صعيد الأثر السياسي لحركة الحج، فقد خضع بيت المقدس والناصرة لحالة من التخاذل والصراع حكمت العلاقات الإسلامية الصليبية عموماً، فدخلت حيناً في حكم الصليبيين، واستقرت أحياناً في أيدي المسلمين، وبين هذه الحالة وتلك، نشأت عهود بين الطرفين راعت أوضاع بيت المقدس والناصرة، وسهلت طريق قوافل الحج إليها ضمنتها اتفاقيات وهدن ما انفكت تنعقد بين المسلمين والصليبيين، حتى في أوج مراحل المواجهة واستمرت مفاعيلها قائمة إلى أن تم إخراج الصليبيين من الشرق[1].

أولى الاتفاقيات حول وضع الأماكن المقدسة في فلسطين عقدها السلطان صلاح الدين، إثر استعادته بيت المقدس والأراضي الفلسطينية الأخرى من الصليبيين في أعقاب معركة حطين، في ٢٤ربيع الأخر عام ٥٨٣ هـ/١١٨٧م، فضرب مثالاً في التسامح عندما أمر بعدم التعرض لدور العبادة المسيحية في القدس والناصرة.

كما نص صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين مع الملك ريتشارد Richard Coeur de lion في ٢٢شعبان ٥٨٨هـ/ الثاني من سبتمبر ١١٩٢م[2] على ضمان حرية انتقال

[1]) أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢١.

[2]) تقضي المعاهدة بأن تكون ثلاث سنوات وثلاثة أشهر انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م، ص٢٣٢-٢٣٤؛ أبو شامة، عيون الوضيتن في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومى، القسم الثاني، دمشق ١٩٩٢م، ص٢٧٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج٢، ص٤٠٣؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، القاهرة ١٩٣٤م، ص١١٠؛ ابن كثير البداية والنهاية، ج١٢، ط. القاهرة ١٩٣٢ م، ص٣٥٠-٣٥١؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦،ط. بيروت١٩٩٢م، ص١٠٦؛ أحمد بن الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٨٠؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ط٦ القاهرة ١٩٩٤م، ص٧٠٧؛ يوسف حسن غوانمة، معاهدات الصلح بين المسلمين والفرنج، ط. عمان ١٩٩٥م، ص٤١؛ فاروق عمر فوزي ومحسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ط. عمان ١٩٩٩م، ص٢١٣؛ ميشيل بالدر، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعي، ط. القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٠١؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم، بيت

الحجاج المسيحيين إلى القدس والناصرة وغيرها من الأراضي المقدسة الخاضعة للمسلمين، وأن لا يفرض عليهم أية ضريبة أو رسم مقابل ذلك[1] وأعلن صلاح الدين أثر توقيع الصلح: "أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل فليفعل"[2].

وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى -كعادته- بروح التسامح التي ميزت معاملاته للصليبيين، فقبل طلباً من هوبرت أسقف سالزبوري بتعين اثنين من رجال الدين الكاثوليك اللاتين في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة، وذلك إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال دين أرثوذكس، وسريان، ويعاقبة[3] على الرغم من أن هذا الطلب لم يكن ضمن بنود الصلح، لكن قادة المسلمين والصليبيين كانوا مدركين تماما للمتغيرات الجديدة على الساحة، ومن هنا كانت مواقفهم تتسم بالمرونة والانفتاح والدعوة إلى الاختلاط[4].

ولم تلبث أن عادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين، فأقبل الحجاج المسيحيون على بيت

المقدس في العصر الأيوبي (٥٦٧-٦٤٨ هـ/ ١١٧١-١٢٥٠)، ط. القاهرة ١٩٨٩م، ص١٣٣؛ إبراهيم سعيد فهيم يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٧٢-١٧٣؛

"The Third Crusade Richard the Lionhearted and Philip Augustus" in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, P.85, Stevenson.(W.R), The Crusaders in the East, Beirt 1968, P.286.

[1]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢١٨؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٢٣٥.

[2]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٥؛ ابن شداد النوادر، السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص٢٣٥؛ أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ص٢٧٢؛ المقريزي، كتاب السلوك، ج١، ق١، ص١١٠؛ فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٤٠٣هـ، ص٢٤٢.

[3]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ط. القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٦٩؛ يوسف حسن غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ص٤٣.

[4]) فاروق عمر فوزي ومحسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي والوسيط، ص٢١٣؛

Grousset(R.),Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jérusalem,Tom.III, Paris 1936, P.118.

المقدس آمنين، وأخذ النشاط يدب في طرق التجارة، واختلط الجانبان، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، ووصل عدد كبير من الحجاج إلى القدس(١).

وعندما علم ريتشارد(٢) بكثرة من يزور بيت المقدس من الحجاج الصليبيين، خشي أن يغضب صلاح الدين لذلك "سير إلى السلطان يسأله منع الزوار(٣) واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه"، ولكن صلاح الدين أبى ذلك، حتى قيل إن السلطان بالغ في إكرام وفادة هؤلاء الحجاج، وأرسل معهم الخفراء يحفظونهم في ذهابهم وإيابهم على حد تعبير أبي شامة(٤).

وكان ذلك ضرورياً في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الغزو الصليبي لإثبات مدى التسامح الإسلامي لهذه المقدسات من جانب الحكام المسلمين، ومن ناحية أخرى استمرت حركة تدفق هؤلاء الحجاج إلى الأراضي المقدسة، في ظل عودة سيادة الحكم الإسلامي على هذه الأراضي، بعدما يقرب من قرب من الزمان من هذا الغزو.

ونهج السلطان العادل الأيوبي ٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م نهج أخيه صلاح الدين في رعاية الحج الأوروبي إلى فلسطين، ويظهر ذلك ما تضمنته الاتفاقية التي عقدها العادل مع

---

1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين بن أيوب، ص٢٦٩؛ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص١٥٧؛
Grousset(R.), Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jérusalem,vol.III, P.118.

2) عن ريتشارد والحملة الثالثة وتاريخه انظر:
Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de lion, in chronicles of the crusades, London 1908; Geoffrey of Vinsauf, crusade of Richard Coeur de lion, in Chroicles of the Crusades, London 1908; Ambroise,The Crusade of Richard Heart of lion, Trans by Hubert, New York 1943;
زينب عبد القوي، الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م، ط. القاهرة ١٩٩٦م، ص١٢٢-١٣٧.

3) الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، الجزء الثاني، ترجمة حسن حبشي، ط. القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢٦٨؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، ط. القاهرة ٢٠٠٣، ص٦١٠.

4) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ص٢٧٣.

عموري الثاني Amaury II، ملك القدس ٦٠١هـ/١٢٠٤م ملتزماً بتيسير أمور الحجاج القاصدين إلى بيت المقدس والناصرة(١).

أما معاهدة يافا(٢) التي عقدت بين الكامل محمد(٣) والإمبراطور فردريك الثاني ٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م في فبراير عام ١٢٢٩م / الثامن عشر من عام ٦٢٦هـ والتي أسفرت عن تنازل الكامل للصليبيين عن المقدسات المسيحية في المدن الثلاث: القدس، بيت لحم، والناصرة(٤)، فضلاً عن منطقة الجليل ومقاطعة تبنين، وشريط من الأرض يخترق اللد، وينتهي عند مدينة يافا، قد أثار استياءاً عارماً لدى المسلمين(٥)، فإن هذا الصلح قد أثار في الوقت نفسه اعتراضاً واسعاً في الأوساط الأوروبية، عبرت عنه رسالة بعث بها البطريرك جيرولد Gérold إلى البابا بعد أسبوع واحد تقريباً على توقيع اتفاقية الصلح، ضمنها

---

1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٩١؛ أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات المدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢١.

2) عن معاهدة يافا انظر: ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج٣ ط. دمشق ١٩٦٨م، ص٢٠٥؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ق١، ج١، ص٢٣٠-٢٣٢؛ ابن أيبك الدواداري، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، ط. القاهرة ١٩٧٢م، ص٢٩٢؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، تحقيق سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢١، دمشق ١٩٩٥، ص٤٢٦؛ أحمد رمضان، "العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى"، ط. القاهرة ب.ت، ص١٧٩؛ عفاف سيد صبره، الإمبراطور والدولة في عهدي فردريك الثاني ولويس التاسع، عدد١، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، السعودية ١٩٨٤م؛ رأفت عبد الحميد، "الملك الكامل بين الإفراط والتفريط في مواجهة الصليبيين"، ضمن كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م، ص١٢٥-٢٠١؛ عادل عبد الحافظ حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٢٣-٣٢٤.

3) الملك الكامل: هو أبو المعالي محمد بن الملك العادل، الملقب بالملك الكامل ناصر الدين، ثاني أكبر أبناء الملك العادل، ولد عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م)، حكم مصر في حياة أبيه، وبويع له بالحكم عقب وفاة والده، تصدى للحملة الصليبية الخامسة عام ٦١٥هـ (١٢١٨م)، دخل في صراع مع إخوته مما اضطره إلى تسليم القدس للإمبراطور فردريك الثاني عام ٦٢٥هـ (١٢٢٨م)، وتوفي يوم الخميس ٢٢من رجب ٦٣٥هـ (١٢٣٧م). عنه انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص١٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م، ص٧٤-٧٩.

4) Philip of Novara, The Crusade of Frederick II, in Christian Society and the Crusades 1198-1229, Tr. Gavigan, Ed. Peters, Philadelphia, 1971, P.157.

5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٣، ٢٤٥-٢٤٦.

ملاحظاته عليها، وقد أبرز براور Prawer ذلك بقوله:

على الرغم من أن الممر الساحلي الضيق الممتد من بيروت إلى يافا أضحى بأيدي الصليبيين، فإن صلح يافا أوجد جزراً سياسية مسيحية منعزلة في محيط إسلامي واسع، ومنها الطريق بين عكا والناصرة ومدينة الناصرة نفسها، ومنطقة الجليل الأعلى حتى حدود تبنين، مما يعني أن حرية الحركة على طريق الحج إلى الأماكن المقدسة، وبخاصة من الشمال حيث منطقة عكا – الناصرة ومن الجنوب حيث نابلس ومنطقتها، باتت محكومة بالتوافق الإسلامي – الصليبي[1]، فإذا كان صحيحاً أن صلح يافا حقق كسباً كبيراً للإمبراطور الألماني بفوزه بالقدس والناصرة في مقابل كلفة ضئيلة، إلا أن وجود أرض حبيسة من ضمن المناطق التي حصل عليها الإمبراطور أضعف من قيمة مكاسبه، وقلل من أهميتها الإستراتيجية، لاسيما وأن السلطان الكامل سلم الإمبراطور فردريك القدس مدمرة واشترط عليه عدم تجديد أسوارها[2]. على أن يحتفظ الكامل بحق الإشراف على المسجد الأقصى وقبة الصخرة ولا يدخلها الصليبيين إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين[3].

ومنذ ذلك الحين، خضعت الناصرة وبيت لحم واللد وتبنين والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا للصليبيين[4]. أما يافا فقد نصت الاتفاقية على السماح للصليبيين بتحصينها على أن يتسلم الإمبراطور ممراً يصل بيت المقدس وبيت لحم بميناء يافا، لضمان حرية وأمان الحجاج في النهاية، والعودة من يافا إلى الأماكن المقدسة[5].

---

1) Prawer, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, Vol. II, P.202-203;
أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٢.

2) إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ط. الإسكندرية ١٩٨٨م، ص٩٥.

3) ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ط. بيروت ١٩٧٠م، ص٢٢٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٣٠؛ ب.م هولت، عصر الحروب الصليبية، تاريخ الشرق الأدنى من القرن الحادي عشر حتى عام ١٥١٧م، ترجمة عادل إسماعيل هلال، ط. الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص١٤١.

4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٥-٢٤٦؛ ريمون ستانبلوى، مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر (١٢٠٠-١٢٥٠م)، ترجمة عايدة الباجوري، ط. القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢١٤؛
Van Cleve, "The Crusade of Frederick II", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Madison 1969, P.455.

5) إبراهيم سعيد فهيم، يافا ودورها في الصراع الإسلامي، ص١٩٥؛ لويس بوزيه، من السلم إلى

بقي فردريك في يافا بعد توقيع الصلح لمدة شهر تقريباً، ثم غادرها بعد أن ترك فيها الفرسان القبارصة لحمايتها[1]، وقد سارع الإمبراطور فردريك بالتوجه إلى بيت المقدس[2] مع باقي جيشه عقب إبرام اتفاقية يافا، ودخلها يوم السبت ١٧مارس ١٢٢٩م وتسلمها من يد القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي خصصه الكامل لخدمة الإمبراطور[3]، وربما رجع سبب تسليم القدس للإمبراطور فردريك إلى رفض قاضي القدس نفسه تسليم المدنية للإمبراطور بسبب ما اعتقده من تخاذل الكامل باتخاذه قرار التسليم، ودخل فردريك كنيسة القيامة، وتوج نفسه بيده، واستمر الحال كذلك حتى نجح الخوارزمية في استعادتها عام ١٢٤٤م[4].

وخلال حكم المماليك ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م، تعرضت الناصرة للعمليات العسكرية المبكرة، ويذكر أن الظاهر بيبرس[5] وجه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى

المفاوضات ولبسها: اتفاقية يافا (١٢٢٩م/٦٢٦هـ)، بين فريدريك والملك الكامل، ضمن مسيحيون ومسلمون في زمن الحملات الصليبية بين المواجهة واللقاء، ط. بيروت ٢٠٠٧م، ص٨٤.

1) إبراهيم سعيد، يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص١٩٥؛ منال محمد السيد، تسليم بيت المقدس للصليبيين اتفاقية يافا ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، ضمن القدس عبر التاريخ، حصاد ١٨، ندوة اتحاد المؤرخين العرب ٢٠١٠م، ص٢١٧-٢١٨.

2) Roger of Wendover, The Crusade of Frederic II, in Christian Society and the Crusades 1198-1229, tr. Gavigan, ed., Peters, Philadelphia 1971, P.155-156.

3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٨١؛ إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ص٩٥.

4) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٥، ص٣٣٧؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٦؛ عن الخوارزميين انظر:
أسامة زكي زيد، الخوارزمية ودورهم في الصراع الإسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، العدد٣٠، الإسكندرية ١٩٨٢م؛ عفاف سيد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط. القاهرة ١٩٨٧م.

5) الظاهر بيبرس البنداقداري: هو ركن الدين ابو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي سلطان الديار المصرية وهو الرابع من ملوك الترك مولده في حدود العشرين وستمائة بصحراء القبجاق تولى الحكم صبيحة مقتل قطز وهو يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة ستمائة وثمان وخمسون وظل في الحكم حتى وفاته يوم الخميس التاسع والعشرين من محرم سنة ستمائة وستة وسبعون (وتعبر سنة ٦٥٩هـ لأنه حكم من السنة الماضية شهر واحد فقط).
ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج٧،ص٨٦.

الناصرة عام ٦٦١هـ/١٢٦٣م، فهدم معالم عمرانها، دون أن يحرك الصليبيين ساكناً، ثم عبر السلطان على البلدة، وشاهد خراب كنيستها، وقد سويت بالأرض[1].

وفي عام ٦٧٠هـ/١٢٧٢م وبعد مفاوضات لم تخل من الحدة أبرم اتفاق هدنة بين بيبرس والقوى الصليبية في عكا[2] كفل السلطان بموجبه ممتلكاتهم من السهل الساحلي الممتد من عكا إلى صيداء، على أن يكون لمملكة عكا الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة، في مقابل أراض ومناصفات حصل عليها السلطان في مختلف أرجاء بلاد المملكة اللاتينية[3]، ونجد معاهدة السلطان سيف الدين قلاوون وابنه الصالح علاء الدين مع حكام عكا وصيدا وعتليث في الخامس من ربيع الأول عام ٦٨٢هـ/ الأول من أغسطس عام ١٢٨٣م[4]، وقد نصت المعاهدة على التالي:

"أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، ومن عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة، وإذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى، ولا

---

[1] المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٨٧-٤٨٩؛

Richard (J.), Histoire des Croisades, Paris 1996, P.429.

أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٣.

[2] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سير الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م، ص٣٩٨؛ شافع بن على بن عباس، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، ط٢ الرياض ١٩٨٩م،ص٢٨٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٠١؛ أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٣-٢٤.

[3] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٢؛ أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٤.

[4] وقعت الهدنة بين الصليبيين والمسلمين في ربيع الأخر عام ٦٨٢هـ، على أن تكون مدتها عشر سنين وعشرة أيام وعشر ساعات، وقد اعترف الصليبيون بالسيطرة الإسلامية على جميع البلاد التي تخضع لحكم السلطان قلاوون مثل حلب وبغراس ونابلس وأعمالها وحمص وأعمالها، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٣٥-٤٠؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ت. قسطنطين رزيق، ج٧، بيروت ١٩٤٢م، ص٢٦٣-٢٦٤.

يحط منها حجر لأجل بنايته، ولا يتعرض إلى الأقساء ولا الرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق[1]".

يتضح من النص آنف الذكر أن المنصور قلاوون[2] ٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م، وافق بموجب هدنة عكا، على الأمور التالية:

أن يمنح الحجاج الأوروبيين التسهيلات اللازمة لأداء فريضة الحج إلى الناصرة، فخصص لهم أربعة منازل من كنيستها لإيوائهم وسكنهم، على أن الدخول إلى الناصرة لم يكن حكراً على أولئك الحجاج، بل كان مسموحاً به لغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، "على اختلاف أجناسهم وأنفارهم". والراجح أن المقصودين بهذه العبارة هم رعايا "مملكة عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة"، و"المترددين" إلى بلاد السلطنة من "التجار والسفراء، في البر والبحر، والسهل والجبل....."، وهو ما تكرر ذكره في الهدنة، هؤلاء جميعاً الأمان: على أنفسهم، وأموالهم، وأولادهم، وحريمهم، وبضائعهم، وغلمانهم، وأتباعهم[3]. شريطة أن يدخلوا الناصرة من مملكة عكا ومن صيدا وعتليث، وبلادهما، على سبيل التحديد والحصر، وهي البلاد التي جرت عليها الهدنة بين أسيادها الفرنج وسلطان المماليك، وتدل لفظة أنفار وهو اسم يدل على مجموعة من الأشخاص ما بين الثلاثة إلى العشرة - فيعني على الأرجح أن دخول الزوار المسيحيين إلى الناصرة كان محدداً بمجموعات صغيرة، لا يتجاوز عدد كل منها عشرة أنفار، وذلك لإخضاع دخولهم للمراقبة الدقيقة

---

[1] المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٨٥-٩٩٥؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ص٢٦٢-٢٧٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٥١-٦٣؛ عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (دراسات تحليلية وثقافية في التاريخ الدبلوماسي)، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م، ص٢٥٧.

Holt (P.M), Qalāwūb's Treaty with Acre in 1283, The English Hisstorical Review, Vol.91, No.361 (Oct. 1976), P.811.

[2] قلاوون: هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتوح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي السابع من ملوك الترك بالديار المصرية، بعد خلع سلامش في الحادي والعشرين وقيل عُشر شهر رجب سنة ستمائة وثمان وسبعون وظل في الحكم إثنا عشر عام أي إلى عام ٦٨٩هـ سنة وفاته. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،ج٧،ص٢٤٨.

[3] المقريزي، كتاب السلوك، ج١، ص٩٨٧-٩٨٩.

لأسباب أمنية من قبل المسلمين[1].

وكذلك يقيم رجال الدين اللاتين، من قساوسة ورهبان صلواتهم وشعائرهم في كنيسة الناصرة بحرية تامة دون أن يعترضهم أحد بضرر أو أذية، لكنه يتوجب على الصليبيين، في مقابل ذلك عدم ترميم الكنيسة، أو إعادة إعمار ما قد يتلف من بنيانها، وأن يتعهد السلطان بتوفير الأمن على طريق الحج من عكا وبلادها إلى الناصرة ذهاباً وإياباً[2]؛ مما يدل على سماحة الإسلام، وعلى الرغم من ذلك لم تكن حركة الحج بنفس القوة والمعدل السابق.

أما المعاهدة التي انعقدت بين السلطان الأشرف خليل بن قلاوون[3] وملك أرجون الفرنجي[4] (٦٩٢هـ/١٢٩٣م) فقد جاء فيها:

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهريه، ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يفسح له في الزيارة مسموحاً بالحق ليقضي زيارته، ويعود

---

1) أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٤.

2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤٣؛ أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٥؛

Hilal, Adel, Sultan Al-Mansour Qalawun's Policy with the Latin States of Syria 1279-90 and the fall of Acre, M.A. Thesis, The American University in Cario 1983, P.108.

3) الأشرف خليل: هو السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه في يوم الأحد السابع ذي القعدة سنة ستمائة وتسع وثمانون وكان والده قلاوون قد سلطنه في حياته بعد وفاة أخيه الملك الصالح علي بن قلاوون في سنة ستمائة وسبع وثمانون والمعتد به جلوسه على تخت الملك بعد موت أبيه، ظل في الحكم ثلاث سنوات أي إلى عام ستمائة واثنان وتسعون.

ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٨، ص٣.

4) شهدت العلاقات الأرجونية المملوكية تطوراً ليس بجديد في عهد خايم الثاني ملك أراجون والأشرف خليل امتداداً للعلاقة بينها في عهد الفونسو الثالث والمنصور قلاوون فقد ارتبطت المصالح السياسية والاقتصادية بينهما مما دفعها إلى تأكيد ذلك بعقد معاهدة سياسية تجارية في الثامن والعشرين من يناير ١٢٩٣م التاسع عشر من صفر عام ٦٩٢هـ.

ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٥٦؛ محمد محمود النشار علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٠٣.

إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة؛ بحيث أن دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه، ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء[1].

ومن الأمور الأخرى المتعلقة بالدين كان تحول البعض من دين لآخر سواء كان ذلك من المسيحية إلى الإسلام أو العكس، ويبدو أن البعض كانوا يلجأون إلى ذلك للتهرب من التزامات مادية نحو بني جنسهم، ولهذا لجأ الطرفان العاقدان إلى وضع مواد لمواجهة مثل تلك الضربات. ومما جاء في ذلك:

"وعلى أنه متى هرب كائناً من كان من بلاد السلطان وولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة، وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته، يرد جميع ما يروح معه، ويبقى عريانا، وإن كان ما يقصد الدخول في دين النصرانية ولا يقتصر، رد إلى أبوابها العليا بجميع ما يروح معه، بشفاعة معه، بعد أن يعطي الأمان، وكذلك إذا حضر أحد من عكا والبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة، ويقصد الدخول في دين الإسلام، وأسلم بإرادته، يرد جميع ما معه ويبقى عريانا، وإن كان ما يقصد الدخول في دين الإسلام ولا يسلم، يرد إلى الحاكم بعكا، وهو كفيل المملكة المقدمون، بجميع ما يروح منه بشفاعة، بعد أن يعطي الأمان[2].

أما عن أثر الحج على الجانب الاقتصادي، فمما لاشك فيه أن الحجاج فضلوا الطريق البحري، لأن الطريق البري عبر الأناضول كان ما زال معرضاً للخطر، ولا يستطيع اختراقه إلا جماعة جيدة التسليح[3]، وعلى ذلك نشطت حركة نقل الحجاج بعد قيام الكيان الصليبي، فكان الطريق البحري عبر البحر المتوسط هو الطريق الأساسي والمعول عليه، ووجدت المدن الإيطالية ولاسيما جنوة والبندقية وبيزة فرصة سانحة في نقل جماعات الحجاج إلى المملكة الصليبية، فهذه المدن كانت على أتم استعداد للقيام بهذه المهمة، حيث توافر لديها ما يكفي

---

1) القلقشندي، صبح الأعشي، ج١٤، ص٦٩؛ عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص٢٣٦.

2) عن معاهدة قلاوون مع صليبي عكا، انظر: المقريزي، كتاب السلوك، ج١، ق٣، ص٩٩٠؛ ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٧، ص٢٦٢-٢٧٠؛ عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، ص٢٣٧.

3) رنسيمان، الحركة الصليبية، ج٢، ص٥٠٦؛ محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص١٢٤-١٢٥.

من السفن وهو الأمر الذي زاد من أرباحها، ومن هنا دخلت هذه المدن في منافسات شديدة لجذب أكبر عدد من الراغبين في السفر إلى الشرق، كما تنافسوا أيضاً على امتلاك الموانئ على ساحل بلاد الشام، ونجح الملاحون الإيطاليون إلى حد كبير في السيطرة على حركة النقل بين أوروبا والشرق، ورغم سيطرة المدن الإيطالية البحرية على حركة نقل الحجاج، فإن بعض المدن الفرنسية والبحرية مثل مرسيليا ومونبيليه زاحمتهم في نقل هذه الجماعات[1].

ولقد كان المسافرون يذهبون إلى الموانئ قبل موعد السفر، ويتجولون داخل المدينة للإطلاع على الدعاية التي كان ينظمها أصحاب السفن لجذب المسافرين، فيتعرف المسافرون على قائد السفينة وطاقم الملاحين، ثم يتجولون داخل السفينة للتعرف على سعتها ومتانتها، ويعرض الملاحون مميزات السفر على سفينتهم والوجبات التي تقدم لهم، وكان المسافرون إلى الشرق يحجزون أماكنهم على السفن التي وقع اختيارهم عليها، وينتظرون في الفنادق المخصصة لإقامتهم بالقرب من الميناء، حتى تبدأ الرياح في الهبوب[2]، ونجد من هؤلاء المسافرين من الحجاج من يستغل مثل هذه الرحلات في القيام ببعض الأعمال التجارية التي تعود عليهم بالنفع، وتعوضهم بعض نفقات السفر[3].

وقد جرت العادة بأن تخرج رحلتان في العام من موانئ أوروبا، وذلك لارتباط حركة الملاحة في هذه العصور بالرياح، وكانت الرحلة الأولى تقوم في فصل الربيع، حيث تمتد من ١٥مارس إلى أول مايو، مع استباقها أحياناً لانتهاء الشتاء. أما الرحلة الثانية فكانت بين ١٥أغسطس و٣٠سبتمبر، إلا أن من الوارد بشكل استثنائي تمديدها إلى ١٥أكتوبر. أما فيما يتعلق برحلات العودة، فهي موزعة على فصلين: فخلال الصيف تصل إلى جنوة السفن المغادرة للشام خلال الربيع، وفي نوفمبر/ أول ديسمبر تصل السفن المغادرة لعكا في أواخر

---

1) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، ج١، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٩٧-١٩٨؛ براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٣٨-٢٤٠؛ حسن أحمد عبد الجليل البطاوي، رحلات الحجاج الأوروبيين إلى الدول الصليبية في الشرق الإسلامي (٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م)، مجلة المؤرخ المصري، العدد٢٦، يناير ٢٠٠٣م، ص١٩٨.

2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٩٤-٣٩٩؛ هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩١-١٩٢؛ براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٣٩.

3) براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٢٣٦؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص١٥٧.

الصيف وأوائل الخريف، وكانت مواعيد وصول ومغادرة السفن إلى موانئ الشرق حسب الأحوال الجوية والأمنية[1].

وكانت الرحلات تخرج على أشكال متعددة، فبعض الجماعات كانت تخرج على ظهر سفينة منفردة، وبعضها خرج في أساطيل صغيرة مكونة من ثلاثة أو أربع سفن[2]، وكانت السفن تسلك طريقاً موازياً للساحل الأوروبي الجنوبي، تجنباً لمخاطر الإبحار في أعالي البحر المتوسط - ولم يكن هذا الطريق يخل من المخاطر أيضاً، إذ كانت بعض السفن تتعرض لخطر القراصنة الذين يعدون كمائنهم على الجزر غير المأهولة بالسكان، وقد استخدمت جزر البحر المتوسط كمحطات لهذه السفن، فتتوقف عندها للتزويد بالطعام والشراب، وإصلاح ما قد يعطب من السفن أثناء الرحلة، وكانت أهم هذه الجزر سردينيا وصقلية ورودس وقبرص[3].

ونتيجة لظروف الطقس فقد تفاوتت مدة الرحلة التي تقطعها السفينة في الذهاب والإياب، كما كانت مدة الرحلة مرتبطة بالمسافة أيضاً التي تقطعها السفينة والطريق الذي تسلكه، فالرحلات التي تأتي من شمال غرب أوروبا كانت تدخل مضيق جبل طارق، ثم تلتزم شاطئ جنوب أوروبا خشية المخاطر، وبالتالي كانت هذه السفن تقطع المسافة من أسبانيا إلى سواحل بلاد الشام في فترة طويلة، وعندما تجاسر ملاحو هذه السفن بعد ذلك في أواسط القرن الثاني عشر الميلادي واتخذوا طريقهم في أعالي البحر، أي من أسبانيا إلى

---

1) Fulcher of Chartres, P.239; William of Tyre, Vol.I, P.495;

هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩١-١٩٢؛ حسن أحمد عبد الجليل البطاوي، رحلات الحجاج الأوروبيين إلى الدول الصليبية، ص١٩٨-١٩٩.

تحدد عقود استئجار السفن بتكلفة نقل الركاب والسلع، بالنسبة للركاب يمكن رصد انخفاض نسبي لأجرة نقلهم بالمقارنة بالنبلاء، فالمقصورات على متن السفينة تصل رسومها إلى ثلاثة أضعاف رسوم الكبائن السفلية ما بين طوابق السفينة والحجاج، الذين تحدد العقود دائماً عددهم، يتعين عليهم الاكتفاء بمكان محدود بين الطوابق، لا يزيد بالكاد عن متر مربع للحاج الواحد.

ميشيل بالدر، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص٣٠٦.

2) Fulcher of Chartres, P.149;

ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٩٨-٣٩٩.

3) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٢-١٩٣؛ حسن أحمد عبد الجليل، رحلات الحجاج الأوروبيين إلى الدول الصليبية، ص١٩٩.

الساحل الشامي مباشرة، عندئذ لم تستغرق الرحلة أكثر من خمسة عشر يوماً[١].

وكان الملاحون حريصين على أمن وسلامة المسافرين، إذ كانت بعض الرحلات الكبيرة تصاحبها سفن حربية سريعة تتولى حراستها، وتحمل خيول المسافرين وأعلافها[٢] كما كان الأمن والنظام على ظهر السفينة مسئولية الملاحين، ولم يكن هؤلاء الملاحون يتورعون عن ترك المسافرين الفقراء على إحدى الجزر التي يتوقفون عليها، وذلك إما لتخفيف أثقال السفينة أو لندرة الطعام والشراب المتبقي على ظهرها[٣].

أما عن أعداد جماعات الحجاج أو الوافدين الجدد، فإن العقدين الأول والثاني من القرن الثاني عشر الميلادي فشهد وصول أعداد كبيرة من سفن الوافدين إلى الشرق، كما اختلفت أيضاً أعداد الحجاج من سفينة إلى أخرى، فكانت بعض السفن لها القدرة على حمل ما يزيد عن ألفي شخص، في الوقت الذي وصلت فيه جماعات من الحجاج لم يزد عددهم عن خمسة وستين فرداً، فعندما وصل سيجورد ملك النرويج[٤] إلى يافا في عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م كان

---

1) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٢-١٩٣.

2) استخدم الإيطاليون في أساطيلهم البحرية السفن المعروفة باسم Galleys التي ورثوا استخدامها عن الإمبراطورية الرومانية، وكانت في الأصل سفناً حربية، ثم قاموا بإدخال بعض التعديلات عليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ليمكنها العمل كسفينة لنقل السلع والبضائع في البحر المتوسط، ونجح الإيطاليون في إحداث تطور مهم في سفن الشحن خلال القرن الثاني عشر، إذ أصبحت السفن أكثر اتساعاً من ذي قبل، واعتمدت على صارين، وكان بالسفينة الواحدة عدة أشرعة مثلثة الشكل Lateen تمكن قادتها في إمكانية الإبحار عكس اتجاه الرياح أكثر من الأشرعة رباعية الأضلاع كما نجح الإيطاليون في أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر في تدشين سفن تجارية كبرى لممارسة التجارة مع موانئ الشام الصليبية، من ذلك امتلاك التجار الجنوية لسفينة تسع أكثر من ألفي راكب على متنها في عام ١١٨٤م، وامتلاك التجار الجنوية لسفينة تسع أكثر من ألفي راكب على متنها في عام ١١٨٤م، وامتلاك التجار البنادقة للسفن الكبرى من نوع Navis التي كانت تحتوي على عشرين مرساه. كذلك امتلك التجار الجنوية في القرن الثالث عشر سفن كبيرة مثل السفينة Paradisus Magnus التي كان بها أكثر من عشرين مرساه، وكانت تستطيع حمل ٦٠٠ طن على حين يزيد بحارتها عن ١٠٠ ملاح.

عن ذلك انظر:

حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية، قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس الصليبية"، مجلة كلية الآداب، العدد٥٨، جامعة القاهرة ١٩٩٨م، ص٤٨١-٤٨٢.

3) حسن أحمد عبد الجليل البطاوي، رحلات الحجاج الأوروبيين إلى الدول الصليبية، ص٢٠٠.

4) هو أحد ملوك النرويج خلال الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، وسيجورد

معه أسطول يضم ستين مركباً مشحونة بالرجال والذخائر[١]، كما قام بعض النبلاء برحلات حج صغيرة العدد، ولم يصطحبوا معهم إلا زوجاتهم، وبعض الفرسان من حرسهم الخاص[٢].

وقد سلكت جماعات الحجاج طرقاً معينة في الشرق، فعندما استولى الصليبيون على يافا عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م أصبحت هي الميناء الرئيسي لاستقبال الحجاج[٣]، وكان يستقبل كثيراً من سفن الغرب الأوروبي، بالإضافة إلى تجميع تجارة نابلس وغزة والرملة وبيت المقدس به، وذلك لبيعها للحجاج المسيحيين الذين يصلون المدينة، وهم في طريقهم إلى مدينة بيت المقدس، وبعد سقوط عكا في أيدي الصليبيين عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م[٤] احتلت مكان للصدارة بين موانئ الصليبيين في الشرق، واتجهت إليها سفن الحجاج، وقد كان الحجاج الذين يتوافدون إلى ميناء عكا يدفعون رسوماً جمركية على أمتعتهم حتى عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، عندما أصدر الملك بلدوين الثاني قراراً بإعفائهم منها شريطة ألا تتعدى القيمة المادية لهذه الأمتعة ٤٠ بيزانت[٥] وذلك لتشجيع حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس

الأول Nagnusson ويسمى The Crusades Sigurd Jerusalem Forer أي الصليبي واسمه بالنرويجية Sigurd Torsaifore Jerusalem Fare وهو ابن الملك النرويجي ماجنوس الثالث Magous III (ت ١١٠٣م/ ٤٩٨هـ)، وقد ولد في عام ١٠٩٠م/ ٤٨٥هـ وقد حكم النرويج خلال المرحلة من ١١٠٣-١١٣٠م/ ٤٩٨-٥٢٥هـ انظر:

محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية الملك سيجورد Siguard ودوره في دعم الحركة الصليبية (١١٠٧-١١١٠م/ ٥٠١-٥٠٤هـ)"، ضمن كتاب عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات، ط. القاهرة ٢٠٠٦م، ص٧٥؛

Knut Gierset, History of the Norwegian People, New York 1927, P.312.

1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٠.

2) William of Tyre, Vol. II, P.70-71.

3) دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٨٦.

4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣.

5) Rohricht (R.), Regesta Regni Tlierosolimitani,Innsbruck 1893 P.125.

البيزنت: هي عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية سميت بهذا الاسم نسبة إلى بيزنطة (القسطنطينية) وكانت هذه العملة متداولة بكثرة في العصور الوسطى حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي على وجه التقريب، وكانت البيزنط أحياناً تعادل العملة الأرمينية المعروفة بالتاهجان Tahegane وكانت تقسم إلى عشرة أقسام مثلها مثل التاهجان وكانت البيزنط تعرف بالهيبربرون Hyperperon وكانت تمتاز باستقرار قيمتها

الصليبية، هذا فضلاً عن دخول موانئ شامية أخرى في خدمة البحرية الصليبية، مثل صيدا وبيروت وطرابلس ثم عسقلان، وذلك بعد أن سقطت هذه الموانئ في أيديهم، وقد دأب الحجاج بعد زيارتهم للأماكن المقدسة في بيت المقدس وشرق الأردن وبيت لحم وغيرها على مشاركة بني جلدهم من الصليبيين القدامى في بعض العمليات الحربية ضد المسلمين، وذلك إتماماً لمناسك الحج[1]. فقد أصبحت هذه العمليات الحربية واجباً مقدسا للحجاج.

لم تكن مدينة بيت المقدس مركزاً تجارياً مثل عكا أو صور، ولكن مع ازدياد عدد سكانها، والتدفق الهائل من الحجاج المسيحين القادمين إليها، شهدت المدينة تزايد ملحوظاً في الطلب على إمدادات الطعام، والملابس، والمصنوعات الدينية، والهدايا التذكارية، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى المختلفة[2].

ولقد كانت مدينة بيت المقدس تتميز بالعديد من الأسواق المحلية الدائمة التي كان اهتمامها الأول يتجلى في إمداد سكان المدينة وزائريها من الحجاج والتجار بإمداداتهم الغذائية اليومية، وعلى سبيل المثال وجد "سوق الحبوب" في مكان فسيح إلى اليسار من برج داوود، حيث جرى بيع القمح والشعير والشوفان[3].

وكان بمدينة بيت المقدس العديد من الأسواق الدائمة، مثل سوق الأعشاب حيث جرى فيه بيع الأعشاب وسوق التوابل والخضروات والفاكهة إلى جواره وجد سوق السمك[4] وإلى الخلف منه سوق الدواجن والطيور وفيه بيع الجبن والبيض[1] وإلى جوار

الذهبية وكانت البيزنط تعادل نحو ثلاثة ونصف جرام من الذهب وعلى الرغم من ذلك، فقد كان هناك اختلافات في حجم الذهب، ويمكن أن يحدد سعر العملة بواسطة تحديد دقيق لتاريخها، عن ذلك انظر: محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين، ط. الإسكندرية ١٩٨٥م، ص٦٤ هامش (١).

1) Fulcher of Chartres, P.150; William of Tyre, Vol. II, P.305.

2) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٤٩.

3) Prawer, (J.), "Crusader Cities" in Miskimin(ed.), Medieval Cites, London 1977, P.189;

حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص١٤٦.

4) الأسماك من أهم السلع الغذائية التي استخدمها سكان بيت المقدس، حيث كان أهل صور يصدرون إلى المملكة الأسماك، وهناك أحد أبواب المدينة يسمى "باب السمك" وهو إلى الشمال من سور المدينة وعندما

سوق الأعشاب أيضاً الطعام، وهو عبارة عن سوق يتم فيه بيع الطعام[2]، وجاء هذا السوق ليخدم الأماكن المقدسة والقادمين عليها من التجار الحجاج[3] الأوروبيين في مقابل الأرباح الهائلة التي حصل عليها التجار من وراء ذلك وتخفيفاً على الحجاج وتيسيراً لهم أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة ليتفرغوا لأمور رحلتهم المقدسة.

وكان "سوق اللحوم" يقع بالقرب من شارع الهيكل[4]، وجرى فيه بيع لحوم الأغنام والماشية، ومن المؤكد أن الجزارين قد استقروا في المكان، لكي يستطيعوا تصريف مخلفات عمليات الذبح والسلخ إلى المصرف الطبيعي لمدينة بيت المقدس وهو وادي القديسة مريم

يقع سوق السمك، كذلك كان يتم استيراد الأسماك من نهر الأردن وبحيرة الجليل وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وبخاصة من مصر، حيث عرف المصريون تجفيف السمك، وكان السمك المجفف الذي يرد إلى بيت المقدس يعتبر من أرخص الأطعمة، بحيث كان سعره أرخص من سعر القمح، وقد لقى السمك المجفف كثيراً من الإقبال عليه وبخاصة من الحجاج المسيحين والرحالة، ونتيجة للأعداد المتزايدة من هؤلاء الزوار للمدينة في تلك المواسم وهي مواسم الحج، فقد كان على المدينة أن تواجه تلك المتطلبات الزائدة من تلك الأسماك باستيرادها وتخزينها.

علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ط. القاهرة ١٩٨٦م ص٢٠٨.

أما نوعية الأسماك فنجد سمك الشبوط المتوفر في بحيرة طبرية والذي تعلق به الحجاج المسيحيون لأن السيد المسيح عليه السلام أكل منه.

دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص٩٥؛ فؤاد عبد الرحيم حسن الدويكات، إقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ص٢٨٠؛ محمد مؤنس عوض، الأسماك في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، ضمن كتاب عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠٠٥م، ص١١١.

1) Prawer (J.), Crusader Cities, P.188;

يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٤٨٨.

2) Smith (J.R), The Feudal Nobility and the Kingdom, 1174-1277, London 1973, P.80; Prawer (J.), The Burgesses in Setton, Vol. V, New York 1983, P.154;

حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص١٤٦؛ أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٦م، ص١٣٣.

3) مهجة السيد عبد العال، العلاقات الإقتصادية بين المسلمين والصليبين في بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨٧م، ص ٢٠١.

4) يوشع براور، عالم الصليبيين، ص١٦٧.

Josaphat[1].

ومن الجدير بالذكر أن تخطيط الأسواق المحلية الدائمة جاء في شكل دقيق، مع مراعاة ترتيب السلع بجانب بعضها البعض، حيث إن السوق الذي خصص للأعشاب يتم فيه بيع جميع أنواع الأعشاب، وكذلك الوضع بالنسبة للفاكهة بأنواعها والتوابل وغيرها من السلع الأخرى، وقد تم وضع سوق السمك في أول الشارع نظراً للرائحة والمخلفات التي تنتج عنه، وحتى لا تفسد السلع المجاورة الأخرى، وخلف سوق السمك وجد السوق الخاص ببيع الجبن والفراخ والبيض والطيور.

وفي الجهة اليمنى من سوق الجبن وجدت المحلات الخاصة بالصاغة السريان، حيث كان الحجاج الأوروبيون يحضرون معهم النفائس والمجوهرات لكي يقوموا ببيعها في هذا السوق، وفي الجهة اليسري من هذا السوق وجد سوق الذهب التابع للاتين[2]، حيث كان يتم صناعة الكثير من المشغولات المعدنية التي تلقى رواجاً كبيراً لدى زوار المدينة من الحجاج، ويبدو أن الصاغة سرعان ما قامت وإلى حد ما بعد عام ١١٣٠م، يشهد على ذلك عقود الإيجار الصادرة في بيت المقدس، وظهور هذه الصناعة المبكر يبدو أنه يرجع للتقدم الهائل الذي شهدته المدينة بسبب ازدهار حركة الحج المسيحي إليها، وقد أصبحت مركزاً مهماً لهذه الصناعة، حيث تم تصنيع العديد من الأشياء التي يقبل عليها الحجاج المسيحيون، كذلك الأشياء ذات العلاقة بالطقوس الدينية وحفظ الذخائر المقدسة.

ومن الطبيعي أن يكون موقع الصاغة وصناعة المشغولات في المنطقة المأهولة بالحجاج المسيحيين، بالقرب من الأماكن المقدسة، وأماكن الإقامة والأسواق؛ لذلك نجد حشداً كبيراً من صانعي المشغولات الذهبية في وسط المدينة، في مكان ليس بعيداً عن كنيسة الضريح المقدس[3].

كانت هذه الهدايا عبارة عن صلبان وميداليات، وشمعدنات، وصناديق مزينة بالذهب

---

1) Benevensti (M.), The Crusader in the Holy Land, P.55-56;
يوشع براور، عالم الصليبيين، ص١٦٧.

2) مهجة السيد عبد العال، العلاقات الإقتصادية بين المسلمين والصليبين في بلاد الشام، ص٢٠٦؛ أحمد عبد الله، التجارة في الساحل، ص١٣٢.

3) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٢٨٧.

ومطعمة بالعاج لحفظ الكتاب المقدس "الإنجيل"[1]، ومن الملاحظ وجود نوع من التجاور بين أسواق السلع المتشابهة أو السلع التي يعمل بعضها بعضاً، فتجاور الأسواق الواحدة أو المتشابهة أدى إلى أن الزائر الحاج لهذه الأسواق وجب عليه أن يقطع الأسواق طولاً وعرضاً حتى يستطيع إكمال شراء احتياجاته.

وقد ارتبطت بالأعياد المسيحية والاحتفالات الدينية لدى المسيحيين في مملكة بيت المقدس الصليبية، وجود بعض الأسواق السنوية التي تخصصت في بيع بعض السلع المستخدمة في هذه المناسبات، وعلى ذلك وجد شارع خصص لبيع سعف النخيل والسلال المصنوعة منه، وقد وجد هذا السوق في مدينة بيت المقدس في فترة مبكرة من الوجود الصليبي، وذلك في عهد الملك بلدوين الأول (١١٠٠-١١١٨م)، وكان هذا السوق يرتاده الحجاج المسيحيون ليشتروا منه سعف النخيل[2]، الذي كانوا يحملونه على صدورهم على شكل صليب عند عودتهم إلى أوطانهم، وكان هذا السوق يقع في الشمال الشرقي من كنيسة القيامة[3].

كما وجد بالقرب من شارع السعف أسواق أخرى تخصصت في بيع الشموع للحجاج الذين كانوا يستخدمونها أثناء تأدية الصلاة داخل كنيسة القيامة وأثناء سماع القداس، وذلك خلال المدة التي يمكنون فيها داخل الكنيسة، بالإضافة إلى أخذها معهم لكنائس أوروبا على أساس أنها قادمة من الشرق[4].

---

1) Benvenisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.387.

2) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص١٤٦.

3) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠٧م، ص٨٣؛
Conder, The Latin Kingdom, P.200.

4) عارف العارف، تاريخ القدس، ص٢١١؛
Conder, The City of Jerusalem, London 1909, P.287.
اشتهرت بعض المدن الإسلامية مثل دمشق وغيرها بصناعة الشموع التي كانت تتميز غالباً بأنها محتوية على الطيوب بحيث تفوح منها الروائح العطرية عند إشعالها، وهذا النوع من الشموع تم استخدامه في كل الكنائس اللاتينية في المدن التي خضعت لهم مثل اللاذقية، وجبيل، وبيت المقدس، وبيت لحم وغيرها من المدن.

Rey, Colonies Franques En Syrie aux XIII Siecles, Paris 1883, P.230-234;
علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط. القاهرة ١٩٩٦، ص٦٠.

وقد حرص الحجاج أيضاً على شراء كثير من المزامير وهي نصوص من التوراة التي كانت تصنع في مدينة القدس، وكان لهذه المزامير شارع خاص لبيعها بالقرب من خان الزيت في الطرق المؤدية إلى كنيسة القيامة، والذي كانت تدب فيه الحركة والنشاط في ذلك الموسم من كل عام، ويموج بأعداد كبيرة من الحجاج حيث كان هناك كثير من المحلات لبيع تلك النصوص[١].

وكانت الأسواق الموسمية في مملكة بيت المقدس الصليبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بوصول الحجاج المسيحيين والذين يكثر عددهم لحضور عيد الفصح بالمدينة، وكان هذا الاحتفال يتم في فصل الربيع من كل عام، وقد أشار الرحالة ثيودريش إلى أنه كان يقام سوق موسمي كبير أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة[٢]، وكان هذا السوق مليئاً بمختلف البضائع حيث كان يقصده جميع الأهالي من المناطق المحيطة بالمدينة، وكان هذا السوق عبارة عن شارع مسقوف وسط فناء واسع[٣].

ونظراً للطبيعة الدينية لمملكة بيت المقدس الصليبية، فقد كان شيئاً طبيعياً وجود التحف الفنية المسيحية والمسابح والصلبان والمصابيح الدينية والصور والأيقونات، وربما اشترى الحجاج علباً عربية الطراز لحفظ المخلفات المسيحية، وعلى الرغم من بساطة هذه المشغولات اليدوية، فقد كان الحجاج يهتمون بشرائها والعودة بها إلى بلادهم كتذكار من الأراضي المقدسة، على نحو قد أشعل حماسهم الديني لزيارة تلك المناطق مرات ومرات، مما

---

1) علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص٩٠.

2) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٧٨؛ مهجة السيد عبد العال، العلاقات الإقتصادية بين المسلمين والصليبين في بلاد الشام، ص٢٠٤.

كان يسمح للبائعين بدخول كنيسة القيامة طوال عصر الأيوبيين والمماليك، بعد انتهاء القداس الذي يقام في عيد الفصح، لعرض بضائعهم على هؤلاء الحجاج، حيث يشترون منهم بعض الهدايا والتحف الشرقية، وأن الكثيرين من أبناء الغرب الأوروبي من زوار المدينة من الحجاج كانوا يقضون شطراً كبيراً من وقتهم داخل الكنيسة في المساومة على المسابح والأحجار الكريمة، والقماش الدمشقي والحرير. ولم تكن غاية الجميع أن يشتروا لأنفسهم، ولكن كانوا يفكرون في نقلها إلى بلادهم للاتجار والربح من ورائها. عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٥٥؛علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص٨٩.

3) Theoderic, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.287; عبد الحافظ البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٨٢.

شجع الصناع اليدويين على استغلال المكانة المقدسة للمدن الدينية في صناعة التذكارات ذات الدلالة الدينية[١].

ولقد كانت مدينة نابلس تشتهر بصناعة عجول ذهبية تهافت عليها الحجاج[٢]، بالإضافة إلى توافر معدن الذهب والفضة في حارم، فقد عمل الأهالي بصناعة الحلي والمجوهرات المزخرفة بالذهب والفضة، وكان الحجاج الصليبيون يقبلون على هذه المشغولات والتحف[٣].

كما كانت الموصل بالعراق تشتهر بصناعة الأواني النحاسية إلى جانب كثير من التحف المعدنية التي اشتهرت بها دمشق، والتي ازدهرت منذ العصر الفاطمي، فمن أمثلة هذه التحف تماثيل صغيرة من البرونز كانت تستعمل أحياناً كمباخر أو صنابير للآنية، ولكن كثيراً منها كان للزينة فحسب، ومعظمها آنية على شكل طائر أو حيوان، وهي التي اشتهرت باسم أكوامانيل Aquamanil باللاتينية، ومنها أباريق من النحاس الأصفر على شكل فارس أو حيوان أو طائر، وجلبت جميعها إلى أسواق بيت المقدس، وكان رجال الدين اللاتين يستعملونها في غسل أيديهم قبل القداس وفي أثنائه وبعده[٤]، وقد صحب عمليات البيع والشراء، ضجيج كبير، فقد كان هذا السوق بمثابة عيد ديني يشهده الحجاج المسيحيون على

---

1) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص١٣٥؛ حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٢١٦؛ يوشع براور، الاستيطان الصليبي، ص٨٩-٩٠؛ صفاء عثمان، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٦٦؛ Benvenisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.287.

2) مهجة السيد عبد العال، حارم ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٥م، ص٢٩.

3) أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي، ص١١٠.

4) علي السيد علي، "طريق القوافل - القاهرة - دمشق في عصر الحروب الصليبية"، ضمن ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، حصاد٨، إتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٤٨١.

جدير بالذكر أن بلاد الجزيرة كانت غنية بمناجم النحاس، التي أمدتها بلاد الشام بالخدمات اللازمة لصناعة التحف من البوزنز والنحاس الأصفر. علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص٦٠.

اختلاف جنسياتهم عند زيارتهم لمدينة القدس(١).

ويلاحظ أن الأسواق التي عقدت في المواسم كانت تظل منعقدة طوال النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل، وذلك يوضح حرص التجار على الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الأرباح المالية، وكذلك مهارة التجار المسيحين الشرقين في عرض بضاعتهم، وذلك من خلال الأماكن وطرق عرض هذه البضائع(٢).

ومما لاشك فيه أن عصر الحروب الصليبية شهد ثورة تجارية في عالم البحر المتوسط ولاسيما القسم الشرقي منه، تبعها ازدهار حركة الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة واشتداد الطلب في أوروبا بوجه خاص على المتاجر الشرقية سواء القادمة من الشرق الأقصى أو التي تم إنتاجها في الشرق العربي(٣)، والتي أمدت سكان المدينة وزائريها من الحجاج بما يحتاجون إليه من السلع التي حملها الحجاج المسيحيون من الشرق معهم إلى بلادهم في الغرب الأوروبي(٤).

وقد عرفت مملكة بيت المقدس الصليبية سوقاً سنوياً هاماً، وكان يقام في الخامس عشر

---

1) عبد الحافظ البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٨٢.

وقد وصف لنا الرحالة المتقدم عن مرحلة الدراسة فيلكس فابري هذا السوق بقوله:

"وبعد أن فرغنا من تأدية شعائر الحج في كنيسة القيامة دخل علينا عدد من التجار من المسيحين الشرقين ليعرضوا على الحجاج متاجرهم، وظل البعض منا يساوم التجارة فترة طويلة من الليل، فكان التجار من المسيحين الشرقين يذهبون إلى كل مكان يتواجد فيه الحجاج ليبيعوا لهم، إذ كانوا يفترشون الأرض ببضائعهم أما كنيسة القيامة، وعندما كان يحين موعد عودة الحجاج إلى أوطانهم كانوا يقضوا الليل في المساومة مع التجار لشراء مختلف البضائع والسلع مثل المسابح والأحجار المعدنية والأقمشة الحريرية الدمشقي والمخامل ويصحب عمليات البيع والشراء الضجيج والصخب، وقد رأيت بعض النبلاء من الحجاج ذوى المكانة الاجتماعية الراقية يساومون التجار أثناء الشراء مع أنهم لم يعتادوا على مثل هذا السلوك في أسواق بلادهم ترفعاً وحفاظاً على مكانتهم.

جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠-١٤٨٣م)، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣٨، دمشق ٢٠٠٠م، ص٨٧٠-٨٧١.

2) أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي، ص١٣٥.

3) محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٥م، ص٢٥؛ علي السيد علي، طريق القوافل القاهرة - دمشق في عصر الحروب الصليبية، ص٤٥٦.

4) علي السيد علي، طريق القوافل - القاهرة - دمشق في عصر الحروب الصليبية، ص٤٦١؛ علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢١٢-٢١٨.

من شهر سبتمبر من كل عام، حيث تفد إليه أعداد كبيرة من تجار المدن الإيطالية والتجار المسلمين، كما كانت ترد إليه التجارة من آسيا بواسطة التجار الإيطاليين والفرنسيين، وكان هؤلاء التجار يقومون بشراء القرنفل وجوز الطيب والتوابل(١) المجلوبة من الهند، والفلفل، والبخور من عدن، والحرير من الصين، والكتان من مصر(٢).

وكان لوفرة الأعشاب الطبية ببلاد الشام أثر كبير في تقدم صناعة العقاقير الطبية، وقد أشار الرحالة فتيلوس إلى انتشار أشجار البلسم بفلسطين(٣)، فقد استخدمه الصليبيون في تطهير الجروح وحفظ جثث الموتى(٤)، أو كعلاج لبعض الأمراض، إذا يذكر الرحالة لودولف أهميته في علاج العيون(٥)، بالإضافة إلى أنه كان له أهمية كبيرة لدى الصليبيين لحاجتهم إليه في بعض الطقوس الدينية، فلا يتم عندهم التعميد والتنصير إلا بوضع شيء من دهن البلسم في ماء المعمودية، وعلى هذا فقد حرص الحجاج الصليبيون على شراء كميات مناسبة من هذا الزيت عند مغادرتهم الأراضي المقدسة(٦).

وكان لتجارة النبيذ أهميتها وخصوصاً في نابلس وغيرها من مدن المملكة الصليبية، فكان النبيذ يصنع اعتماداً على مزارع العنب التي احتلت جزءاً كبيراً من أراضي نابلس وقراها، وكان النبيذ يباع في الحانات حيث يحفظ في براميل خشبية، كما يباع بالتجزئة في

---

1) ولع الغرب الأوروبي بالسلع الشرقية، واشتد إقباله عليها، خاصة التوابل التي حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى، وقد اعتاد الأوروبيين استعمالها في الأطعمة منذ الحروب الصليبية، أما لشدة البرد في أوروبا، أو لحفظ الطعام وطهيه وضع النبيذ والبيرة المتبلة، وإن ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعده الحظ على احتساء فنجان من شراب دافيء ممزوج بشيء من التوابل والبهارات، والفلفل، والجنزبيل، وجوزة الطيب، والقرنفل، والقرفة، كلها كانت مبعث انتعاش للقلوب ودواء للأمراض.

سونيا هاو، في طلب التوابل، ت. محمد عزيز رفعت، ط. القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٢؛ يوشع براور، عالم الصليبين، ص١٧٤.

2) Conder, The City of Jerusalem, P.268;

نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ١٩٧٣م، ص١٩١-١٩٢.

3) فيتلوس، وصف الأرض المقدسة ١١٣٠م، ص٣٥٢.

4) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، القاهرة ١٩٩٤م، ص٧٩.

5) Ludolph VonSuchem's, Description of the Holy Land, P.68.

6) Ludolph VonSuchem's, Description of the Holy Land, P.68.

زجاجات[١]. وقد أشار الرحالة بوركهارد Burchard إلى شهرة نبيذ الأراضي المقدسة وجودته، الذي كان يتفوق على جميع أنواع النبيذ في العالم[٢].

بالإضافة إلى أسواق مدينة القدس الصليبية، فإن ثمة مدناً صليبية أخرى اشتهرت بأسواقها، فقد استفادوا منها الحجاج والرحالة خلال رحلتهم إلى الأماكن المقدسة، فقد كان لمدينة الرملة أربعة أسواق رائجة، ويذكر مجير الدين الحنبلي هذه الأسواق وأنواعها فيقول: "كان لمدينة الرملة أربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب إلى وسطها فمن باب يافا يدخل في سوق القماحين، وهو متصل بسوق البصالين حتى يتصل بمسجد جامعها، وهي أسواق حسنة يباع فيها أنواع السلع. ويتصل بباب القدس سوق القطانين على سوق المشاطين للكتان إلى سوق العطارين إلى المسجد الجامع. ويتصل بسوق الحبابين من باب يازور، ثم سوق الجزارين ثم البقالين إلى المسجد الجامع. ويتصل بباب آخر من أبوابها سوق الصياقلة ثم سوق السراجين إلى المسجد الجامع "[٣]. ويتضح من كلام الحنبلي أن أسواق الرملة تخصصت في بيع نوع معين من السلع، واشتقت السوق اسمها من اسم السلعة التي تبيعها، كما هي عادة الأسواق في العصور الوسطى[٤].

كما اشتهرت مدينة رام الله بأسواقها التي زارها الحجاج والرحالة، فقد ذكر أحد هؤلاء الرحالة وهو كازولا أسواق مدينة رام الله أثناء زيارته الأراضي المقدسة، ووصفها بأنها كانت عبارة عن شوارع جميلة مخصصة لبيع المأكولات المطهية والخضروات، وكانت هذه الأسواق عبارة عن شارعين، شارع الطباخين، حيث الأطعمة والمأكولات المطهية المعدة للبيع، وشارع آخر مليء بالمتاجر، وكانت هذه الأسواق تبيع الفواكه التي كانت ترد إليها من مدينة غزة، وقد أخبر كازولا مرافقة رئيس دير جبل صهيون بأن هذه الفواكه من أجود أنواع

---

1) أسامة بن منقذ، الإعتبار، تحقيق فيليب متى، ط. برنستون ١٩٣٠م، ص١٣٦؛ سعيد عبد الله البيشاوي، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خلال الحروب الصليبية ١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ ط. عمان ١٩٩٠م، ص٢٢٠.

2) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ص٥١؛ Benvenisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.378.

3) الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، عمان ١٩٧٣م، ص٦٨.

4) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٩٣. Conder, The Latin Kingdom. P.241.

الفواكه الموجودة في العالم، وكانت سوق الطباخين يباع فيها الدجاج المطهي والبيض، وقد أعجب كازولا أيضاً باعتدال الأسعار في أسواق رام الله[١].

كذلك اشتهرت مدينة طبرية عاصمة إقليم الجليل بسوقها الكبير الذي كان يعج بالحجاج والتجار والباعة الجائلين[٢]، وسوق كنيسة جبل الطور الذي كان ينعقد مرة في العام[٣]، وأيضا سوق الناصرة الذي يباع فيه للحجاج التماثيل وبقايا القديسين والذخائر المقدسة[٤].

وبعد فتح صلاح الدين بيت المقدس ٥٨٣هـ/١١٨٧م، أصبحت مدينة عكا العاصمة السياسية والتجارية محطة رئيسية للحجاج المسيحيين، وأيضاً مركزاً هاماً للجاليات الإيطالية ونشاطاتها التجارية، ولذلك تدفقت عليها الجموع الكبيرة من الإيطاليين الذين استقروا في الأماكن التي خصصت لهم، وذلك بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي نجحت في الاستيلاء على عكا عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م[٥].

وقد لعب التجار الإيطاليون والصليبيون دوراً في استيراد السلع والبضائع من المدن الإسلامية الداخلية مثل دمشق وحلب، والقاهرة حيث جلبوا الملابس والمنسوجات من دمشق والقاهرة، وكذلك السمك المجفف بالإضافة إلى استيرادهم للنبيذ والمنسوجات من المدن الصليبية الأخرى كأنطاكية وطرابلس[٦].

لقد نشطت العمليات المصرفية لدى الصليبيين أنفسهم في بلاد الشام[٧] فقد ذكر أحد أبناء مدينة بيت المقدس هذا السوق الذي تم تخصيصه للصيارفة[٨]، والذي كان يقع عند

---

1) Casola (P.), Canon Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester,1907, PP.240-241; عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٩٣.

2) ليلى محمد الطرشوبي، إقليم الجليل في عصر الحروب الصليبية - القرن الثاني عشر، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٧م، ص١٤٠.

3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٧.

4) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص٨٤.

5) Ludolph Von Suchem, Description of the Holy Land and way, P.53.

6) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد والصليبيين في بلاد الشام، ص١٤٥.

7) نعيم زكي، طرق التجارة ومحطاتها الدولية، ص٣٩.

8) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، ص٥٢.

التقاء شارع داود بشارع باب المحراب[1]، والذي كان يطلق عليه أيضاً شارع المعبد، فنجد الصيارفة يقيمون باستبدال العملات المختلفة التي كانت ترد مع الحجاج المسيحيين من أنحاء الغرب الأوروبي وغيرها من البلاد وذلك لزيارة الأماكن المقدسة في بيت المقدس والأماكن المجاورة لها، إلا أن استبدال النقود في بيت المقدس ضرورة يومية، بسبب تدفق الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوروبا[2].

ولقد كان لهؤلاء الصيارفة حوانيتهم الخاصة بهم، وكانت عبارة عن مبنى مسقوف وسط شارع السوق وبها طاولات أو مناضدة اتخذت شكل الصف، كان يتم تبادل العملات الأوروبية بالعملات المحلية، والتعامل بمختلف النقود وأصنافها والتي سكت في دور السك الأوروبية وغيرها، فكان يتم تقدير قيمتها الأساسية كمعدن، ثم يتم تحويلها إلى عملة محلية[3].

وهكذا فإن الصيرفي الصليبي كان بمثابة الوسيط بين العملات الأوروبية وغير الأوروبية، ولكي يعالج الصيارفة هذا الأمر، فإنهم كانوا يميلون إلى التخصص، ففي مدينة بيت المقدس تحت حكم الصليبيين، كان الصيارفة يحتلون شارعاً على حين كان نظراؤهم في الجانب الآخر، وهم الصيارفة المحليون (أي من أبناء بلاد الشام)، وهم من المسيحيين الشرقيين، وربما تخصصوا في العملات الشرقية[4]، كما عمل بعض الصيارفة الإيطاليين في

---

1) Benvinisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.56.

2) عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص١٥١.

3) كان علي الصيارفة أن يتعاملوا بالعملات الموجودة في منطقة الشرق العربي الإسلامي إلى جانب عملات أوروبا، وكانت عملية تبادل العملات الإسلامية والفرنجية تحدث يومياً، كما كان الصيرفي الصليبي بمثابة الوسيط بين العملات الأوروبية وغير الأوروبية.

عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ص١٥١.

4) يوشع براور، عالم الصليبيين، ص١٦٨؛ علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ص١١٦.

في الجهة الجنوبية من شارع الفرنجة كانوا يحتلون مكان خان الزيت، وهو المبنى ذات الخمسة مخارج، والذي ترجع نشأته إلى الأصل البيزنطي، وقد أصبح هذا المبنى الآن أطلالاً وحطاماً على أثر حريق دمره تماماً، وكان المكان الذي يشغله هؤلاء الصيارفة عبارة عن مبنى مسقوف يقع عند تقاطع شارع داود وشارع السلسلة.

Benvenisti (M.), The Crusaders in the Holy Land, P.56.

أعمال الصيرفة في يافا مثل Beston Direscore[1].

أما عن الأثر الاجتماعي لحركة الحج، فقد تم الاحتفال بعدد من الأعياد في مدينة بيت المقدس، التي كانت مسار جذب للحجاج بسبب طبيعتها الدينية، فبعضها كانت تصحبه بعض المواكب، والبعض الآخر يتم الاحتفال به بإقامة الصلوات في الكنائس، فعيد الفصح كان يجذب عدداً كبيراً من الحجاج المسيحيين إلى المدينة ليشاركوا في الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة، ومنها الموكب الذي يبدأ من بيسان قبل شروق الشمس، ففي يوم أحد السعف يتجمع في بيسان البطريرك ورجال الدين من العديد من الكنائس، يصحبهم خازن كنيسة القبر المقدس حاملين صليب الصلوات، وعندما يخرج سكان المدينة والحجاج المسيحيون حاملين سعف النخيل، وأغصان أشجار الزيتون التي يحملونها، يقوم أحد الأساقفة بقيادة الموكب من منطقة جبل المعبد عبر بوابة وادي يهوشافاط إلى الوادي، حيث يتجمع الفريقان، ويتبعان البطريرك إلى البوابة الذهبية التي يتم فتحها لتسمح لهم بالدخول مرة أخرى إلى المدينة[2].

وفي نفس هذا العيد يتم الاحتفال بالنار المقدسة Holy Fire أو الضوء المقدس Holy Light وهو عيد خاص بالمدينة المقدسة[3]، فعند اقتراب عيد الفصح يتم ترقب الضوء المقدس كالعادة في كل كنائس بيت المقدس، وقد توارث اللاتين ذلك الاحتفال عن اليونانيين، وكان ذلك الاحتفال قائماً منذ عهد شارلمان، وفيه يتم إضاءة واحدة من القناديل بالمدينة المقدسة بضوء إلهي[4].

وتبدأ الاستعدادات للاحتفال بعد المغرب ليوم الجمعة الطيبة، ففي ذلك اليوم ينظف الضريح المقدس وتغسل كل المصابيح الموجودة به، وتملأ بالزيت النقي، ثم توضع القناديل

---

1) Tolkowsky, The Gate Way of Palestine, A History of Jaffa, London 1942, P.125;

حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص١٧٠.

2) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٧٧.

3) خليل عثامنة، فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي (٦٣٤هـ-١٠٩٩م)، ط. بيروت ٢٠٠٠م، ص٣٠٨.

4) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص١٠٨.

وتترك غير مضاءة، وفي ذات الوقت يتم تنظيف المصابيح والقناديل في كل كنائس بيت المقدس[1].

وقد شاهد هذا الاحتفال الرحالة الروسي دانيال المعاصر للملك بلدوين الأول، فقد استأذنه لوضع قنديل باسم الشعب الروسي وعلقه في مكان رئيسي فوق ما يعتقد المسيحيون أنه القبر المقدس[2].

وقد ازدحمت الكنيسة إلى حد كبير، ولم يسع فناء الكنيسة الخارجي تلك الأعداد الكبيرة من الكتل البشرية، وقد حضر بعض الحجاج من مصر وأنطاكية ومناطق صليبية أخرى، كان التصادم بين الكتل البشرية مخيفاً، وقد حدثت عدة إغماءات والناس يقعون وفي أيديهم الشموع غير مضاءة منتظرين فتح أبواب الكنيسة[3]، مما دل على أنه خلال مثل تلك الأعياد ازداد عدد زوار المملكة الصليبية من الحجاج، ودر عليها كل ذلك أموالاً طائلة.

كما احتفل الصليبيون بعيد العذراء المباركة، وكان ذلك الاحتفال يتم في موكب بسيط يبدأ من الضريح المقدس، وينتهي في ما تصوره الصليبيون أنه هيكل الرب، وقد حمل المحتفلون القناديل[4].

كما كان عيد "أحد السعف" من بين الأعياد المهمة التي يمكن لكل رجال الكنيسة في بيت المقدس المشاركة فيها، لما تطلبه طقوس ذلك العيد من مساهمة الكنسيين بأكملهم، فقبل أن تشرق الشمس، كان رجال الكنيسة والبطريرك ورهبان جبل صهيون وجبل الزيتون ومقدم دير ماريا يوشفاط يذهبون إلى بيثاني، وهي على بعد ميل من القدس، ويأخذون معهم

---

1) دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، ص١٠٨؛
Daniel The Abbot, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.166.

2) Conder, The Latin Kingdom, PP.80-81.

3) وكان بداخل الكنيسة القساوسة، وقد تجمعوا في انتظار وصول الملك وحاشيته، وعندما وصل الملك فتحت أبواب الكنيسة وتدافع الناس في الدخول كلا يحاول أن يسبق زميله، وجلس الملك بلدوين في تواضع بالقرب من المحراب، وقد قام الأسقف ومعه أربعة شماسين بفتح أبواب القبر حيث دخلوه بشمعة الملك بلدوين الأول ثم دقت الأجراس كما يعتقد الصليبيون؛
Daniel The Abbot, in Jerusalem Pilgrimage 1099-1185, P.168-169; Conder, The Latin Kingdom, PP.81-82.

4) Prawer, The Latin Kingdom, P.178.

كل الذخائر المقدسة، وكان أقدمها ما اعتقد الصليبيون أنه صليب الصلبوت[1].

وفي ذات الحين، كان سكان المدينة يتجمعون في كنيسة القيامة مع رهبان الضريح والحجاج، وهناك تتم مباركة سعف النخيل وأغصان الزيتون، ويقود رجال الكنيسة الموكب إلى بوابة "يوشفاط"، وهناك كانوا يقابلون الموكب القادم من بيثاني يتقدمه البطريرك ومعه الصليب المقدس، ويتمثل القوم ما فعله السيد المسيح عليه السلام في ذلك اليوم عندما ترك بيثاني ومضى إلى منطقة بيت فاجة Betphage وهو مكان في منتصف الطريق بين بيثاني وجبل الزيتون، ثم مضي بعد ذلك عبر جبل الزيتون إلى مدينة القدس، ودخل عبر البوابة الذهبية وتم فتح بابها عند اقترابه منها[2].

كذلك هناك الاحتفال بعيد خميس الصعود Ascensionday من خلال موكب يمضي إلى جبل الزيتون بعد الصلاة في كنيسة الضريح المقدس[3]، ويتوجه الموكب إلى كنيسة مقامة في المكان الذي يعتقد بأن السيد المسيح صعد منه، وتوجد آثار مطبوعة في المكان لقدمي السيد المسيح[4].

من الأعياد الدينية الرئيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية عيد الميلاد المجيد[5]، ويقصد به الاحتفال بيوم عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ويقال أنه ولد يوم الاثنين، ولذا فإنهم يجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد، فيوقدون المصابيح في الكنائس، ويقام القداس[6]،

---

1) هنادي السيد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول، ص٢٠٤.

2) ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ص٩٢-٩٣.

3) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص٧٦.

4) Prawer, The Latin Kingdom, P.180.

5) عبد الحفيظ محمد علي، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص٢٠٠.
عيد الميلاد: هو العيد الذي يحتفل به المسيحيون الأرثوذكس، لذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام ويقع في السابع من يناير من كل عام، وكان هذا العيد موسماً لبيع الشموع والقناديل والتماثيل وغيرها التي يقبل الناس على شرائها.
أما المسيحيون الكاثوليك فيحتفلون بهذا اليوم في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام.

6) المسعودي، مروج الذهب، ج١، القاهرة ١٣٤٦هـ، ص٣٥١؛ علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٠٩.

وقد حرص الحجاج الصليبيون على مشاركة إخوانهم الشرقيين هذا الاحتفال.

وقد أشار إلى ذلك الرحالة دانيال أثناء وجوده في بيت المقدس حيث تمكن من رؤية مسيحي المدينة، وهم يحتفلون بأعيادهم[1]، وكانت بيت لحم في يوم عيد الميلاد كعبة الحجاج المسيحيين من مختلف الجنسيات. إلى جانب ذلك هناك عيد الغطاس أو عيد المعمودية، الذي يوافق السادس من شهر يناير من كل عام، وهو اليوم الذي قام فيه القديس يوحنا المعمدان بتعميد السيد المسيح عليه السلام في نهر الأردن[2]، والذي طبق بدوره نفس الأمر على تلاميذه فيما بعد حيث أمرهم بتعميد الأمم كافة، ولهذا كان طقس المعمودية من أهم الشعائر الرئيسية في الديانة المسيحية، ولقد اعتاد القساوسة في هذا اليوم أن يطوفوا ببيوت المسيحيين يرشونها بماء مقدس، فيما يعرف بعملية التكريس، كما اعتاد المسيحيون على الاستحمام في هذه الليلة بماء الينابيع، وغمر أنفسهم بالماء حتى رءوسهم[3].

أضف إلى ذلك عيد الثالوث المقدس Feast of the Holy Trinity وهو يختص بإحياء ذكرى دينية تتمثل في استضافة النبي إبراهيم عليه السلام للملائكة الثلاثة عند خيمته في ممري، حيث كان يقام احتفال سنوي مهيب في نفس المكان الذي أقيم فيه المذبح[4].

أيضاً احتفل الصليبيون إلى جانب الأعياد بإحياء المناسبات التاريخية كالاحتفال يوم الخامس عشر من يوليو من كل عام، وهو اليوم الذي سقطت فيه المدينة في أيديهم، وتأسيس مملكة لاتينية فيها، وقد وصف الرحالة الألماني يوحنا أوف فورزبرغ ذلك الاحتفال قائلاً: "ففي الصباح الباكر من هذا اليوم، كان البطريرك اللاتيني يقود مسيرة من كنيسة القيامة إلى كنيسة السيد (قبة الصخرة) حيث تتوقف الجموع لإقامة الصلوات في الساحة الواقعة بينها (كنيسة السيد) وبين معبد سليمان (المسجد الأقصى)، وبعد الانتهاء من الصلوات كان المجتمعون يتوجهون إلى خارج أسوار المدينة، حيث قبور "شهداء الصليبيين" الذين سقطوا

1) دانيال، وصف الأرض المقدسة، ص٧٤.
2) النويري، نهاية الأرب، ج١، ط. القاهرة ١٩٣١م، ص١٩٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤١٦.
3) علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام، ص٢١٠.
4) فيتلوس، وصف الأرض المقدسة، ص٣٤٩؛ صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ص٢٧٣.

أثناء اقتحام المدينة، وبعد الانتهاء من زيارة قبور الشهداء تعود المسيرة إلى القدس، حيث تعبر الشارع العام، وتسير باتجاه السور الشمالي للمدينة حيث المنطقة التي دخل منها الفرنجة، وفي هذا المكان كان البطريرك يلقي موعظة بالناس المجتمعين، ثم تقام صلوات الشكر قبل أن يتفرق الجمع[1].

وفي أعقاب ذلك الاحتفال بثلاثة أيام يتم الاحتفال بالذكرى السنوية لانتخاب جودفري البولوني كأول حاكم للوجود الصليبي، ويحتفل الحجاج به كنوع من التقديس، فهو ليس عيداً دينياً لديهم.

وقد وصف ذلك الرحالة هذا الاحتفال وصفاً مقتضباً، فأشار إلى أن سكان بيت المقدس كانوا يجتمعون في كنيسة القيامة، ثم يخرجون في مسيرة عبر شوارع المدينة حتى يصلوا إلى القصر الملكي، حيث كانت تقام وليمة كبيرة، وكان أغنياء المدينة يقومون بتوزيع الصدقات على الفقراء في كنيسة القيامة[2].

كما كان هناك احتفال على قدر كبير حدث عام ١١٤٩م بمناسبة الذكرى الخمسين للغزوة الصليبية لبيت المقدس، وفيه تم الاحتفال رسمياً كذلك بإكمال الكنيسة الجديدة للقبر المقدس، وتم تخليد هذه الذكرى بإقامة قداس خاص في الكنيسة الجديدة، وعن ذلك الاحتفال كتب يوحنا الورزبرجي يقول: "لقد كان الاحتفال بذلك اليوم بعد تجديد الصيانة بإقامة قداس إلهي بالإنشاد الديني، في بداية القداس بالدعاء ببقاء بيت المقدس، وفي نهاية القداس الدعاء بتكريس هذه الكنيسة لخدمة الرب، بأن تكون مكاناً له رهبته" ومن المحتمل أن يكون هذا الاحتفال قد تم في حضور بلدوين الثالث والملكة ميليسند فيه[3].

تعكس هذه الاحتفالات جانباً مهم من جوانب الحياة العامة في القدس، إذ حرص ملوك بيت المقدس وكبار رجال الدولة ورجال الدين والحجاج وغيرهم من سكان المدينة من الصليبيين والمسيحيين الشرقيين على حضور تلك الاحتفالات مما ترتب عليها إنعاش رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة في المدينة بالإضافة إلى ازدهار التجارة بقدوم أعداد هائلة من الحجاج والزوار، خاصةً في القرن الثاني عشر الميلادي.

1) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص١١٣-١١٤.
2) يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضي المقدسة، ص١١٣.
3) أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ص٧٩.

أما عن أعياد اليهود الرسمية التي نصت عليه التوراة فكان عددها خمسة: أولها عيد رأس السنة، أو عيد البشارة، الموافق أول أكتوبر، ويستمر ثلاثة أيام حيث يحتفل اليهود خلاله بذكرى عتقهم من نير الفراعنة، وكان من طقوسهم في هذا العيد ارتداء الملابس البيضاء تعبيراً عن ابتهاجهم وسعادتهم. أما العيد الثاني فهو عيد الغفران أو عيد (كبور) بالعبرية، أو عيد صوماريا، أي الصوم العظيم، ويأتي سادس يوم من شهر أكتوبر، حيث يقضي اليهود هذا اليوم واليوم التالي له في انشغال تام بالعبادة والاستغفار والصيام.

أما العيد الثالث فهو عيد المظلة أو عيد الظل أو كما عرف بالعبرية بعيد (سكوت)، وكان الاحتفال به يبدأ من الخامس عشر من شهر أكتوبر ويستمر سبعة أيام، وكانت عادة اليهود في هذا العيد الجلوس تحت أغصان الأشجار وقراءة التوراة. أما العيد الرابع فهو عيد الفصح أو عيد الفطر، وكان يوافق الفترة الواقعة بين آخر مارس وأوائل أبريل، وكان يتم فيها غالباً ذبح الأضاحي.

أما العيد الخامس فهو عيد الأسابيع أو عيد العنصرة، وكان موعده السادس من يونيو، وكانت عادة اليهود في هذا العيد تناول الأطعمة المصنوعة من الألبان فحسب، وقد كان من أهم مظاهر الاحتفال لديهم بتلك الأعياد النفخ في أبواقهم، وإن كان هذا الأمر بطبيعة الحال على نطاق ضيق(١).

فقد صدرت المراسيم الصليبية التي تحرم على اليهود الإقامة بالقدس أو الاستيطان بها، وذلك خلال القرن الثاني عشر باعتبار أن التواجد اليهودي بالقدس يدنس الأماكن المسيحية المقدسة، وينتهك حرمتها(٢). أما بعد تحول دفة الأمور إلى يد المسلمين عقب معركة حطين، أمكن لليهود أداء شعائرهم الدينية والاحتفال بأعيادهم داخل القدس في ظل التواجد الإسلامي، فالتسامح قيمة إسلامية، ونهج أصيل سار عليه حكامنا المسلمين.

أما عن الأثر الحربي لحركة الحج، فقد لعبت جماعات الحجاج دوراً مهم ومؤثراً في الفترة

---

1) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص١٨٧-١٨٨؛ نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، ط. القاهرة ٢٠٠٨م، ص١٩٨-١٩٩.

2) عطية القوصي، صلاح الدين واليهود، ص٣٩؛ يوشع براور، الاستيطان اللاتيني في بيت المقدس، ترجمة حسن عبد الوهاب، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٩٧م، ص٥٩؛ يوشع براور، عالم الصليبيين، ص٦٠.

التي كان يقضيها هؤلاء الحجاج مع الصليبيين في الشرق، فقد كانوا يقدمون العون الحربي للقوات الصليبية في صراعهم مع أعدائهم المسلمين، فقد شاركوا في اقتحام بعض المدن، بالإضافة إلى غارات المسلمين، وكان هؤلاء الحجاج يشاركون في القتال رغبة في تحقيق مكاسب مادية وسياسية، فمن أمثلة هؤلاء الملك النرويجي سيجورد.

وواقع الأمر أن هناك دوافع سياسية دفعت الملك النرويجي للمشاركة في رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة، وذلك من أجل تدعيم نفوذه الداخلي كملك للنرويج باشتراكه في المشروع الصليبي أسوة بدول الغرب الأوروبي التي شاركت بملوكها وشعوبها في ذلك المشروع(١) عن طريق الحج إلى أرض فلسطين التي تفيض لبناً وعسلاً.

بالإضافة إلى سعى النرويجيين إلى تدعيم صلاتهم بمملكة بيت المقدس الصليبية التي صارت محط مقدم الحجاج، الذين قدموا إلى هناك من أجل زيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، حيث إن المشاركة في تدعيم أملاك تلك المملكة الصليبية، وتوسيع رقعتها في مواجهة أعدائها من المسلمين خلال تلك الفترة المبكرة من تاريخها، من شأنه إظهار النرويجيين في مكانة بارزة لدى ملوك تلك المملكة، على اعتبار أنهم شاركوا في تدعيمها وحمايتها خلال ذلك الحين، الأمر الذي كان من شأنه أن يضمن للحجاج النرويجيين القادمين إلى هناك مكانة متميزة لدى حكام المملكة الصليبية(٢).

لقد وصل الملك النرويجي إلى ميناء يافا Joppa في صيف عام ١١١٠م/٥٠٤هـ(٣)، وقد أحسن الملك بلدوين الأول Baldwin I استقباله، ثم أقام له حفلاً كبيراً يضم رجاله، وبعد ذلك صحبه إلى نهر الأردن(٤) وذلك من أجل تعميده أسوة بالسيد المسيح ﷺ في مياه هذا النهر، ثم عاد الملكان إلي بيت المقدس، وقد أعطى الملك بلدوين للملك سيجورد قطعة من الصليب المقدس كما يعتقد المسيحيون(٥).

---

1) محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٧٧.

2) محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٧٧.

3) Fulcher of Chartres, P.199.

4) The Saga Sigurd, P.56; محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٨٤.

5) The Saga Sigurd, P.57;

ولقد طلب الملك بلدوين الأول -كما يقرر فوشيه الشارتري- من الملك سيجورد المكوث فترة كافية في الأرض المقدسة، ولا يسارع بالعودة إلى بلاده، وذلك من أجل مساعدة ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في الاستيلاء على صيدا، ووافق الملك سيجورد ورجاله على ذلك بالاتفاق مع برتراند أوف تولوز Bertrand Toulouse[1] (١١٠٨-١١١٣م/٥٠٢-٥٠٧هـ)، وهو الابن الشرعي للريموند الصنجيلي Romand of Gilles (١١٠٢-١١٠٥م/٤٩٦-٤٩٩هـ) كونت طرابلس السابق[2]، واتجه الملك بلدوين وبرتراند أوف تولوز إلى تجهيز المعدات والجنود اللازمين لعملية الحصار[3].

ولقد كان حصار صيدا عن طريق البر من جانب الملك الصليبي وقواته بالإضافة إلى برتراند أوف تولوز، بينما حاصرها الملك النرويجي عن طريق البحر من أجل منع الدعم البري من جانب الدولة البورية في دمشق، والدعم البحري الفاطمي من قاعدة صور البحرية الفاطمية[4].

كما استمر الحصار البحري والبري لصيدا مدة سبعة وأربعين يوماً[5] عانى أهلها من الحصار الشديد، وقد طلبت حاميتها من الملك بلدوين الأول السماح لهم بالخروج سالمين[6].

أما بالنسبة للنرويجيين، فكانت مكاسبهم مادية وأدبية، فعلى المستوى المادي أشارت الساجا[7] إلى أن النرويجيين حصلوا على كنز كبير من المال[1] بالإضافة إلى أنهم حملوا بالهدايا

محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٨٥.

1) Fulcher of Chartres, P.195; William of Tyre, Vol. II, P.478.

2) Fulcher of Chartres, P.195.

3) Albert d' Aix, P.678.

4) محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٩٣.

5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٤.

6) Fulcher of Chartres, P.200;
محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص٩٦.

7) الساجا في الأصل كلمة أيسلندية من الفعل Segin ويعني أن يقول To Say أو قول Saying، ويمكن تفسرها على أنها قصة طويلة تحتوي على عدد من الأحداث المتلاحقة، والواقع أن الساجا ارتبطت ببطولة قادة النرويج في العصور الوسطى.

The Oxford reference Dictionary, London 1962, P.726; The Oxford English Dictionary, Vol.IX, Oxford 1973; P82;

الثمينة[2].

ومن ناحية أخرى؛ حقق الملك النرويجي سيجورد مكانة سياسية بارزة إذ ظهر أمام شعبه مساندًا للمشروع الصليبي في الشرق[3]، وبعدها غادر الملك سيجورد الأراضي المقدسة بعد الاحتفال بعيد الميلاد أي بعد أسابيع قليلة من نهاية شهر ديسمبر لعام ١١١٠م/٥٠٤هـ.

أما بالنسبة لحملة البنادقة التي أتت إلى فلسطين كحجاج وتجار في عام ٥١٧هـ/١١٢٣م، وكان على رأسها دوج البندقية دومينكوميخائيل Dominic Michili ١١١٧-١١٣٠م وعدد كبير من الحجاج المتطوعين، وقد أحيا وصول هذه القوة الآمال في نفوس الصليبيين للاستفادة منها في عمل حربي كبير لصالح المملكة، وفعلاً وبعد أن قام الدوج بزيارة الأماكن المقدسة في القدس والاحتفال بعيد الميلاد في ٢٥ديسمبر عام ١١٢٣م/ ٢٨شوال عام ٥١٧هـ طرح عليه أمراء المملكة ورجالاتها فكرة مشاركته القيام بعمل حربي لصالح المملكة.

وقد تقرر وبموافقة شاملة، مهاجمة إحدى المدن الساحلية وفقاً لاتفاق محدد، وعقد العزم على مهاجمة صور أو عسقلان لكون باقي المدن الساحلية كانت تحت السيطرة الصليبية، واختلفت الرغبات حول هذه المنطقة، واقتربت المسألة من إثارة شجار خطير، فقد رغب مندوبو القدس، والرملة، ويافا، ونابلس والضواحي المحيطة بهذه المدن توجيه الحملة إلى عسقلان لكونها أقرب إليهم، وبدت أنها تتطلب إنفاقاً أقل من الجهد والمال، بينما حث الحاضرون من طبرية، وعكا والناصرة، ومدن أخرى توجيه الحملة إلى صور؛ لكونها مدينة جيدة التحصين مما يوجب الاستيلاء عليها خشية أن تفيد دمشق منها، وتستخدمها كقاعدة تنطلق منها نحو سائر الأراضي الصليبية، ولما اقترب الخلاف في الرأي إلى إثارة الشجار، اقترع الحاضرون على وجهة الحملة فخرجت القرعة على صور، حيث بدأت الاستعدادات

محمد مؤنس عوض، "الحملة الصليبية النرويجية"، ص١٠٣-١٠٤.

1) The Sage of Sigurd, P.57.

2) William of Tyre, Vol.I, P.488.

3) The Sage of Sigurd, P.57.

تسير على قدم وساق، وتم محاصرة المدينة في السادس عشر من فبراير (شباط) ١١٢٤م[١].

على أن البنادقة نجحوا في إثبات خصوصية امتيازاتهم عن طريق الاتفاق مع الصليبيين قبيل غزو صور، فيما عرف باسم معاهدة جيروموند Pactum Warmundi ١١٢٣م، والتي بمقتضاها يقدم الأسطول البحري البندقي المساعدة للصليبيين في غزو المدينة، مقابل حصول البنادقة على كنيسة وشارع كامل، ومكان للسوق، وحي للسكن، ومخبز، وحمام، على أن يكون ذلك في جميع مدن المملكة اللاتينية في بيت المقدس، بالإضافة إلى الحصول على ثلث إيرادات مدينة صور[٢].

ومن هنا يتضح أن دافع حملة البنادقة كان دافعاً اقتصادياً صرفاً من أجل تدعيم مركزهم في المملكة الصليبية عن طريق تدعيم نفوذهم التجاري، بجانب الحجاج الذين أتوا معهم بطبيعة الحال.

أما عن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) التي قادها أكبر ملوك الغرب الأوروبي وقتذاك، وهم فريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بقصد استعادة بيت المقدس التي استولى عليها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ولكن هذه المحاولة لم تأت بشيء يذكر سوى استيلاء الصليبيين فقط على عكا، وعقد صلح الرملة في عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م الذي ضمن للحجاج المسيحين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس[٣].

---

1) Fulcher of Chartres, P.255-256.

2) William of Tyre, Vol.I, PP.553-555; حاتم الطحاوي، "القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس الصليبية"، ص٤٨٠.

3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص٦٠٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٤، ابن العديم، زبدة الحلب، ج٣، ص١٢١-١٢٢؛ حامد زيان غانم، الإمبراطور فردريك باربا روسيا والحملة الصليبية الثالثة، ط. القاهرة ١٩٧٧م؛ خاشع المعاضيدي وسوادي عبد ودريد نوري، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط. بغداد ١٩٨٦م، ص١٩٠؛ سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في الشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م، ص٤٣٧-٤٣٨؛ زينب عبد المجيد، الإنجليز في فترة الحروب الصليبية، ص١٣٥-١٣٦؛ محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢٤٦؛ رياض شاهين، "هدنة الرملة والظروف المحيطة بها"، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج١، أربد عام ٢٠٠٠م، ص٤٦٣-٥٠٣؛ محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، ص٢١٦.

والحق أن المسلمين كانوا قد أدركوا في ذلك الوقت أهمية الحج عند الصليبيين، مما دفع السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى تسهيل تلك المهمة أمامهم حتى يعودوا إلى أوروبا، فقد حدث بعد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين أن وصل إلى بيت المقدس عدد كبير من الصليبيين للحج، وفتح لهم السلطان صلاح الدين الباب في ذلك: "ونفذ معهم الخفراء، يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا، وكثر ذلك من الفرنج، وكان هدف السلطان بذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة، ويرجعوا إلى بلادهم، فيأمن المسلمون شرهم"[١].

أما حملة الإمبراطور فريدريك الثاني المعروفة بالسادسة ٦٢٥هـ-١٢٢٨م/٦٢٧هـ-١٢٢٩م، فقد انتهت بمعاهدة سلمية مع السلطان الكامل محمد سلطان مصر، حصل بمقتضاها على بيت المقدس دون حرب أو قتال، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن الظروف السياسية في هذا الوقت كانت عاملاً مهماً في إتمام هذه الاتفاقية[٢]، فإذا كان صحيحاً أن صلح يافا حقق كسباً كبيراً للإمبراطور الألماني بفوزه بالقدس والناصرة في مقابل كلفه ضئيلة، إلا أن وجود أرض حبيسة من ضمن المناطق التي حصل عليها الإمبراطور أضعف من قيمة مكاسبه لاسيما وأن السلطان الكامل سلم الإمبراطور فريدريك القدس مدمرة، واشترط عليه عدم تجديد أسوارها[٣] على أن يحتفظ الكامل بحق الإشراف على المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، ومنذ ذلك الحين، خضعت القدس لنفوذ الصليبيين[٤]، فعلى الرغم

---

1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٣٦؛ جمعة الجندي، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ط. القاهرة ٢٠٠٦م.

ولما علم الملك ريتشارد قلب الأسد بإقبال الصليبيين على الحج: "صعب عليه ذلك، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتاب، وعلمت الفرنجية ذلك نعظم عليهم، واهتموا في الحج، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة: مقدمون وأوساط وملوك متنكرون.

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٢٣٦.

2) إن نزاع الكامل مع أفراد أسرته في الشام هو الذي دفعه إلى استدعاء صديقه فريدريك، والتنازل له عن بيت المقدس حتى يضمن انضمامه إليه ضدهم.

ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص ٢٤٣-٢٤٦؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ط. القاهرة ب.ت، ج٣، ص١٤٨.

3) أحمد حطيط، قضايا من تاريخ المماليك "السياسي والحضاري"، ص١٠٤-١٠٥.

4) استمرت القدس كذلك حتى نجح الخوارزمية في استعادتها عام ١٢٤٤م.

ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦،

من هذه الاتفاقية التي فتحت البلاد للمسيحيين من حملة الصلب والحجاج إلا أن أعداد الحجاج قد قل ربما كان نتيجة لشعورهم بعدم الأمان.

لقد أصبحت القدس أرضاً حبيسة وسط محيط إسلامي كبير، ومن ناحية أخرى لم تكن البابوية راضية عن هذه الاتفاقية، لقد ذهب فريدريك إلى الشرق مضطراً تحت ضغط من البابوية كحل للخروج من مأزق الحرمان الكنسي، فلم يكن حاجاً أتى إلى الشرق مقتنعاً بذلك، على الرغم مما حققه من نصر دبلوماسي دون إراقة الدماء، إلا أن البابوية غضبت من ذلك أشد الغضب.

في هذه الأثناء زار الناصرة لويس التاسع (القديس لويس)، ملك فرنسا بعد أن جرى إطلاق سراحه من الأسر، إثر حملته الفاشلة على مصر، فانطلق من عكا، في ٢٣مارس ١٢٥٠م/٦٤٨هـ وبات ليلته في صفورية، وتوجه منها إلى قانا الجليل، ثم انعطف جنوباً لزيارة الناصرة، وقيل أنه لما اشرف عليها نزل عن صهوة جواده وجثا على الأرض شاكراً الله على الفرصة التي أتيحت له للحج إلى الناصرة[1].

لقد أبا القديس لويس الذهاب إلى بيت المقدس كحاج عادي، فقد كانت رغبته الملحة هي الذهاب إلى بيت المقدس كحاج محارب، وهنا تتضح الرغبة القوية للقديس لويس في الحج والحرب معاً، اعتقاداً منه أنه إذا ذهب حاجاً عادياً فكل من يأتي بعده من الملوك والحجاج سوف يكتفون بالحج اقتضاءاً بما فعله ملك فرنسا، دون التفكير في العمل على إنقاذ بيت المقدس، ولدافع آخر وهو أن فرنسا كانت وقود الحملات الصليبية منذ بدايتها في صورة الحج المسلح، ولا يتأتى لملك صليبي فرنسي أن يحج إلى أرض لم يستطع استردادها مما يفسر حجه إلى الناصرة.

ص٢٤٢؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، حيدر أباد الدكن، الهند ١٩٥١م، ص٤٩٣-٤٩٤؛ عفاف سيد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص٢٩٢.

1) أسعد منصور، تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، مصر ١٩٢٤م، ص٩٣؛ أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ص٢٤.

لم يرد القديس لويس الذهاب كحاج إلى بيت المقدس، إلا بعد أن يخلص المدينة من أيدي المسلمين، لأنه اعتقد أنه بذلك سيُحمل من يليه من الملوك والحجاج الاكتفاء بالحج اقتضاءاً بما فعله ملك فرنسا دون التفكير في العمل على إنقاذ بيت المقدس. جوانفيل، القديس لويس، ص٢٤٤-٢٤٥.

أما عن الأثر الديني لحركة الحج فقد كان لفتور الحماس الديني في الغرب الأوروبي أثره الكبير على حركة الحج، وخصوصاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، ويمكن الاستدلال على ذلك من قصيدة كتبها شاعر فرنسي معاصر لهذه الفترة يدعى William Rutebeuf (١٢٤٥-١٢٨٥م) يقول فيها أنه من الحماقة أن يخاطر الإنسان في حرب دينية خارج بلاده، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله في وطنه ويعيش في يسر وسلام[1]، ونجد ذلك نتيجة عدة عوامل.

لقد كانت الحالة النفسية لدى الجماهير في الغرب الأوروبي ليست على نفس درجة السذاجة التي كانوا عليها في بداية الوجود الصليبي، بل تغيرت عملية الحاج الأوروبي، بعد أن اتضحت الأبعاد الخطيرة للحركة الصليبية وخصوصاً بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٠٤م[2]، وما سببه هذا من تأثير خطير على حركة الحج، فما كانت تدعوه البابوية من حروب ضد الإسلام والمسلمين كان أكذوبة، وبسقوط القسطنطينية ظهر الوجه الحقيقي للبابوية، وأخذ الحاج الصليبي يفقد ثقته في الكنيسة.

لقد أدرك الحاج الصليبي أنه كان وقود الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي تحت تأثير من جانب الكنيسة، وأن الأفكار التي بنيت عليها البابوية دعواتها الصليبية في بدايتها، قد تعرضت لنقد شديد، بل إن البعض ذهب إلى حد الأعراب عن فكرة مفادها أنه من المشكوك فيه أن يكون من العدل قتل ذوي الأديان الأخرى لمجرد أنهم وثنيون[3].

بالإضافة إلى ظهور المغول على مسرح الأحداث، وهدمهم للطرق والمنشآت والدروب، فالصراع بين القوة الإسلامية والمغول[4] قد أثر بالسلب على حركة الحج، وهو

---

1) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص٩٨-٩٩؛ العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص١٢٢.

2) ارجع إلى الفصل الأول.

3) ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص٣٠٦-٣٠٩؛ صفاء عثمان محمد، عوامل فشل المشروع الصليبي في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠١٠م، ص١٧٧.

4) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ - تاريخ المغول، ت. محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي، وفؤاد عبد المعطي الصياد، م٢، ج١، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٣١٢؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص٢٢٣-٢٢٤.

أمر منطقي من خلال المواجهات العسكرية، وغياب الأمن في مناطق عديدة من بلاد الشام، ومنها المناطق التي يمر بها الحجاج الصليبيون بطبيعة الحال.

لقد كانت لقوة المسلمين بعد توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك عقب معركة عين جالوت ١٢٦٠م/٦٥٨هـ[1] أكبر الأثر في زلزلت الكيان الصليبي في بلاد الشام مما ترتب عليه ضعف تدفق أعداد الحجاج الصليبيين إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، ربما كان ذلك ناتجاً من شعور هؤلاء بعدم الأمان وسط محيط إسلامي تجرع من الصليبيين أنفسهم القتل والدمار على طول أكثر من قرن ونصف من الزمان.

لقد كانت أوروبا نفسها في تلك الأثناء تشهد ازدياد نشأة المدن وتطورها، وزيادة نشاطها التجاري، فتسبب ذلك في تحسن الوضع الاقتصادي داخل أوروبا وبالتالي قلة الحملات الصليبية، بما كانت تحمله من حجاج إلى الشرق، بالإضافة إلى انتشار التعليم والثقافة، وكان هذا ناتجاً عن الاحتكاك المباشر بالمسلمين في الأندلس وصقلية والشام، فقد نجم عن ذلك ظهور الجامعات في أوروبا[2].

فكان من الصعب في عصر شهد كل هذه التطورات أن يظل الحجاج عبيداً للكنيسة ورجالها، وعلى هذا فتغيرت صورة وفكرة الحج نفسها في أعين الأوروبيين.

ونتج مما سبق تحول قطاعات كبيرة من الحجاج من الذهاب إلى الأماكن المقدسة في

---

1) رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ، م٢، ج١، ص٣١٣-٣١٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٦٣-٦٤؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٥١٦، فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ص٣٠٩-٣٢١؛ على اسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامى، ط. القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٠٢؛

Ziada (M.M.), "Mamluk Sultans to 1293", in Setton, A History of the Crusades, Vol.II, Pennsylvania 1962, P.745.

2) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م، ص ١٦٠-١٦١؛ رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٨-٣٩.
عن نشأة الجامعات ودورها انظر:
سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩م؛ جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٨١م؛ ياسر عبد المعبود عبدالله، جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوربا في العصر الوسيط، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٢-٢٠٠٣م.

فلسطين إلى الحج إلى أضرحة القديسين داخل أوروبا، في ظل نمو تيار يدعو إلى تفضيل الحج إلى القديس المحلي على الحج خارج البلاد، ووصل الأمر إلى حد الدعاية للقديس المحلي، ونشر أخبار المعجزات التي تتم في رحابه، وما يتعرض له من يحج ويحصل على خدمة أو ينال الشفاء ببركة هذا القديس.

ومما لاشك فيه أن رجال الدين المحليين قد شجعوا على ذلك لما يعود عليهم من أرباح من هذا التيار، سواء مقابل ما يؤدون من خدمات دينية[1] أو على الأقل عند اقتطاع أجزاء من دخولهم تحت مسمى الحملات الصليبية، والتي لم تعد توجه إلى الغرض الذي جمعت من أجله[2].

ومن أمثلة المزارات ضريح القديس توماس بيكت Thomas Becket[3] في إنجلترا الذي ظل طوال القرون من الثاني عشر حتى الخامس عشر يجتذب إليه الآلاف من الزوار[4].

---

1) Abou-El-Haj, the Medieval Cutt of Saints, Cambridge, 1997, P.25;
الأمين أبو سعدة، "التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم في أوروبا العصور الوسطى، العدد٣٥، مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة ٢٠٠٤م، ص٤١-٤٢؛ محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص٢٧٠.

2) Throop (P.), Criticism of the Crusade: a study of Public Opinion and Crusade Propaganda, Philadelphia, 1975, P.26;
محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص ٢٧٠.

3) القديس توماس بيكيت: ولد في لندن ٢١ ديسمبر ١١١٨م وتوفي في ٢٩ ديسمبر ١١٧٠م شغل منصب أسقف كانتربري منذ العام ١١٦٢م حتى ١١٧٠م لأب نورماني مغامر عمل بالتجارة ثم دخل سلك الشرطة وصار رئيساً لشرطة المدينة، وفي عام ٦١٥هـ/١١٢٨م عهد والده توماس إلى الراهب روبير Robert ليعلمه مبادئ القراءة والكتابة والعقيدة الكاثوليكية ثم أرسله والده لكي يتعلم في المدارس الفرنسية بعد عودته إلى إنجلترا صار السكرتير الأول في أسقفية كانتربوري، ثم مستشاراً ملكياً وأخيراً عينه الملك هنري رئيساً للكنيسة الإنجليزية عندما مات كبير الأساقفة في ذلك الوقت، غير أنه لم يخضع للملك الإنجليزي وتمسك بمبدأ السمو الكنسي ورفض محاكمة رجال الدين أما المحاكم المدنية وانتهى به الأمر إلى النفي من إنجلترا إلى فرنسا ثم عاد إليها ليثير مزيد من المتاعب فتم قتله على يد أربعة من الفرسان إرضاءاً للملك.

Knowles, Thomas Becket, California 1970;
كانتور، التاريخ الوسيط (قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج٢، القاهرة ٢٠٠٩م، ص٥٣٠-٥٣١؛ محمد فوزي، نهاية الصليبيين، ص ٢٧٠.

4) كانتور، التاريخ الوسيط، ج٢، ص٥٣١؛ بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٦٧

وضريح القديس أماند Saint Amond في شمال غرب فرنسا[١]، بالإضافة إلى ضريح القديس يعقوب Saint James of Compostela في شمال غرب أسبانيا[٢] وروما نفسها حيث كنيسة القديس بطرس ومقر البابوية[٣].

ونجد أيضاً عددا كبيرا من المزارات والأضرحة التي انتشرت في أنحاء أوروبا، ولعل ما شجع على تنشيط رحلات الحج المحلي داخل أوروبا قيام الرهبان الكولونيين ببناء كثير من الاستراحات على طول الطرق نحو المزارات الشهيرة لتيسير رحلة الحجاج، حيث يجد الحاج في كل محطة ما يحتاج من طعام وشراب وراحة، حتى الإسكافيين والحلاقين تواجدوا في هذه الاستراحات[٤]. فلما يترك الأوروبي كل ذلك ويذهب إلى الشرق لتزهق روحه أو على الأقل

---

1) Abou-El-Haj, the Medieval Cult of Saints, P.9

القديس أماند Amond of Maastricht، ولد في بواتو Poitou عام ٥٨٤م، وتوفي في دير النون Elnone عام ٦٧٩ م، عاش في بورج ناسكاً لمدة ١٥سنة، قبل أن يبحر في مهنة طويلة ومثمرة للتبشير، عند بلوغه الـ٤٥ عاماً في الفلاندرز ثم عين لوقت قصير أسقفاً في مستاريخت Maastricht، ولكن المصاعب هناك كانت كبيرة عليه، على الرغم من تلقيه تشجيعاً للمثابرة من البابا القديس مارتن، الا أنه عاد إلى حياة المتجولة في التبشير الإنجيلي؛ وكان القديس أماند يلقى الدعم من ملوك الفرنجة، ولكنه كثيراً ما كان يقابل بمعارضه قوية من الشعوب التي كان يحاول تبشرها، أسس أماند العديد من المنشآت الدينية وبخاصة في مونت بلاندن Mont-Blandin وغيرها، وتوفي عن عمر يقارب التسعين عاماً، يوم الاحتفال بذكراه هو السادس من فبراير.

Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, P.40.

2) Abou-El-Haj, The Medieval Cutt of Saints, P.19-20.

القديس يعقوب James the Greater: كان القديس يعقوب الأكبر المتوفي في القدس عام ٤٤ م أخاً وصديقاً للقديس يوحنا ولقب بالأكبر لتميزه عن القديس الرسول الأخر سمعان القليل، هو وبطرس وحنا جرى اختيارهم من جانب السيد المسيح ﷺ ليكونوا شهوداً على ألمه ونزاعه في الحديقة (متى: ١٧، ١-٩؛ ٣٦، ٢٦-٤٦) وكان أول الرسل الذي عذب وقتل بالسيف بأمر من الملك هيرود الأول إرضاءاً لليهود (أعمال الرسل: ١٢، ١-٢)؛ وطبقاً للرواية الأسبانية فإن القديس يعقوب قد زار أسبانيا ليبشر فيها بالمسيحية، وهناك إدعاء بأن جسده قد نقل بعد استشهاده إلى أسبانيا. ويظهر سمعان أحياناً في الفن على هيئة حاج داخل صدفه، ويوم الاحتفال بذكره هو الخامس والعشرين من يوليو.

Attwater, The Penguin Dictionary of Saints, P.179;

محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص٢٧١ هامش (٣).

3) يشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص١٧١.

4) يشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص١٧١.

يضيع ماله، وربما يقع في أسر المسلمين فيلقى به في غياهب السجون، ويأتيه الموت من كل مكان[١].

نستخلص من ذلك، إن الآثار السياسية لحركة الحج، تتمثل في العديد من الاتفاقيات التي تأمن حركة الحج، وخصوصاً في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وطوال القرن الثالث عشر في ظل المد الإسلامي القوي خلال هذه الفترة وكان ذلك متمثل في صلح الرملة عام ١١٩٢م/٥٨٨هـ، معاهدة يافا عام ١٢٢٩م/٦٢٦هـ هدنة بيبرس وأسياد عكا ٦٧٠هـ/١٢٧٢م، ومعاهدة السلطان سيف الدين قلاوون وابنه الصالح علاء الدين مع حكام عكا وصيدا عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، ومعاهدة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مع ملك أرجون الفرنجي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.

أما من الناحية الاقتصادية لحركة الحج، فلم تكن مدينة بيت المقدس مركزاً تجارياً مثل عكا أو صور، ولكن مع ازدياد عدد سكانها، والتدفق الهائل من الحجاج المسيحيين القادمين إليها شهدت المدينة تزايد ملحوظاً في الطلب على إمدادات الطعام، والملابس والمصنوعات الدينية، والهدايا التذكارية، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى المختلفة، ولقد كانت مدينة بيت المقدس تتميز بالعديد من الأسواق المحلية الدائمة، التي كان اهتمامها الأول يتجلى في إمداد سكان المدينة وزائريها من الحجاج والتجار بإمداداتهم الغذائية اليومية، ولذلك نشطت العمليات المصرفية لدى الصليبيين أنفسهم في بلاد الشام، وتم تخصيص سوق للصيارفة الذي كان يقع عند التقاء شارع داود بشارع باب المحراب، وكان يطلق عليه أيضاً شارع المعبد، فنجد الصيارفة يقيمون باستبدال العملات المختلفة التي كانت ترد مع الحجاج المسيحيين من أنحاء الغرب الأوروبي، وغيرها من البلاد وذلك أثناء الزيارة.

فيما يختص بالأثر الاجتماعي لحركة الحج، فقد تم الاحتفال بعدد من الأعياد في مدينة بيت المقدس، بعضها كانت تصحبه بعض المواكب، والبعض الآخر يتم الاحتفال به بإقامة الصلوات في الكنائس من هذه الأعياد عيد الفصح، عيد العذراء المباركة، عيد أحد السعف، عيد خميس الصعود، عيد الميلاد المجيد، عيد الغطاس، عيد الثالوث المقدس.

---

1) Throop, Cristicism of the Crusades, P.151-153;

محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين، ص٢٧٢.

الخاتمة

أما عن الأثر الحربي لحركة الحج، فقد لعبت جماعات الحجاج دوراً مهماً ومؤثراً في الفترة التي كان يقضيها هؤلاء الحجاج مع الصليبيين في الشرق، فقد كانوا يقدمون العون الحربي للقوات الصليبية في صراعهم مع أعدائهم المسلمين، فقد شاركوا في اقتحام بعض المدن بالإضافة إلى التصدي لغارات المسلمين عليهم، وكان هؤلاء يشاركون في القتال رغبة في تحقيق مكاسب مادية وسياسية، فمن أمثلة هؤلاء الملك النرويجي سيجورد الذي اشترك مع الملك بلدوين الأول في إسقاط صيدا عام ١١١١م، بالإضافة إلى حملة البنادقة التي تمكنت من إسقاط صور عام ١١٢٤م/٥١٨هـ.

أما الحملة الصليبية الثالثة فلم تأت بشيء سوء استيلاء الصليبيين فقط على عكا، وعقد صلح الرملة عام ١١٩٢م/٥٨٨هـ الذي ضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس، ونجد حملة الإمبراطور فردريك تنتهي بمعاهدة سلمية مع السلطان الكامل محمد سلطان مصر.

وفيما يختص بالأثر الديني لحركة الحج، فقد كان لفتور الحماس الديني في الغرب الأوروبي أثره الكبير على حركة الحج وخصوصاً في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، ونتج عن ذلك الاتجاه زيارة أضرحة القديسين داخل أوروبا، وظهور تيار يدعو إلى تفضيل الحج إلى القديس المحلي، وكان من أمثلة هذه المزارات ضريح القديس توماس بيكت في إنجلترا، وضريح القديس أماند في شمال غرب فرنسا، بالإضافة إلى ضريح القديس يعقوب في شمال غرب أسبانيا.

بعد هذه الدراسة لموضوع حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ، توصلنا إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها على النحو التالي:

اتضح لنا أن الحج المسيحي لبيت المقدس من الطقوس المستحدثة، فليس في صلب الدين المسيحي ما ينص على وجوب الحج على المسيحيين؛ لذلك فإن مسألة حج الأوربيين إلى الديار المقدسة في فلسطين كان مبعثه مزيجاً من ارتباط تاريخي فيما يتعلق بحياة السيد المسيح ﵇، والمكان الذي بعث فيه مع ارتباط روحاني في قدسية هذه المناطق، خصوصاً بعد انتشار الكتب الدينية، التي أخذت تفيض في وصف السيد المسيح وولادته وأقواله.

كما تبين إن فكرة الحج لأماكن المعابد والشهداء لقيت صراعاً منذ فجر العصور الوسطى، فلم يكن آباء الكنيسة يؤيدون هذا الاتجاه بما يصاحبه من وجهة نظرهم من تعرض الحجاج للأخطار، فبذلوا المحاولات لضبطه، فقد دعا القديس باخوميوس (حوالي ٢٩٢-٣٤٦م) من مصر العليا إلى عدم تشجيع الحج باعتباره إحدى الصور المتبقية من العادات الوثنية. أما القديس جيروم فيصرح أن الوصول للجنة من إنجلترا أسهل من الوصول إليها من بيت المقدس.

كما أنكر آباء الكنيسة الأوائل قيمة الحج بادئ الأمر، ولكنهم أقروها منذ القرن الخامس الميلادي، أو منذ القرن الرابع، وانتهى الأمر بأن أصبحت الكنيسة تطلب إلى الخطاة من أتباعها أن يكفروا عن خطاياهم بالحج إلى فلسطين، وهكذا بعد أن كان الحج في أشكاله المختلفة نتيجة لدافع شخصي للقديسين، جعلت الكنيسة منه نظاماً أساسه تكليف المرء بالحج إلى أمكنه معينة وزيارتها بشكل خاص لتغفر له خطاياه لسنة واحدة أو سبع سنوات أو لمدى الحياة، وأصبحت هذه الفروض واضحة الحدود في عام ١٠٥٩م.

أن مصطلح Peregrinus ومعناه "الغريب"، وهو ذلك الشخص الذي ترك موطنه، وسافر بعيداً عنه أصبح فيما بعد يأخذ مدلولاً دينياً بمعنى الحج، وكان هذا المصطلح معروفاً عند مسيحية القرون الأولى، وهو عبارة عن نوع من الطواف والتجوال بعيداً عن حياة المجتمع الروماني متخذاً سلوكاً روحانياً، ثم تطور في مرحلة تالية ليتخذ مظهراً رهبانياً. وما لبث هذا المفهوم أن تبلور في شكله النهائي، وذلك مع بداية القرن الرابع الميلادي ليعني الرحيل للصلاة وزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين.

وظهرت كذلك شخصيات نسائية قامت بالحج أمثال القديسة سيلفيا St. Silvia التي قامت بالحج بعد عام ٣٧٩-٣٨٨م، والقديسة بولا وابنتها إيستوكيوم *Eustochium* في عام ٣٨٥م، بالإضافة إلى أيودوكيا Eudocia زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II ٤٠٨-٤٥٠م، ولدينا أسماء العديد من السيدات اللاتي زرن فلسطين وقمن بالحج خلال القرن العاشر الميلادي منهم هيلدا Hilda كونتيسة منطقة سوابيا Swabia الألمانية التي ماتت أثناء حجها عام ٩٦٩م/٣٥٩هـ، وجوديث *Judith* دوقة بافاريا وشقيقه أوتو الكبير التي كانت في فلسطين عام ٩٧٠م/٣٦٠هـ، ويأتي علينا عصر الحروب الصليبية وتظهر لنا أسماء بعض الملكات والقديسات منهم الملكة ميلسندا وأختها إيفيت اللتان كانتا تقيمان في بيت المقدس، والأميرة الروسية أوفرسين التي أصبحت فيما بعد قديسة، ومن هنا نلاحظ أنه على الرغم من اتسام حركة الحج بالطابع الذكوري إلا أننا وجدنا شخصيات نسائية قمن بالحج إلى الأراضي المقدسة.

كما نشطت حركة الحج بشكل ملحوظ في القرن الثامن الميلادي، ومرجع ذلك سياسة التسامح الديني التي أبداها المسلمون تجاه الحجاج المسيحيين، وتقديم كافة التسهيلات لهم، ولكن تعرضت حركة الحج لانتكاسة في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، عندما قام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١٠هـ-٩٩٦-١٠٢٠م) بتدمير كنيسة الضريح المقدس The Church of the Holy Sepulchre قبلة الحجاج المسيحيين عام ١٠٠٩م/٤٠٠هـ، وينبغي أن نذكر أن المسيحيين تحت الحكم الإسلامي سواء كانوا حجاجاً، أو غير حجاج تمتعوا بحرية كاملة في أداء شعائرهم، ولا ينتقص من هذه الحقيقة سوى تصرف مؤقت من أحد الحكام وهو الخليفة الحاكم بأمر الله.

كما نجد في النصف الثاني للقرن الحادي عشر الميلادي/ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، زيادة واضحة في حركة الحج، فقد أصبح الحجاج يسافرون في مجموعات بلغت الآلاف في بعض الأحيان، فقد غادر الغرب الأوروبي أعداد ضخمة من الحجاج، وذلك في عام ١٠٦٤م/٤٧٥هـ، ويقال إن أفراد هذه الرحلة تراوح ما بين سبعة إلى اثني عشر ألف رجل، وكان ذلك بمثابة أكبر جماعة انضم بعضها إلى بعض في مسيرة واحدة قبل بدء الحركة الصليبية.

الخرائط والصور

وكان نتيجة لتوسع الأتراك في منطقة آسيا الصغرى، وتدهور أحوال الطرق بهذه المنطقة التي يمر بها الحجيج، أن صعب على الحجاج المسيحيين للوصول إلى بيت المقدس، مما دفع البابا جريجوري السابع Gregory VII ١٠٧٣-١٠٨٥م/٤٦٥-٤٧٨هـ في عام (١٠٧٤م/٤٦٧هـ) إلى دعوة جماعات الحجاج للتسلح حتى يمكنهم الوصول إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، ونجد أيضاً في خطاب البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) الذي انعقد في كليرمونت ما يدعم ذلك.

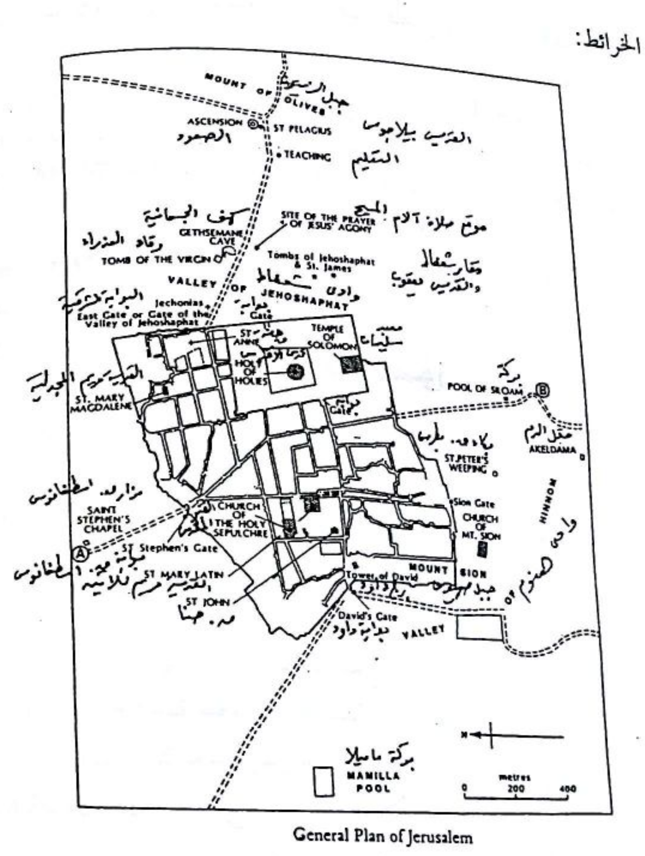
وكان من النقاط المهمة امتزاج حركة الحج مع الحركة الصليبية في دوافعها وجوانبها، فالدافعين: الديني والاجتماعي كانا أكثر وضوحاً مع حركة الحج. أما الدافع الاقتصادي والسياسي، فقد لعبت البابوية دوراً كبيراً في ترسيخهما في عقول الحجاج الصليبيين، وذلك وفقاً لمصلحتها.

لقد عمل الصليبيون على تشييد العديد من القلاع على طريق الحج لتأمين حماية الحجاج من خطر مهاجمة المسلمين لهم، فكان تأمين طريق يافا — القدس واجباً مقدساً عمل الملوك الصليبيون على توفير الأمان له، إلى جانب إنشاء العديد من القلاع الصليبية التي أمنت حركة الحجاج الصليبيين على طول فترة الدراسة.

وكانت من النقاط المهمة أيضاً اهتمام الملوك الصليبيين بإنشاء مستشفى الإسبتارية التي زاد عدد المترددين عليها من الحجاج نتيجة للعمليات الحربية التي قاموا بها ضد المسلمين في الشرق، كذلك اهتم الصليبيون بالمقدسات المسيحية وخصوصاً كنيسة القيامة (الضريح المقدس) التي كانت تقع وسط مدينة بيت المقدس، وهي من أهم مراكز المسيحيين الروحية لما لها من مكانة عظيمة، فهي مركز تدفق أكبر عدد من الحجاج المسيحيين عليها، بالإضافة إلى كنيسة القديسة حنة التي تقع داخل أسوار مدينة بيت المقدس.

وأخيراً كان للاتفاقيات العديدة المبرمة بين المسلمين والصليبيين والتي كان لها الأثر في زيادة حركة الحج وأهمها صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، معاهدة يافا عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، هدنة بيبرس وأسياد عكا ٦٧٠هـ/١٢٧٢م، معاهدة السلطان سيف الدين قلاوون، وابنه الصالح علاء الدين مع حكام عكا وصيدا عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، معاهدة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بملك أرجون الفرنجي عام ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.

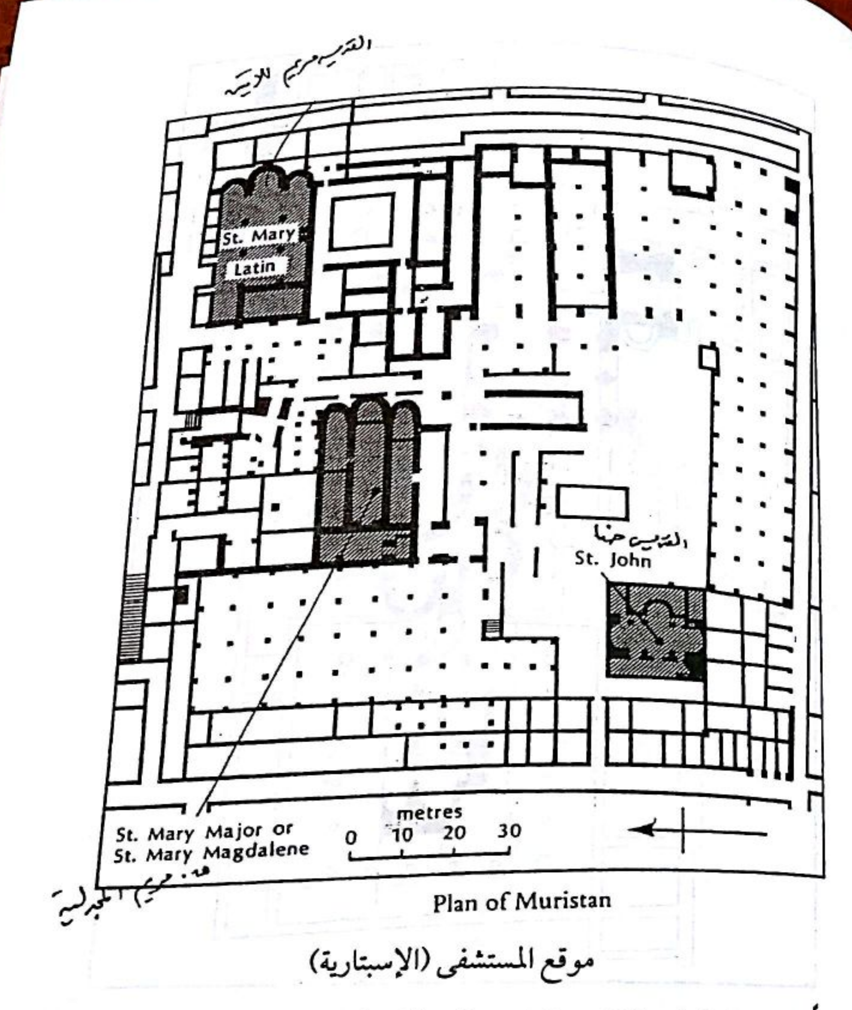
الخرائط:



General Plan of Jerusalem

الموقع العام بالقدس

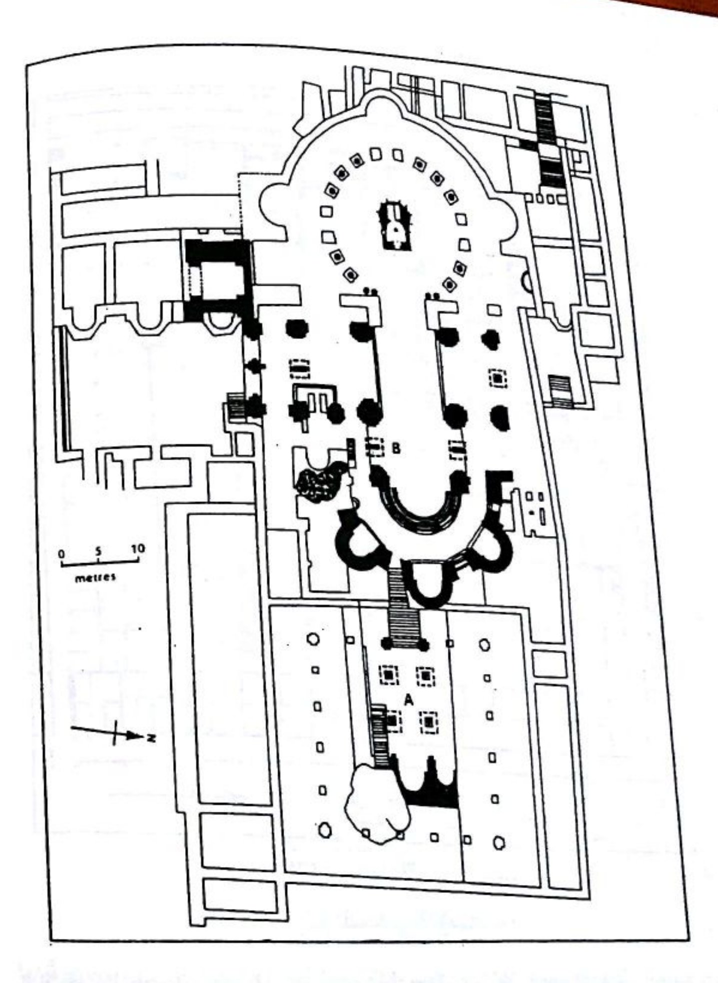
نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.25.



Plan of Muristan

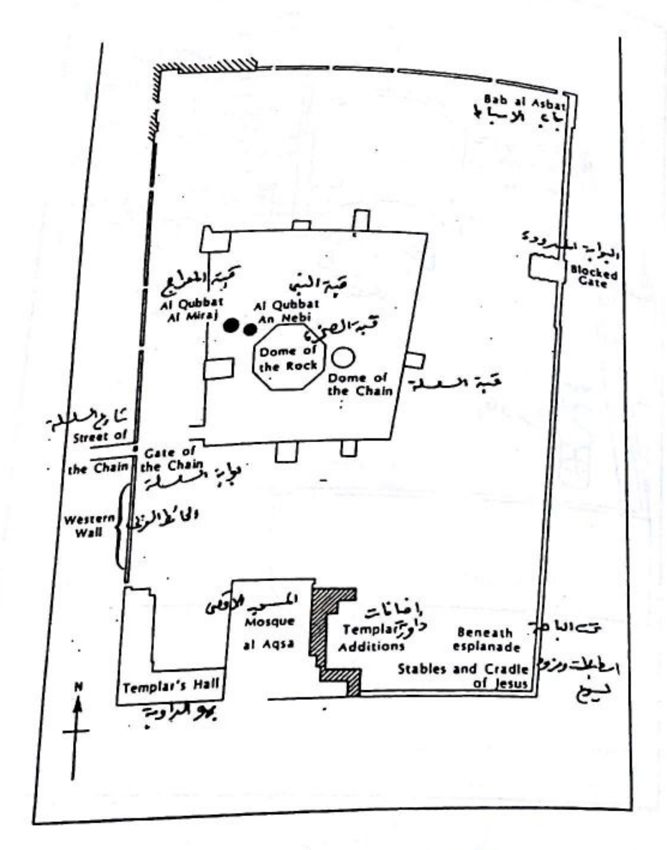
موقع المستشفى (الإسبتارية)

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.27.



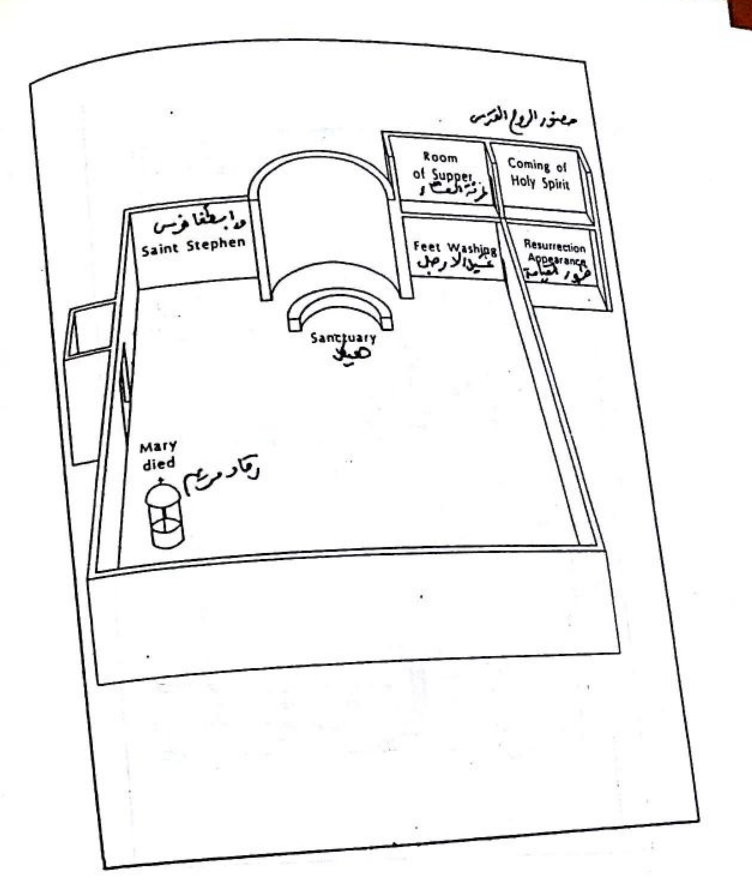
إعادة بناء القبر المقدس

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.37.



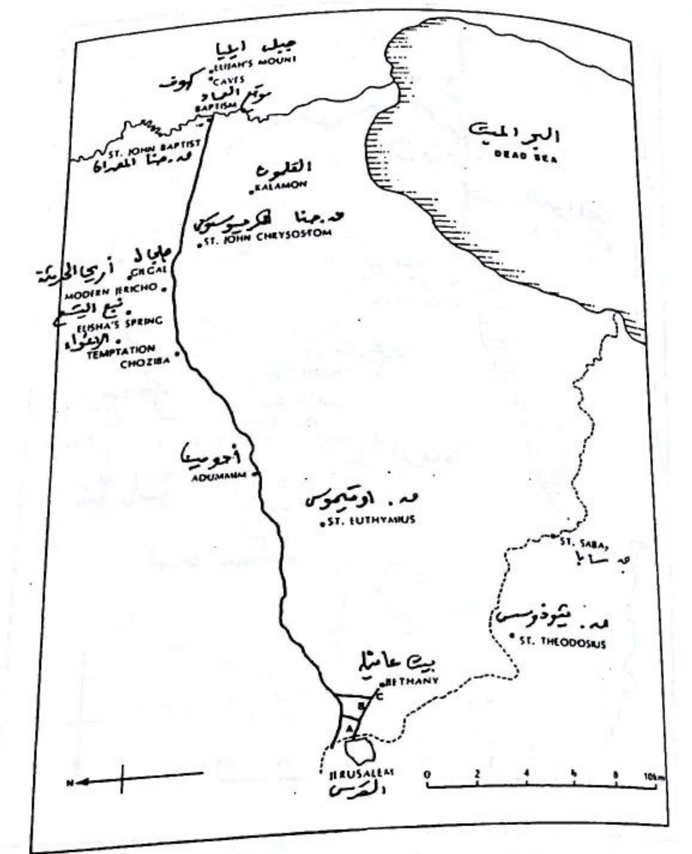
معبد الرب

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.42.



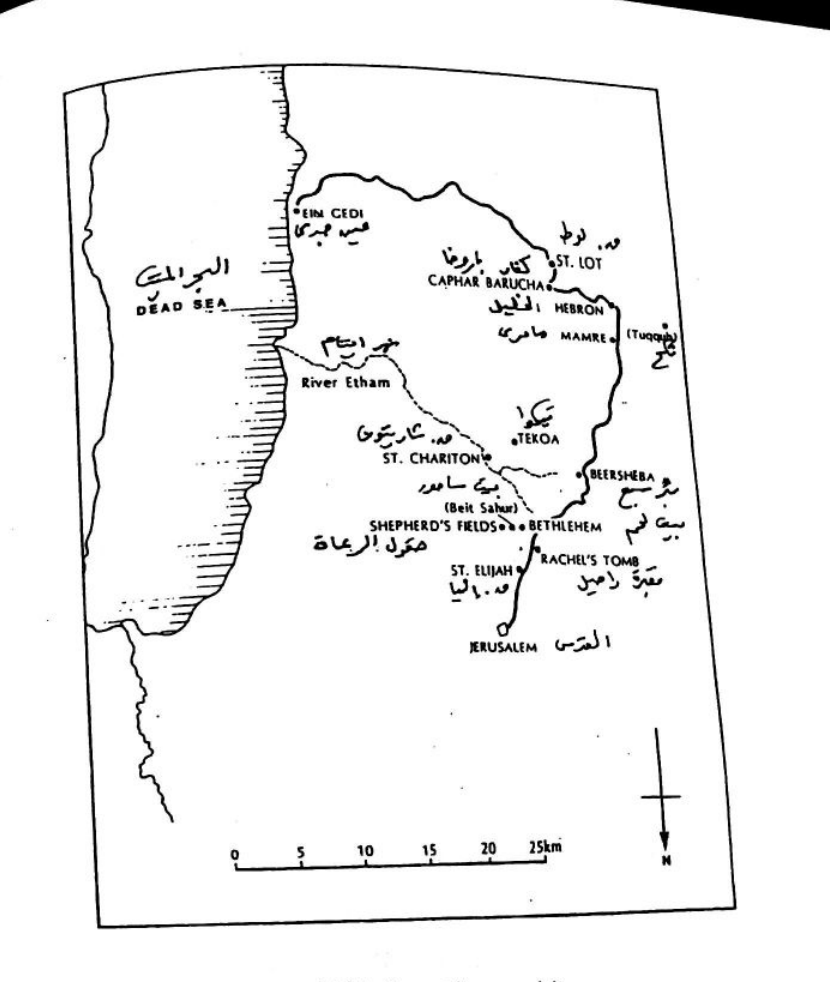
كنيسة جبل صهيون بنيت في عام ٩٦٥م

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.49.



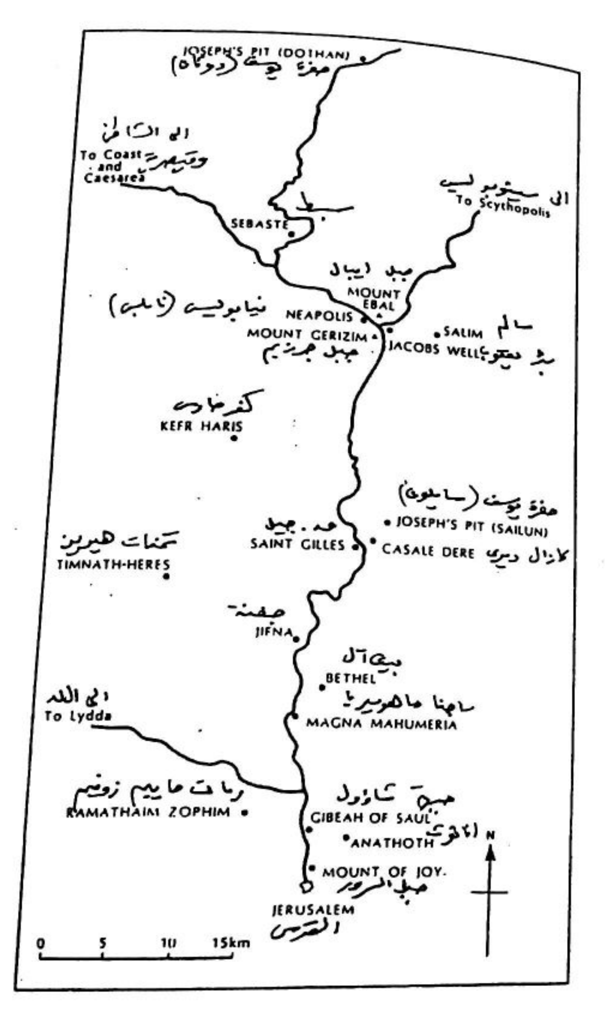
الطريق من القدس وحتى موقع العماد

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.51.



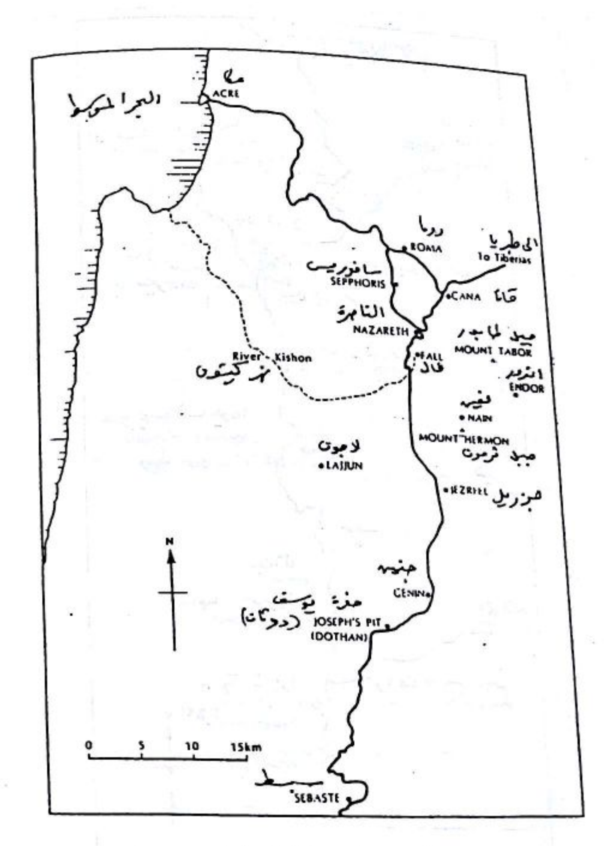
الطريق من القدس إلى الخليل

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.57.



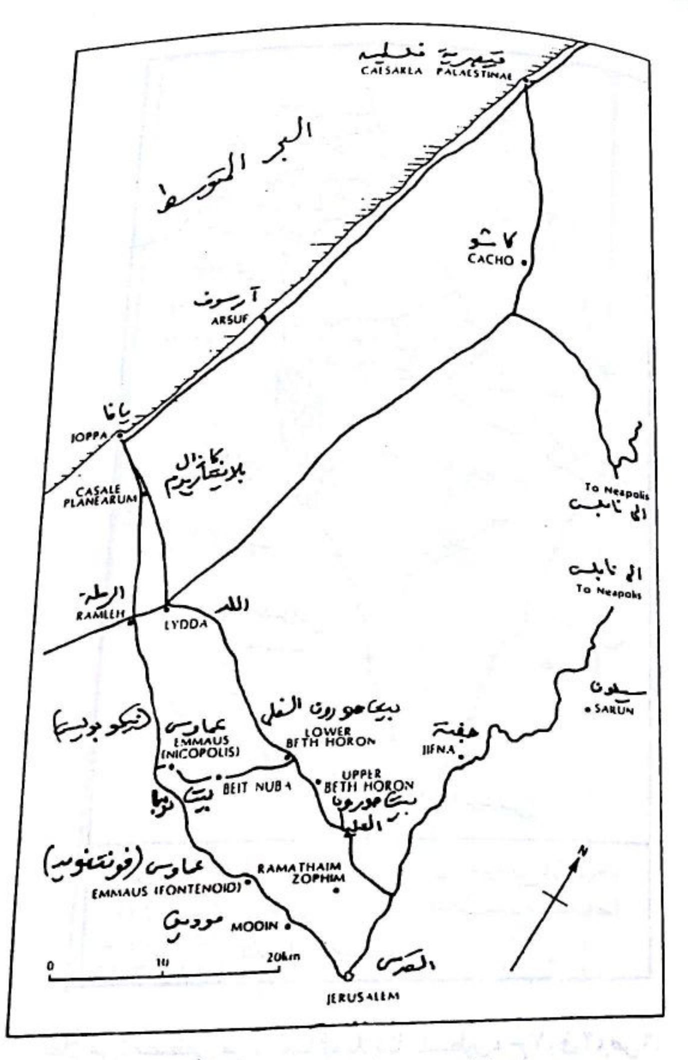
طريق القدس إلى سبسطية

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.60.



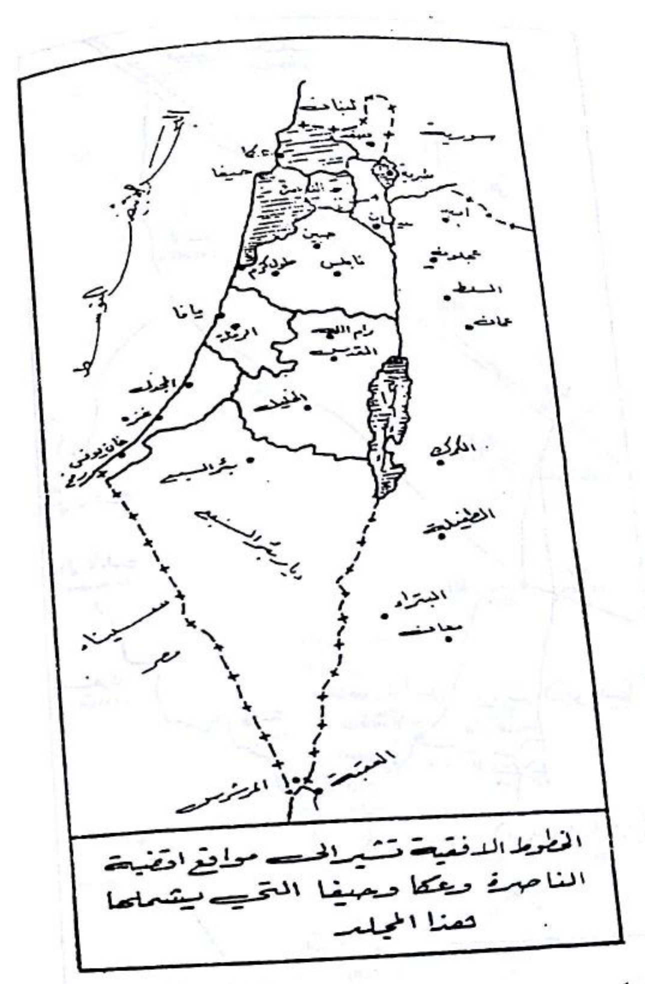
طريق من سبسطية إلى عكا

نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.63.

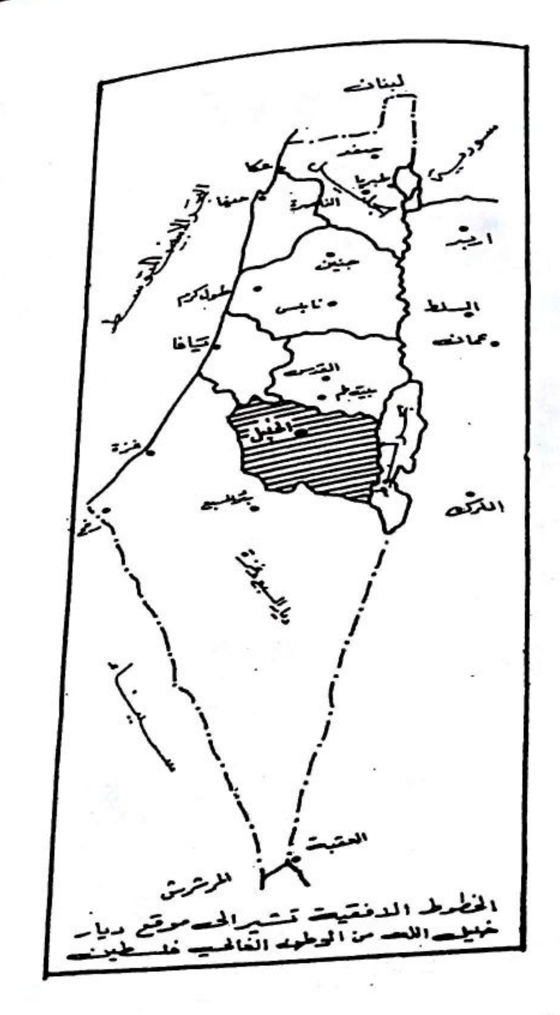


الطريق من القدس إلى يافا وقيصرية

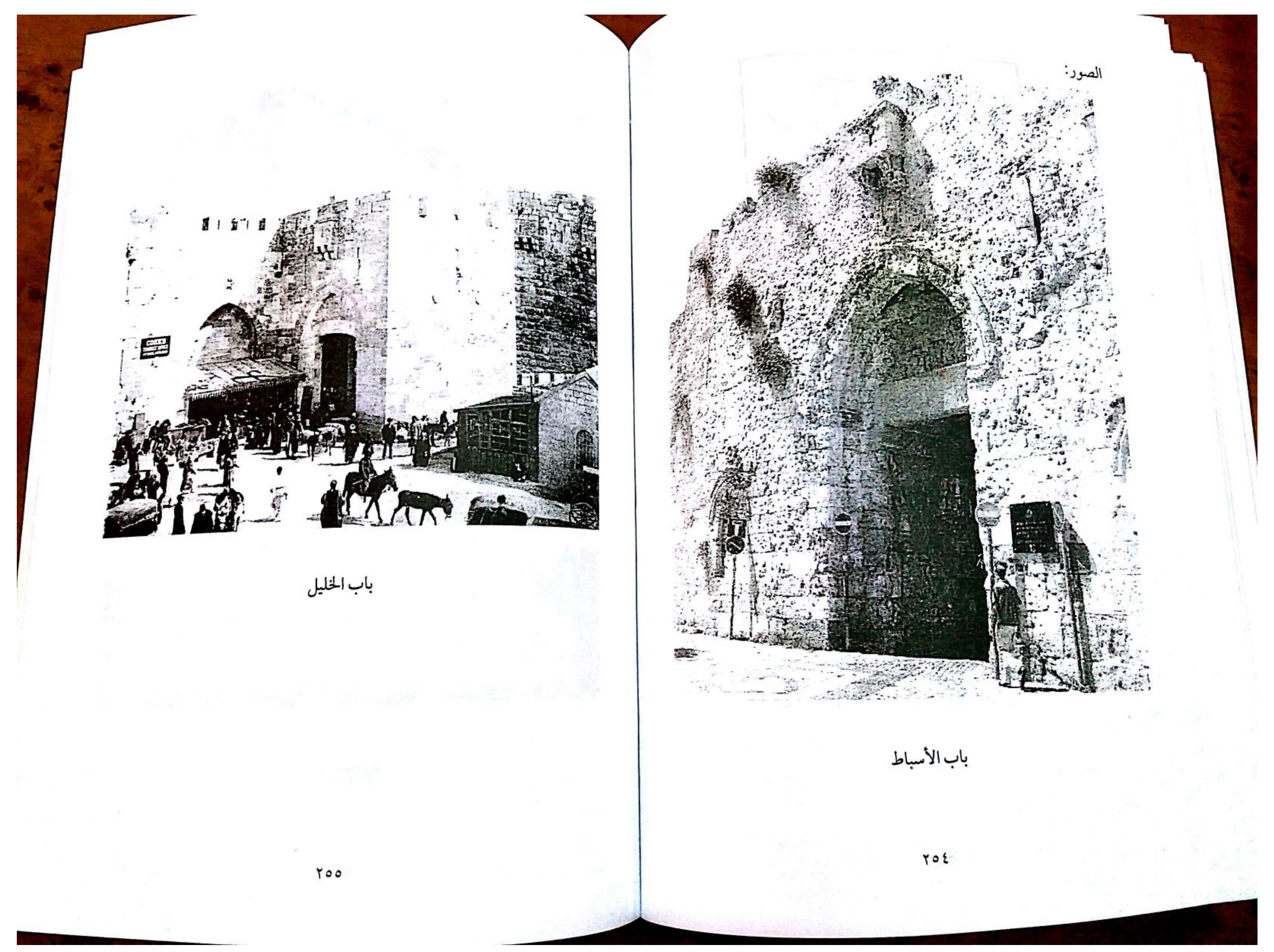
نقلاً عن: Wilinson (J.), Ryan (W.F), The Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), P.67.



نقلاً عن: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٦.

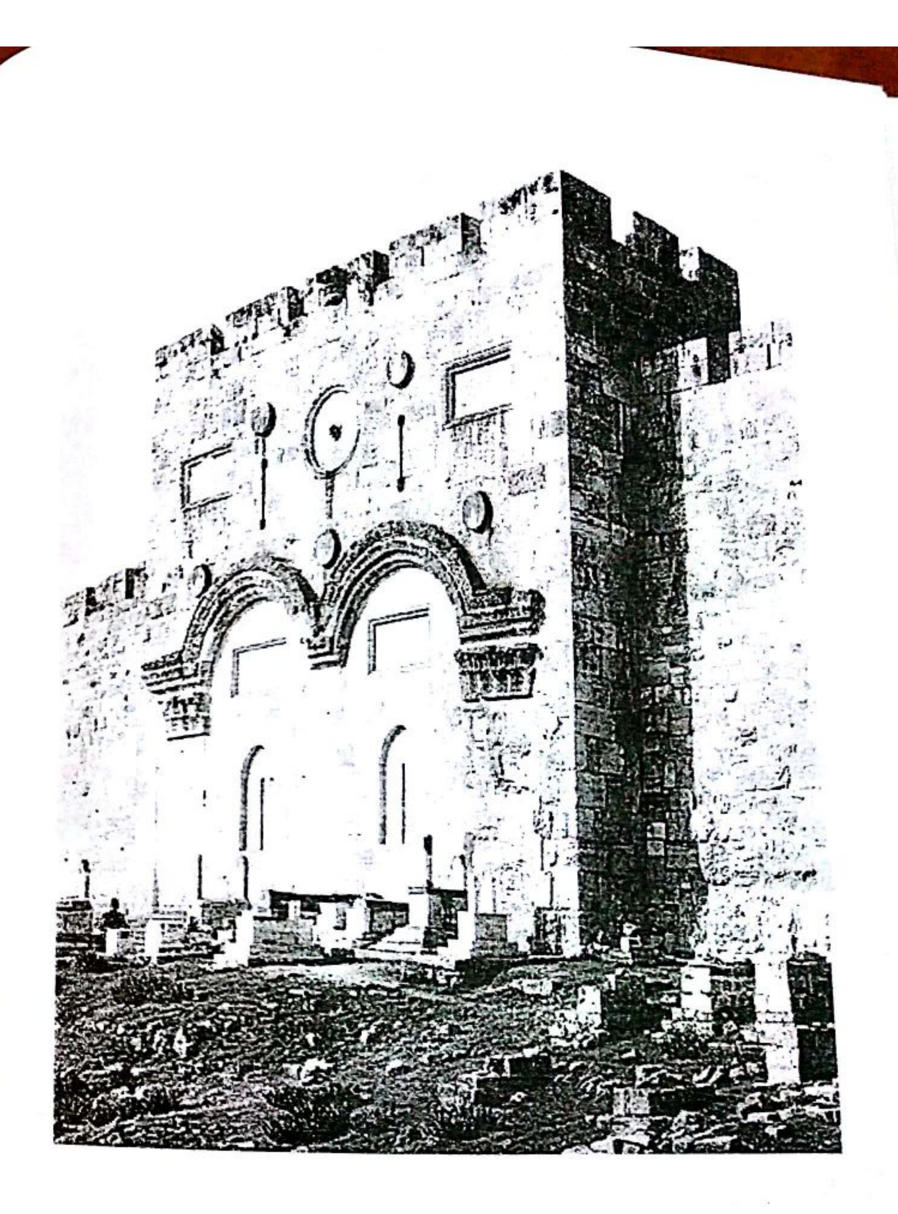


نقلاً عن: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٥، ق٢، ص١١.



باب الأسباط

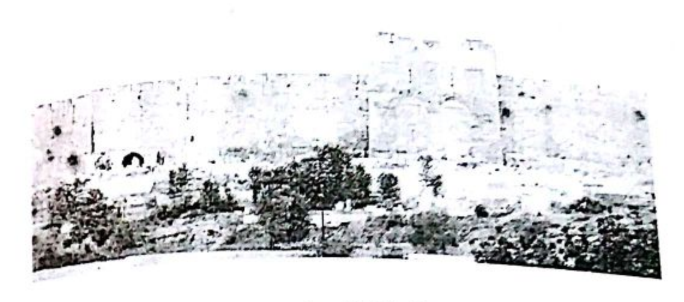
باب الخليل



باب الساهرة



باب النبي داود ﵇



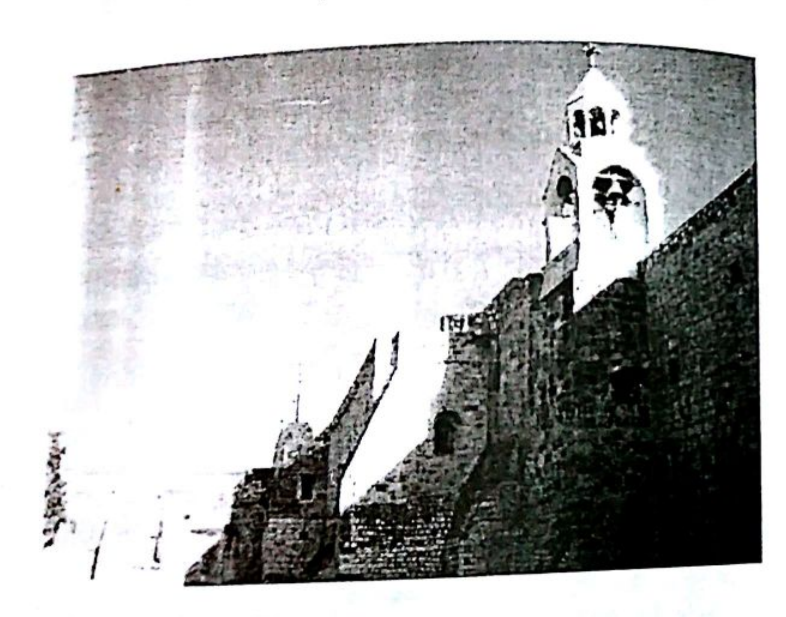
البوابة الذهبية



قبة كنيسة القيامة



كنيسة العشاء الأخير



كنيسة المهد



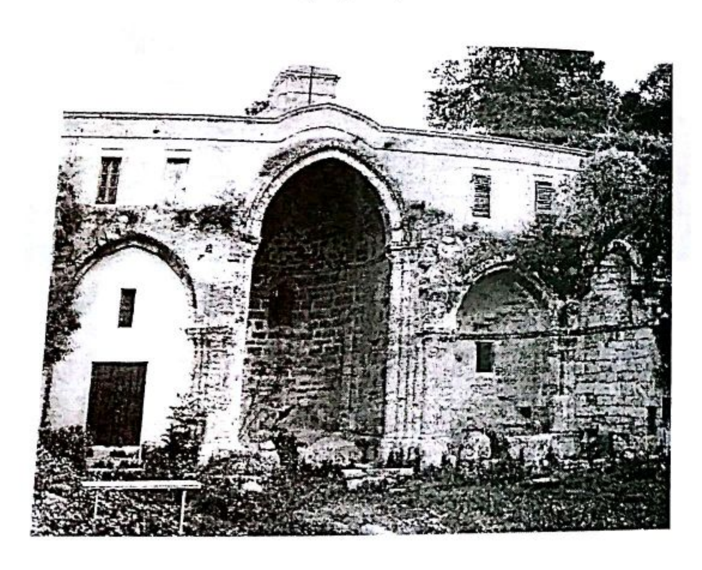
الكنيسة الجسمانية



مدخل كنيسة الصعود



كنيسة البشارة



كنيسة القديسة حنة



كنيسة نوتردام (كنيسة مريم العذراء)

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المختصرات

List of Abbreviation

- A.H.R.: American Historical Review.
- A.O.L.: Arshives de l' Orient Latin.
- B.W.: Biblical World.
- E.H.R.: English Historical Review.
- H.: L' Histoire.
- J.S.A.H.: Journal of the Society of Architectural Historians.
- M.W.: Muslim World.
- P.P.T.S.: Palestine Pilgrims Text Society.
- R.H.C.: Recueil des Historiens des Croisades.
- R.O.L.: Revue de l' Orient Latin.
- S.: Speculum.
- W.A.: World Archaeology.

أولاً: المصادر الأجنبية:

- Abbasid Pilgrimage to Hebron, in the Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Abbasid Road to Nazareth and Acre, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Albert de Aix Historia Hierosolymitana Ed. R.H.C., Occtome T. IV, Paris 1879.
- Ambroise, The Crusade of Richard Heart of lion, Trans by Hubert, New York 1943.
- An Account of the location of the places, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- An Anonymous life of Constantine, in Jerusalem Pilgrims before the Crusades by John Wilkinson, London 1977.
- Anonymous Pilgrim VI (Pesudo Beda 12th Century), in Palestine Pilgrims text society, translated by Aubrey Stewart, London 1894.
- Anonymous Pilgrims, Palestine Pilgrims Society, translated by Aubrey Stewart, Vol. IV, London 1894.
- Anonymous Pilgrims, Palestine Society, translated by Aubrey Stewart, Vol. I, London 1894.
- Anoymous Pilgrim II, in Palestine Pilgrims text society translated by Aubrey Stewart, London 1894.
- Anoymous Pilgrim, in Palestine Pilgrims text society, translated by Aubrey Stewart, Vol.II, London 1894.

- Anoymous Pilgrim, in Palestine text society, translated by Aubrey Stewart, Vol. V, London 1892.
- Arculf, The Travels of Arculf in the Holy Land, in Early Travles in Palestine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848.
- Benjamin of Tudela, Travels of Benjamin of Tudela, in Wright Early Travels in Palestine, London 1848.
- Bernard the Monk, A Journey to the Holy Places and Babylon ed. John Wilkinson (J.), Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London 1977.
- Bernard the wise, the voyage of Bernard the wise, in Early travels in Palestine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848.
- Caffaro, Annali Genovesidi di Caffaro, Roma, 1890.
- Casola (P.), Canon Casola's Pilgrimage to Jerusalem, Manchester 1907.
- City of Jerusalem, in P.P.T.S., trans. by C.R. Conder, Vol. VI, London 1888.
- Commororatorium on the Churches of Jerusalem, in Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London 1977.
- Daniel, the Abbot, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Delaville le Roulex, "Inventaire de Pieces Terre Sainte de L'Hospitale", R.O.L.. T. III, Année 1885.
- __________, Cartulaire General de L'Ordre des Hospitallers de St. Jean de Jerusalem (1110-1130), Vol. I, Paris 1894.
- __________, Cartulaire Génerale de L'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jerusalem (1100-1310), Vol. I, Paris 1899.

- Ernoul, The City of Jerusalem, trans. by Conder, P.P.T.S., Vol. VI, London 1896.
- Euphrosine, Pelerinage en Palestine de L'Abbesse Euphrosine, Traduit par de Khitroux, R.O.L., T. III, Année 1895.
- Eusebius Extracts from Eusebius life Constantine, trans. by John H. Bernard, B.D., in Palestine Pilgrim's text society, Vol. I, London 1896.
- Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. By Frances Rita Ryan, with an introduction by Harold, S. Fink, Konuville U.S.A. 1969.
- Geneviève (B.B.), le cartulaire du Chapitre du Saint-Sepulcre de Jerusalem, Paris 1984.
- Geoffrey of Vinsauf, crusade of Richard Coeur de lion, in Chroicles of the Crusades, London 1908.
- Guide in Gesta Francorum Expugnantium Iherusalem, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Jacob Ben R. Nathaniel Ha Cohen, the Itinerary of Rabbi Jacob Ben R. Nathaniel Hacohen Twelfth Century, in Jewish Travellers, London 1930.
- Jacques de Veronc, Liber Peregrin 1335 A.D., in R.O.L. Vol. III, Paris 1895.
- John of Würzburg, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- John Phocas, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185). Trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.

- John Rufus, Jerusalem Pilgrims before Crusades, London 1977.
- Kohler (CH.), "Chartes de L'Abbaye de Notre-Dame de la Vallee de Josophat en Terre-Saint', in R.O.L., tome XI, Paris 1899.
- Ludolph Von Suchemn's Description of the Holy Land, and of the way thither, translated by Aubrey Stewart, M.A., in Palestine Pilgrims, text society, Vol. XII, London 1895.
- Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique, in R.H.C. Doc. Arm, Vol. I, Paris 1869.
- Muhammad al-Idrisi, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Nicetas Choniates, O City of Byzantium, Annales of Niketas Choniates, trans. By Harry Mogoulias, Wayne State University, Detroit 1984.
- On the site of Jerusalem, and of the Holy Places in side the city of round it, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185). Trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Philip of Novara, the Crusade of Frederick II, in Christian Society and the Crusades 1198-1229, trans. By Gavigan, ed. Peter, Philadelphia, 1971.
- Procopius, of the building of Justinian (Circ. 560 A.D.,), trans. by Aubrey Stewart, in Palestine Pilgrim's text society, Vol. II, London 1896.
- Rabbi Jacob, the Messenger of Rabbi Jechiel of Paris (1238-1244), in Jewish Travellers, London 1930.
- Rabbi Petachia of Ratisbon, the Itinerary of Rabbi Petachia 1170-1187, A.D., in Jewish Travellers, London 1930.

- Ralph Gilaber, Historiarum, in Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London 1977.
- Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de lion, in chronicles of the crusades, London 1908.
- Ricoldo de Monte-Croce, Lettres de-Ricoldo de Monte Croce, 1280-1300 A.D., ed. Rohricht (R.), in A.O.L., Vol. II, Paris 1884.
- Roger of Wendover, the Crusade of Frederic II, in Christian Society and the Crusades 1198-1229, trans. By Gavigan, ed., Peters Philadelphia 1971.
- Rohricht (R.), Ceshichte des Konigeiches Jerusalem, Innsbrusk, 1898.
- ______________, Regesta Regni Hierosolimitani, Innsbruck 1893.
- Sage of Sigurd the Crusader (1107-1110), in Wright Early Travels in Palestine, London 1898.
- Samuel Ben Samson, Itinerary of Rabbi Samuel Ben Samson, in 1210 A.D., in Jewish Travellers, London 1930.
- Sawulf, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- Second Guide, in the Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.
- St. Eucherius, The Epitome of Eucherius about certain Holy Places (Circ. A.D., 440), and the Breviary of Short Description of Jerusalem (Circ. A.D. 530), trans. by Stewart, in Palestine Pilgrim's text society, Vol. II, London 1890.

- *St. Jerame, the Pilgrimage of the Holy Paula, trans. by Aubrey Stewart in Palestine Pilgrim's, Vol. I, London 1887.*
- *St. Silvia, Pilgrimage of S. Silvia of Aquitania to the Holy Places (Circa 385 A.D.,) trans. by John H. Bernard, B.D., in Palestine Pilgrim's text society, Vol. I, London 1891.*
- *Theoderic, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185), trans. by Wilkinson (J.), Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.*
- *Theodosius, The Topography of the Holy Land, in Jerusalem Pilgrims before the Crusades, London 1977.*
- *________________, The Topography of the Holy Land, trans. by Bernard (J.H.), P.P.T.S., Vol. III, London 1893.*
- *Way of Cross and the Templar, in Jerusalem Pilgrimage (1099-1185) trans. By Wilkinson (J.). Hill (J.), Ryan (W.F.), London 1988.*
- *Wilibald, The Travel of Wilibald, in Early Travels in Plastine, edited with notes by Thomas Wright, London 1848.*
- *William of Tyre, A History of Deeds done beyond the sea, trans. by E.W. Babcock, New York 1943.*

ثانياً: المصادر العربية:

- ابن الأثير الجزري (عز الدين محمد ٣٦٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج٧، ج٨، ج١٠، ط. بيروت ١٩٨٧م.
- ـــ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق سعيد عاشور، ط. القاهرة ١٩٧٢م.
- ـــ كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج٦، ط. القاهرة ١٩٦١م.

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، الرحلة المسماه، تحفة النظار في عجائب الأمصار، ط. بيروت ١٩٨٧م.
- ابن تغري بردي الأتابكي (جمال الدين يوسف ت. ٨٧١هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ج٧، ج٨، ط. بيروت ١٩٩٢م.
- ـــ مورد اللطافة من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد، ج١، ط. القاهرة ١٩٩٧م.
- ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني ت. ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٩٢م.
- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن علي ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ج٨، بيروت ١٩٩٢م.
- ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقره وعبد الحليم عويس، ط. القاهرة ١٤٠٤هـ.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج٣، ج٥، بيروت ١٩٦٨م.
- ابن سعيد المغربي (علي بن موسى ت. ٦٧٢هـ/١٢٧٥م)، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، معهد مولاي الحسن، ط. تطوان ١٩٥٨م.
- ـــ كتاب الجغرافيا، ت. إسماعيل العربي، ط. بيروت ١٩٧٠م.
- ابن سينا (أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على ت. ٤٢٨هـ/١٠٣٦م)، القانون في الطب، ج٣، بيروت ب.ت.
- ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماه ت. ٦١٧هـ/١٢٢٢م)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٦٨م.
- ابن شاهين (غرس الدين خليل ت. ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بول رافيس، ط. باريس ١٨٩٤م.
- ابن شداد (القاضي بهاء الدين ت. ٦٣٢هـ/١٢٢٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن

اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٦٤م.

- ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ج١، ج٢، ط. دمشق ١٩٦٢م.
- ابن عبد الظاهر (محيي الدين ت. ٦٩٢هـ/١٢٩٣م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط. الرياض ١٩٧٦م.
- ـــ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط. القاهرة ١٩٦١م.
- ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم ت. ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ج٢، ط. دمشق ١٩٥٤م، ج٣، ط. دمشق ١٩٦٨م.
- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٣، القاهرة ١٣٥٠م.
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد ت. ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك، نشرليوت ورالي سميث، كامبردج ١٩٧١م، تاريخ الدول والملوك، ت. قسطنطين رزيق، ج٧، بيروت ١٩٤٢م.
- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة ت. ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أميدروز، ط. بيروت ١٩٠٨م.
- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ج٦، ج١٣، القاهرة ١٩٩١م.
- ابن ميسر (تاج الدين محمد ت. ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، أخبار مصر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٨١م.
- ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٠م، ج٤، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٢م، ج٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.
- ابن واصل الحموي، التاريخ الصالحي، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢١، دمشق ١٩٩٥م.

- ابن الوردي (أبو حفص زين الدين ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، بيروت ١٩٧٠م.
- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت. ٦٥٥هـ/١٢٦٧م)، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق أحمد البسيومي، ط. دمشق ١٩٩١م، القسم الثاني، دمشق ١٩٩٢م.
- ـــ الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، ج٢، بيروت بدون تاريخ.
- أبو الفداء (إسماعيل بن علي ت. ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ط. القاهرة، ب.ت.
- ـــ تقويم البلدان، تحقيق رينو ودي سلان، ط. باريس ١٨٤٠م.
- أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ط. القاهرة ب.ت.
- الإدريسي (الشريف الإدريسي ت.ق. ٦هـ/١٢م)، نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق ليدن ١٨٩١م، ج١، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- الأصفهاني (العماد الأصفهاني، القاضي محمد بن محمد، ت. ٥٩٨هـ/١٢٠١م)، تاريخ دولة آل سلجوق اختصار الفتح البنداري، ط. القاهرة ١٩٠٠م.
- البنداري (العماد الكاتب محمد بن محمد، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، تاريخ دول آل سلجوق، بيروت ١٩٨٧م.
- ـــ سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م.
- بيبرس المنصوري (ابن عبد الله الدواداري ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط. القاهرة ١٩٨٧م.
- الحريري أحمد بن علي، الأعلام والتبين في خروج الفرنج، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٥م.
- الحسيني (صدر الدين علي الحسيني)، زبدة التواريخ، ط. بيروت ١٩٨٥م.
- الحموي ابن نظيف، من التاريخ المنصوري، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢١، دمشق ١٩٩٥م.
- الحنبلي أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة

الشرقاوي، ط. القاهرة ١٩٩٦م.

- الحنبلي مجير الدين (قاضي القضاة أبو اليمن، عاش في القرن العاشر الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج٢، بيروت ١٩٧٣م.
- الدواداري (أبو بكر عبد الله ت. ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ج٦، القاهرة ١٩٩١م.
- الذهبي (الحافظ الذهبي، ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. بيروت ١٩٩٤م.
- ـــ العبر في خبر من عبر، تحقيق فؤاد سيد، ج٣، الكويت ١٩٦١م.
- ـــ دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، ط. بيروت ١٩٩٩م.
- الراوندي (محمد بن علي بن سليمان)، راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وآخرون، القاهرة ١٩٦٠م.
- رشيد الدين الهمذاني (فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ - تاريخ المغول، ت: محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد، م٢، ج١، ط. القاهرة ١٩٦٠م.
- سبط بن الجوزي (أبو المظفر يوسف ت. ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج٨، ق١، ط. حيدر أباد الدكن، الهند ١٩٥١م.
- السيوطي (أبو عبد الله محمد المنهاجي السيوطي، ت. ٨٨٠هـ/١٤٨٥م)، أتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد، القسم الأول والقسم الثاني، القاهرة ٢٠٠٥م.
- شافع بن علي بن عباس، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، ط٢ الرياض ١٩٨٩م.
- صالح بن يحيى، كتاب تاريخ بيروت، تحقيق الأب لوس شيخو اليسوعي، ط. بيروت ١٩٢٧م.
- الصالحي الدمشقي، المواكب الإسلامية والممالك والمحاسن الشامية، ت. حكمت إسماعيل، ط. دمشق ١٩٩٣م.

- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ط. القاهرة ١٩٦٢م.
- عز الدين محمد بن أبي الهيجاء، تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق صبحي عبد المنعم، ط. القاهرة ١٩٩٣م.
- العظيمي، تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق ١٩٨٤م.
- العماد الأصفهاني (محمد بن محمد ت. ٥٩٨هـ/١٢٠١م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد صبيح، ط. القاهرة ١٩٦٥م، القاهرة ٢٠٠٣م.
- ـــ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج١١، دمشق ١٩٩٥م.
- العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ٧٠١-٧٤٩هـ/١٣٠١-١٣٤٩م)، مسالك الأنصار في ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، تحقيق دوروثيا كرافولسكي، ط. بيروت ١٩٨٦م.
- ـــ مسالك الأبصار في ممالك الأنصار، تحقيق محمد كمال الدين، ج٢، ج٣، ط. الرياض ٢٠٠٨م.
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت. ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، ط. بيروت ١٩٦٠م.
- القلقشندي (أبو العباس أحمد ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى، ج٢-٤-١٤، ط. القاهرة ١٩١٤م.
- المسعودي (علي بن الحسين بن علي ت. ٣٤٦ هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب، ج١، القاهرة ١٣٤٦هـ.
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله ت. ٣٨٨هـ/٩٩٨م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي جويه، ط. ليدن ١٩٠٩م.
- المقريزي (أحمد بن علي المقريزي ت. ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج١، ق١، القاهرة ١٩٣٤م، ج١، ق٢، القاهرة ١٩٣٦م، ج١، ق٣، القاهرة ١٩٣٩م.

- ـــ إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج٢، ج٣، ط. القاهرة ١٩٧١م، القاهرة ١٩٩٦م.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الروّيفعي الإفريقي ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ج١١، ط٤ بيروت ٢٠٠٥م.
- ناصر خسرو، سفرنامة، ت. يحيى الخشاب، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- النوري، (شهاب الدين النوري ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣، ج٨، القاهرة ١٩٣١م.
- الهروي (أبو الحسن علي بن أبي بكر ت. ٦٢١هـ/١٢١٥م)، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيقي دومنيك سورديل، ط. دمشق ١٩٥٣م.
- اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل منصور، ج٣، ط. بيروت ١٩٩٧م.
- ياقوت الحموي، (شهاب الدين أبو عبد الله، ت. ٦٧٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج٢، ج٤، ج٥، بيروت ١٩٨٤م.
- اليونيني (قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي المتوفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، مرآة الجنان، ج٢، حيدر أباد، الهند ١٩٥٠م.

ثالثاً: المصادر المعربة:

- أتو أسقف فريزنج، ما ورد لدى أتو أسقف فريزنج عن الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٢٨، دمشق ١٩٩٧م.
- أرنول، وصف الأرض المقدسة، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٧، ط. دمشق ١٩٩٩م.
- أغوسطينوس، اعترافات القديس أغوسطينوس، ت. يوحنا الحلو، ط. بيروت ١٩٦٢م.
- امبرويز، صليبية ريتشارد قلب الأسد، ضمن الموسوعة الشامية، ج٣٢، ترجمة سهيل زكار، دمشق ١٩٨٩م.
- اينهار، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، ط. دمشق ١٩٨٩م.

- بطرس توديبوا، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الإسكندرية ١٩٩٨م.
- بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ت. عزرا حداد، ط. بغداد ١٩٤٣م.
- بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م.
- ثيودريش، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ت. سعيد البيشاوي ورياض شاهين، ط. عمان ٢٠٠٣م.
- جوانفيل، القديس لويس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٨م.
- جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته حوالي (١٤٨٠-١٤٨٣م)، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣٨، دمشق ٢٠٠٠م.
- الحروب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، ترجمة حسن حبشي، الجزء الثاني، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.
- دانيال الروسي، رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ١١٠٦-١١٠٧م، ت. سعيد البيشاوي وداود إسماعيل، عمان ٢٠٠٣م.
- روبرت كلاري، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٦٤م.
- ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ت. حسين عطية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م.
- سايولف، وصف رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢-١١٠٣م، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٧م.
- فليب دي نوفارا، حروب فردريك الثاني ضد الابلينين في سورية وقبرص، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٣٤، دمشق ١٩٩٨م.
- فيتيلوس، وصف الأرض المقدسة (١١٣٠)، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، الجزء الحادي والثلاثون، ط. دمشق ١٩٩٨م.
- مارينو سانوتو، كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على إسترداد الأراضي المقدسة، ترجمة سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣، ط. دمشق ١٩٩٩م.

- مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ت. حسن حبشي، ط. القاهرة ١٩٥٨م.
- مجهول، ذيل وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي، ط. القاهرة ٢٠٠٢م.
- ملحمة ريتشارد قلب الأسد، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج٩، دمشق ١٩٩٣م.
- ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ت. مارغريغوريوس صليبا شمعون، ط. دمشق ١٩٩٦م.
- نظام الملك الطوسي، سياسة نامة، ترجمة محمد العزازي، القاهرة (د. ت).
- يعقوب الفيتري، تاريخ بيت المقدس، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٨م.
- يوحنا فورزبورغ، وصف الأرض المقدسة، ت. سعيد البيشاوي، ط. عمان ١٩٩٥م.
- يوحنا فوقاس، رحلة حج يوأنس فوقاس في الأرض المقدسة في عام ١١٨٥م، ترجمة سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٤، ط. دمشق ١٩٩٨م.

رابعاً: المراجع العربية:

- إبراهيم خميس إبراهيم، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية (جماعة الفرسان الداوية)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م.
- إبراهيم سعيد فهيم، حركة الحج الأوروبي إلى الأماكن المقدسة في الشرق الأدنى الإسلامي (١٢٩١-١٥١٧م/ ٦٩٠-٩٢٣هـ)، ج١، ط. الإسكندرية ٢٠٠٧م.
- ـــ يافا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٧م.
- أحمد الشامي، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٨٥م.
- أحمد حطيط، الحج الأوروبي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج، ضمن كتاب مسيحيون ومسلمون في زمن الحملات الصليبية بين المواجهة واللقاء،

ط. بيروت ٢٠٠٧م.
- أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- ـــ، الرحلة والرحالة المسلمون، ط. جدة، ب.ت.
- ـــ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. القاهرة ب.ت.
- أرشيد يوسف، سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥-٥٧٠، ط. عمان ١٩٨٨م.
- إسحاق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، ط. القاهرة ١٩٧٢م.
- ـــ، الفرسان الأقنان في مجتمع الإقطاع، ط. بنغازي ١٩٧٥م.
- أسعد منصور، تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، مصر ١٩٢٤م.
- إسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، ط. الإسكندرية ١٩٨٨م.
- أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
- بطرس الجميل وآخرون، كتاب السنكسار الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، ج١، ط٢ القاهرة ١٩٦٩م.
- تيسير بن موسى، نظرة عربية على غزوات الإفرنج (من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين)، ط. بني غازي ١٩٨٣م.
- جمعة مصطفى الجندي، الاستيطان الصليبي في فلسطين، ط. القاهرة ٢٠٠٦م.
- ـــ ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ط. القاهرة ٢٠٠٦م.
- ـــ نظم الحكم والإدارة في مملكة بيت المقدس الصليبية، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- جوزيف نسيم يوسف، الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م.
- ـــ العدوان الصليبي على بلاد الشام – هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، الإسكندرية ١٩٨٩م.

- ـــ العدوان الصليبي والرأي العام الغربي، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ط. الإسكندرية ١٩٨٣م.
- ـــ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط. الإسكندرية ١٩٦٣م.
- ـــ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٨٩م.
- ـــ تاريخ الحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م.
- ـــ تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الإسكندرية ١٩٨٧م.
- ـــ نشأة الجامعات في العصور الوسطى، ط٢، بيروت ١٩٨١م.
- حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- حامد زيان غانم، الإمبراطور فردريك بارباروسيا والحملة الصليبية الثالثة، ط. القاهرة ١٩٧٧م.
- حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج١، ط. القاهرة ١٩٧١م.
- حسن حبشي، الحروب الصليبية الأولى، ط. القاهرة ١٩٤٧م.
- حسن عبد الوهاب حسين، دراسات في التاريخ الاقتصادي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ٢٠٠٢م.
- ـــ تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأرض المقدسة حوالي ١١٩٠-١٢٩١م/٥٨٦-٦٩٠هـ، ط. الإسكندرية ١٩٨٩م.
- ـــ تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م.
- حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ط. القاهرة ١٩٨٧م.
- خاشع المعاضيدي وسوادي عبد ودريد نوري، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ط. بغداد ١٩٨٦م.
- خليل عثامنة، فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي (٦٣٤-١٠٩٩م)، ط. بيروت ٢٠٠٠م.
- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج١، القاهرة ١٩٧٤م.

- راهب من برية شيهيب، القدس، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.
- زبيدة محمد عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، القاهرة ب.ت.
- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- زينب عبد القوي، الإنجليز والحروب الصليبية في الفترة من ١١٨٩-١٢٩١م، ط. القاهرة ١٩٩٦م.
- سرور عبد المنعم، الأوضاع الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، ضمن دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في الشرق، ط. بيروت ١٩٨٤م.
- سعيد جبريل البيشاوي، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٢-٦٩٠هـ)، ط. الإسكندرية ١٩٩٠م.
- ـــ نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية عصر الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. عمان ١٩٩١م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩م.
- ـــ الحركة الصليبية، ج١، ط٦ القاهرة ١٩٩٦م، ج٢، ط٦، القاهرة ١٩٩٤م.
- ـــ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ط. القاهرة ١٩٩٥م.
- ـــ أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ط٦ القاهرة ١٩٩١م.
- ـــ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ط. القاهرة ١٩٩٢م.
- ـــ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٧٢م.
- السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
- ـــ تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت ب.ت.
- ـــ مؤرخو الحرب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٦٢م.
- السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ط. الإسكندرية ١٩٨١م.

- ـــ طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ط. الإسكندرية ١٩٦٧م.
- سيد علي الحريري، كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط٣ القاهرة ١٩٨٥م.
- صفاء عثمان محمد، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.
- صلاح الدين محمد نوار، العدوان الصليبي على العالم الإسلامي (٤٩٠-٥١٥هـ/١٠٩٧-١١٢١م)، ط. الإسكندرية ١٩٩٢م.
- طالب الصوافي، القلاع والحصون في شمالي فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، ط. عكا ٢٠٠٠م.
- طه حسين، القضاء في بغداد إبان العصر البويهي، ط. القاهرة ٢٠٠٩م.
- عادل إسماعيل محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي، ط. القاهرة ١٩٩٧م.
- عادل عبد الحافظ حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- عارف العارف، تاريخ القدس، ط. القاهرة ١٩٥١م.
- عبد الجبار الجومرد، هارون الرشيد، الجزء الثاني، ط. بيروت ١٩٥٦م.
- عبد الحافظ عبد الخالق البنا، أسواق الشام في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
- عبد الحفيظ محمد علي، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية (١١٣١-١١٨٧م)، ط. القاهرة ١٩٨٤م.
- عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ط. القاهرة ١٩٧٤م.
- عبد اللطيف عبد الهادي السيد، الحركة الصليبية عصر بلدوين الثالث ١١٤٣-١١٦٣م، ط. الإسكندرية ٢٠٠٦م.
- عبد الله عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ط. الرياض ١٩٩٤م.

- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٨٢م.
- ـــ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٦٦م.
- ـــ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ط. القاهرة ١٩٨٥م.
- عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٥٩م.
- عبد الهادي محمد رضا، نظام الملك الحسن بن إسحق الطوسي (٤٠٨/٤٨٥هـ) كبير الوزراء في الأمة الإسلامية دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله، ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- عزيز سوريال عطيه، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، ط٢ القاهرة ١٩٩٠م.
- عصام سختيني، طغتكين أتابك دمشق ٤٨٨-٥٢٢هـ/١٠٩٥-١١٢٨م، ط. عمان ٢٠٠٣م.
- عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي، بيروت ١٩٩٤م.
- عفاف سيد صبره، التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط. القاهرة ١٩٨٧م.
- ـــ دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٨٥م.
- علي أحمد محمد السيد، الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م.
- ـــ أدب الرحلة مصدراً لتاريخ الحروب الصليبية (٤٨٨-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، ط. الإسكندرية ٢٠٠٠م.
- علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط. القاهرة ١٩٩٦م.
- ـــ القدس في العصر المملوكي، ط. القاهرة ١٩٨٦م.
- علية عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- عمر كمال توفيق، الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (دراسات تحليلية وثقافية في التاريخ الدبلوماسي)، ط. الإسكندرية ١٩٨٦م.
- ـــ مملكة بيت المقدس الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٥٨م.
- فاروق عمر فوزي ومحسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر

الإسلامي الوسيط، ط. عمان ١٩٩٩م.

- فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، ط. القاهرة ١٩٨٢م.
- فايز نجيب إسكندر، بطرس الناسك والحملة الشعبية عام ١٠٩٦م، ضمن كتاب صفحة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، المنصورة ب-ت.
- فؤاد عبد الرحيم الدويكات، إقطاعية طبرية ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. عمان ٢٠٠٢م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ط. القاهرة ١٩٧٥م.
- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق، ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- ـــ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- ـــ، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- ـــ، ماهية الحروب الصليبية (الإيديولوجية – الدوافع – النتائج)، ط. القاهرة ٢٠٠٦م.
- كامل جميل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص مع دراسة مفصلة عن حياته وشخصيته العلمية، ط. عمان ١٩٨٦م.
- لويس بوزيه، من السلم إلى المفاوضات ولبسها: اتفاقية يافا (١٢٢٩م/٦٢٦هـ)، بين فريدريك والملك الكامل، ضمن مسيحيون ومسلمون في زمن الحملات الصليبية بين المواجهة واللقاء، ط. بيروت ٢٠٠٧م.
- محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والغرب، ط. بيروت ١٩٨٢م.
- محمد صالح منصور، أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، ط. بنغازي ١٩٩٦م.
- محمد عبد العظيم، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- محمد عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، ط٢ القاهرة ١٩٨٣م.
- محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس

الميلادي "عصر جوستنيان"، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

- محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبين (فتح عكا ٦٤٨-٦٩٠هـ/١٢٥٠-١٢٩١م)، ط. القاهرة ٢٠٠٩م.
- محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
- ـــ، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٥م.
- ـــ، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب)، ط. القاهرة ١٩٩٩/٢٠٠٠م.
- ـــ، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، ط. عمان ١٩٩٩م.
- ـــ، الحروب الصليبية دراسات في التاريخ المقارن، ط. القاهرة ٢٠١٠م.
- ـــ، الحروب الصليبية، السياسة – المياه – العقيدة، ط. القاهرة ٢٠٠١م.
- ـــ، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ط. القاهرة ٢٠٠٤م.
- ـــ، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ط. القاهرة ١٩٩٢م.
- ـــ، سندباد في عصر الحروب الصليبية، ط. القاهرة ٢٠٠٠م.
- ـــ، صلاح الدين بين التاريخ والأسطورة، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.
- ـــ، عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات، ط. القاهرة ٢٠٠٥م.
- ـــ، عصر الحروب الصليبية بحوث ومقالات، ط. القاهرة ٢٠٠٦م.
- ـــ، معركة أرسوف في الصراع الإسلامي الصليبي، ط. القاهرة ١٩٩٧م.
- ـــ، من رحالة الشرق والغرب في العصور الوسطى، موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.
- محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ط. بيروت ١٩٨٥م.
- محمد محمد مرسي الشيخ، عصر الحروب الصليبية في الشرق، ط. الإسكندرية

١٩٩٦م.

- ـــ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية ١٩٧٢م.
- محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، القاهرة ١٩٩٧م.
- محمد نصر، العلاقات بين الشرق والغرب (أضواء على تاريخ الحملات الصليبية)، ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
- محمود سعيد عمران، الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ط. بيروت ٢٠٠٢م.
- ـــ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كومنين، ط. الإسكندرية ١٩٨٥م.
- ـــ، بحوث في مصادر العصور الوسطى، ط. الإسكندرية ٢٠٠٨م.
- ـــ، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، ط. الإسكندرية ١٩٩٨م.
- محمود محمد الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ط. القاهرة ١٩٧٩م.
- مسفرين سالم عريج الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي (٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣هـ)، ط. السعودية ١٩٨٦م.
- مصطفى العبادي، الإمبراطورية الرومانية (النظام الإمبراطوري ومصر الرومانية)، الإسكندرية ١٩٩٩م.
- مصطفى محمد الحناوي، أضواء جديدة على منشآت الفرسان الإستبارية في بلاد الشام، ط. الرياض ٢٠٠٧م.
- ـــ، عصر الحروب الصليبية (الفرسان الإستبارية ودورهم في الصراع الصليبي الإسلامي، ط. الرياض ٢٠٠٥م.
- مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١-٥-٧-٨، كفر قرع ١٩٩١م.
- مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ الحروب الصليبية، ط. عمان ٢٠٠٤م.
- موضى عبد الله السرحان، بيروت تحت الحكم الصليبي وعلاقتها بالمسلمين، ط. الرياض ٢٠٠١م.

- نبيلة إبراهيم مقامي، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- نعيم زكي، طرق التجارة ومحطاتها الدولية بين الشرق والغرب، ط. القاهرة ١٩٧٣م.
- نقولا زيادة، المسيحية والعرب، ط. بيروت ٢٠٠٢م.
- ـــ، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ط. بيروت ١٩٤٣م.
- نهى فتحي الجوهري، إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج٢، دمشق ١٩٨٢م.
- هنادي السيد محمود، مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول، ط. القاهرة ٢٠٠٨م.
- وسام عبد العزيز فرج، الحروب الصليبية، ط. المنصورة ٢٠٠٥م.
- يوسف حسن غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ط. عمان ١٩٩٥م.

خامساً: المراجع الأوروبية المترجمة:

- أدريان بوس، مدينة بيت المقدس زمن الحروب الصليبية، ترجمة علي السيد علي، ط. القاهرة ٢٠١٠م.
- آدم سميث، الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة، ط. بيروت ب.ت.
- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ت. أحمد عيسى، ط. القاهرة ١٩٦٠م.
- اشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط، ترجمة عبد الهادى عبله، ط. دمشق ١٩٨٥م.
- ب-م هولت، عصر الحروب الصليبية، تاريخ الشرق الأدنى من القرن الحادي عشر حتى عام ١٥١٧م، ترجمة عادل إسماعيل هلال، ط. الإسكندرية ٢٠٠٤م.
- توماس ماستناك، السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.

- جان ريتشارد، تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها، ضمن الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ط. بيروت ١٩٩٤م.
- جوناثان رايلي سميث، الإسبتارية فرسان القديس يوحنا في مملكة بيت المقدس وقبرص، ت. صبحي الجابي، ط. دمشق ١٩٨٤م.
- ـــ، تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ٢٠٠٧م.
- ـــ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ط٢ القاهرة ١٩٩٩م.
- ريمون ستانبلوي، مفاتيح أورشليم القدس حملتان صليبيتان على مصر (١٢٠٠-١٢٥٠م)، ترجمة عايدة الباجوري، ط. القاهرة ٢٠٠٤م.
- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج١،ج٢ ط. بيروت ١٩٨٢م، ط. بيروت ١٩٨٦م.
- ـــ، رحلات الحج إلى فلسطين فيما قبل عام ١٠٩٥م، ترجمة محمد مؤنس عوض، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية "فصول مختارة"، ط. رام الله ٢٠٠٤م.
- سميل، الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، ط. بيروت ١٩٨٢م.
- ـــ، فن الحرب عند الصليبين في القرن الثاني عشر الميلادي، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٥م.
- سيدني بأنتز، أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية، ت. سعيد عبد المحسن، ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، رام الله ٢٠٠٤م.
- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ط. القاهرة ١٩٩٨م.
- كانتور، التاريخ الوسيط (قصة حضارة البداية والنهاية)، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج٢، القاهرة ٢٠٠٩م.
- كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط. القاهرة ١٩٩٥م.

- كوبدلاند وفينوجرادون، الإقطاع في العصور الوسطى بغرب أوروبا، ت. محمد مصطفى زيادة، ط. القاهرة ١٩٤٥م.
- لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمد عمايري، ط. عمان ١٩٧٠م.
- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، ط. القاهرة ٢٠٠٤م.
- موريس كين، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٩٤م.
- مولر، القلاع أيام الحروب الصليبية، ت. محمد وليد الجلاد، ط. دمشق ١٩٨٤م.
- ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م.
- ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ترجمة بشير السباعي، ط. القاهرة ٢٠٠٣م.
- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م.
- نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٧م.
- هـ.و. كارلس- ديفز، شالمان، ترجمة السيد الباز العريني، ط. القاهرة ١٩٥٩م.
- هانز ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، ط. طرابلس الغرب ١٩٩٠م.
- ـــ، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ج١، ط. القاهرة ١٩٩٩م.
- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ت. أحمد محمد رضا، ج١، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢، ط. القاهرة ١٩٩٥م.
- وال ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، المجلد٨، جزء ١٥-١٦، القاهرة ٢٠٠١م.
- يوشع براور، الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس اللاتينية، ت. عبد

الحافظ عبد الخالق البنا، ط. القاهرة ٢٠٠١م.

- ـــ الاستيطان اللاتيني في بيت المقدس، ترجمة حسن عبد الوهاب، ضمن مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، ط. الإسكندرية ١٩٩٧م.
- ـــ عالم الصليبين، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط. القاهرة ١٩٩٩م.

سادساً: المراجع الأجنبية:

- *Abou-El-Haj, the Medieval Cult of Saint, Cambridge, 1997.*
- *Archer, (T.H.), and Kingsford (C.L.), The Crusades, the story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1919.*
- *Attwater (Donald), The Penguin Dictionary of Saints, London 1975.*
- *Baudrillart (M.A.), Dictionnaire D' Histoire et de géographie Ecclésiastiques, Vol. VI, Paris 1930.*
- *Benvenisti (M.), the Crusaders, in the Holy Land, Jerusalem 1976.*
- *Boase (T.S.R.), Ecclesiastical Art in the Crusader state in Palestine and Syria, Architecture and Sculpture, B. Masaic, Painting and Minor Art, in Setton (K.L.), Vol. IV, U.S.A. 1977.*
- *____________, Military Architecture, in the Crusader states in Palestine and Syria, in Setton, Vol. IV, U.S.A. 1977.*
- *Brehier (L.), l'' Eglise et l'Orient Au Moyen-Age, Les Croisades, Paris 1921.*
- *Brook (Z.N.), A History of Europe from 911-1198, Vol. II, London 1939.*
- *Brownrigg (R.), Come, See the place A Pilgrim Guide to the Holy Land, London 1985.*
- *Cahen (C.), "La Compagen de Montzikertal", Apres les Cources

Musulmanes" Byzantian, 9 (1934).

- *____________, La Syrie du nord a l'Epoque de Croisades et la Principaute Franque d' Antoiocle, Paris 1940.*
- *Citarello, "The Relation of Amalfi with the Arab World before the Crusades" S", Vol. XLII, No. 2, April 1967.*
- *Conder, the City of Jerusalem, London 1909.*
- *____________, The Latin Kingdom of Jerusalem, London 1897.*
- *Constable Giles, Monachisme et pèlerinage au Moyen Age, Religious life and thought (11th-12th centuries), London 1979.*
- *Cowdrey, "The Genesis of the Crusades the Springs of Western Ideas of Holy War", in the Holy War Ed. By Thomas Patrick Murphy, Ohio University 1974.*
- *Crowford, "William of Tyre and Maronites, "S." vol. XXX, 1999.*
- *Daniel Rops, Cathedrol and Crusades, translated by John Warrington, London 1959.*
- *David Marcombe, Leper Knights, The Order of St. Lazarus of Jerusalem in England, C.1150-1544, Britain 2003.*
- *Deschamp (P.), Les Chateaux des Croisades, enterre, T.II, Paris 1930.*
- *Dietz (M.), Travel Wandering and Pilgrimage in late antiquity and the Early Middle Ages, Vol. I, Princeton 1997.*
- *Duggan (A.), The story of the Crusade, London 1969.*
- *Edmond- Réne Labande, Recherches Sur Les Pelerins dans I Europe des IIe et 12e Siecles, Spiritualité et Vie littéraire de l' Occident,*

Xe-XIVes, London 1974.

- ______, Les Pèlerin Ages Chrétiens a travers les âges, Spirtualité et vie Littéraire de L'Occident, XE-XIVES., London 1974.
- ______, Les Pererinages Chretiens a travers les ages Spirtualité et vie littéraire de l' Occident, Xe-XIVS, London 1974.
- ______, Recherches Sur Les Pelerins dans l' Europe des XIe et Siecles, Spirtualité et vie littéraire de l' Occident, XII-XIVS, London 1974.
- Elinor (A.), Moore (B.A.), The Ancient Churches of Old Jerusalem 1961.
- Ency. America, "Lazarus", Vol. XVII, U.S.A. 1970.
- Fedden, Crusader Castles, London 1950.
- Fink (H.), "Mawdud I of Mosul Precursor of Saladin", The Muslim word XLIII, 1953.
- Funck (F.), Les Croisades, Paris 1934.
- Grabois (A.), "Christian Pilgrims in The Thirteenth century and the Latin Kingdom of Outremer studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem, presented to Joshua Prawer, Jerusalem 1982.
- Grousset (R.), Histoire des Croisade, T.I Paris 1934,T.II Paris 1935,T.III Paris 1936.
- ______, L'Epopée des Croisades, Paris 1939.
- Hamilton (B.), Rebuilding Zion, The Holy Places of Jerusalem in the Twelfth Century, studies of the Church History, Vol. XIV, London 1977.
- Henry L. Savage, Pilgrimages and Pilgrim Shrines in Palestine and

Syria after 1095 in Setton, A History of the Crusades, Vol. IV, U.S.A.

- Herbert (L.W.), Jerusalem, The Biblical World, Vol. 26, No.5, (Nov. 1905).
- Hilal, Adel, Sultan Al-Mansour Qalawun's Policy with the Latin States of Syria 1279-90 and the fall of Acre, M.A. Thesis, The American University in Cairo 1983.
- Hilmar (C.), "The Italian Cities and the Arabs before 1095", in A History of the Crusades, Vol. I, Ed. Setton (C.), Philadelphia 1955.
- Holt (P.M.), Qalāwūn's Treaty with Acre in 1283, the English Historical Review, Vol. 91, No.361 (Oct. 1976).
- Hossan (S.), "Some observations on the problems concerning the origin of the Salijugides, Islamic Culture, 49 (1965).
- Hugh Kennedy, Crusader, Castle, Cambridge 1994.
- Hume Edgar, (E.), Medival Work of the Knight Hospitallers of Saint John of Jerusalem, Baltimore 1940.
- Hunt (E.D.), Holy Land Pilgrimage in the later Roman Empire, A.D. 312-460, Oxford 1984.
- Indriks (S.), "The Teutonic Knights in the Crusades States", in Setton, Vol. V, U.S.A. 1985.
- Janin (H.), Four paths to Jerusalem (Jewish, Christian), Muslim and Secular Pilgrimages 1000 BCE to 2001 CE, London 2002.
- Jonathan Riley – Smith, The crusades A Short History, London 1987.
- Josef W. Meri, The Cult of Saint Among Muslims and Jews in Medieval Syria, Oxford 2002.

- Kedar (B.), Denys Prigle, Lefeve "A Crusader Castle in the Jozreel Velly", Israek Explaration Jornal, Vol.35, No. 203, Jerusalem 1985.
- Kelly (J.N.D.), the Oxford Dictionary of Popes Oxford 1996.
- King (E.J.), The Knight Hospitallers in the Holy Land, London 1930.
- King Fulk of Jerusalem as City Land, in the Experience of Crusading, Vol. II, Cambridge 2003.
- Knowles, Thomas Becket, California 1970.
- Knut Gierset, History of the Norwegian People, New York 1927.
- Krey "William of tyre the making of an Historian in the middle ages, in "S.", Vol. XVI, 1947.
- Kruegers, "The Italian Cities and the Arabs before 1095, in A History of the Crusades", Vol. I, Pennsylvania 1958.
- Lamb (H.), The Crusades Iron Men Saints, London 1930.
- Leclerco (H.), pèlerinages aux lieux Saints dans Dictionnaire d' Archéologic Chretienne, t.14, Paris 1939.
- Macpherson (D.), Pilgrim Preacher, London 2004.
- Maravel (P.), Lieux Saint et pèlerinages d' Orient, Paris 1985.
- Moler (J.), Why the first Crusade was not a Pilgrimage, Al-Masáq, Vol.15, No.2, September 2003.
- Munro, "The Speech of Pope Urbran II at elermant", A.H.R., Vol. II, 1905.
- Nicolle (David), Hattin 1187 Saladin Greatest Victory, Oxford 2005.
- ______________, The Third Crusades 1191: Richard the Lion

Heart, Saladin and the Straggle for Jerusalem, Oxford 2006.

- Ousterhout (R.), Rebuilding the Temple Constantine Monomachus and Holy Sepulchre, the Journal of the Society of Architectural Historians, Vol.48, No (March 1989).
- Painter (S.), A History Middle Age 284-1500, London 1963.
- Par (E.), Du Bois, Les Croisades, Paris 1860.
- Parisse, "Godefroy de Bouillon", la Croisade examplaire, L'Histoire, T. XIVII, Année 1982.
- Partner (P.), God of Battles, London 1997.
- Peters, Jerusalem the Holy City, Princeton 1985.
- Pirenne, Mohammed and Charlemagne, London 1954.
- Prawer (J.), the Burgesses in Setton, Vol. V, New York 1983.
- ______________, "Crusader Cities", in Miskimin (ed.), Medieval Cities, London 1977.
- ______________, Histoire du Royaume Latin de Jerusalem, T.I., II Edition du Centre National de la Recherche Scientifaue, Paris 1969.
- ______________, The Hebrew Itineraries of the Crusader Period, in the History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford 1988.
- ______________, the Latin Kingdom of Jerusalem, London 1972.
- ______________, Crusader Institution, Oxford 1980.
- Pringle (D.), The Planning of some Pilgrimage Churches in Crusader Palestine, World Archaeology, Vol. 18, No.3, Archaelogy and the Christian Church, (Feb. 1987).
- Read (Pier Paul), The Templars, Phoenix Press, London 2000.

- Rey (E.), Les Colonies Franques en Syrie aux XIII Siecles, Paris 1883.
- Richard, "Hospitals and Hospital Congregation in the Latin Kingdom during the First Period of the Farankish contuest in Outremer Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem 1982.
- Round (J.H.), "Some English Crusaders of Richard I", in E.H.R., Vol. 18, no.71 (July 1903).
- Roussel (R.), Les pèlerinages à travers les siecles, Paris 1954.
- Runciman (S.), A History of the Crusades, Vol. I, Vol. II, Cambridge 1978.
- Sigal (P.A.), Les Marcheurs de Dieu, Paris 1974.
- Smail (R.), "Crusader Castles of Twelfth Century", in E.H.R., 1978.
- Smith (J.R.), the Feudal Nobility and the Kingdom, 1174-1277, London 1973.
- Stevenson (W.B.), The Crusaders in the East, Beirut 1968.
- Thompson (J.W.), Economic and Social History of the Middle Ages, Vol. I, London 1959.
- Tibawi (A.L.), Arabic and Islamic Themes, London 1976.
- Tibble(S.), Monarchy and Lord Ships in the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291, Oxford 1989.
- Tolkowsky, History of Joff, London 1924.
- Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago 1964.
- Van Cleve, "The Crusade of Frederic II, in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Madison 1969.
- Waston (C.M.), The Story of Jerusalem, London 1912.

- Webb (D.), Medieval European Pilgrimage C.700-C.1500, New York 2002.
- Williams (K.), Knights of the Crusades, New York 1962.
- Wise (T.), The wars of the Crusades 1096-1291, London 1978.
- Ziada (M.M.), "Mamluk Sultans to 1293", in Setton, A History of the Crusades, Vol. II, Pennsylvania 1962.

سابعاً: الدوريات:

- إبـراهيم الجنـدي، فلـسطين في عيـون الرحالـة الأوروبيـين، المجلـة الفلـسطينية للدراسات التاريخية، العدد الثالث، رام الله ٢٠٠٣م.
- أحمد رباح، دور التجار الأوروبين في دعم توجيه الحملات الصليبية، مؤتمر بلاد الشام فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج٢، اليرموك أربد ٢٠٠٠م.
- أحمد رمضان أحمد، بيت المقدس والخليل، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الأول، ط. القاهرة ١٩٨٢م.
- أسامة زكي زيد، الخوارزمية ودورهم في الصراع الإسلامي في عصر بني أيوب، مجلة كلية الآداب، العدد ٣٠، الإسكندرية ١٩٨٢م.
- ـــ، حملات الرملة الثلاث ضد الصليبين في عهد الوزير الفاطمي الأفضل، المجلد التاسع والعشرون، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨١-١٩٨٢م.
- إسحاق عبيد، قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم حقيقية، مجلة كلية الآداب، م(١٧)، جامعة عين شمس ١٩٧٠م.
- الأمين أبو سعدة، التوظيف السياسي لرفات القديسين ومتعلقاتهم في أوروبا العصور الوسطى، العدد٣٥، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة ٢٠٠٤م.
- جوزيف نسيم يوسف، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م(١٦) عام ١٩٦٣م.
- حاتم عبد الرحمن الطحاوي، القانون البحري لمملكة بيت المقدس الصليبية قراءة في مجموعة قوانين بيت المقدس الصليبية، مجلة كلية الآداب، العدد٥٨، جامعة القاهرة

١٩٩٨م.

- حسن أحمد عبد الجليل البطاوي، رحلات الحجاج الأوروبيين إلى الدول الصليبية في الشرق الإسلامي (٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م)، مجلة المؤرخ المصري، العدد السادس والعشرون، يناير ٢٠٠٣م.
- ـــ لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام ١٣٣٦-١٣٤١م، المجلد رقم ٤٥، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة ٢٠٠٧م.
- رأفت عبد الحميد، الملك الكامل بين الأفراط والتفريط في مواجهة الصليبيين، ضمن كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط. القاهرة ١٩٩٨م.
- ـــ كنيسة بيت المقدس في العصر البيزنطي، المجلة التاريخية المصرية م(٢٥)، القاهرة ١٩٧٨م.
- رياض مصطفى أحمد شاهين، أوضاع اليهود وموقفهم من الغزو الصليبي لبلاد الشام، مجلة التاريخ والمستقبل، المنيا، يناير ٢٠٠٦م.
- ـــ هدنة الرملة والظروف المحيطة بها، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج١، أربد عام ٢٠٠٠م.
- سرور عبد المنعم علي، جودفري بويون حاكماً للكيان الصليبي في بلاد الشام ١٠٩٩-١١٠٠م/٤٩٣-٤٩٤هـ مجلة بحوث الشرق الأوسط، ط. القاهرة ٢٠٠٤م.
- ـــ طريق يافا - القدس ودوره في الصراع الإسلامي ١٠٩٩-١١٥٣م/٤٩٢-٥٤٨هـ مجلة الشرق الأوسط، العدد الخامس والعشرين، الجزء الأول، سبتمبر ٢٠٠٩م.
- سعيد جبريل البيشاوي، المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ٤٩٢-٥١٣هـ/١٠٩٩-١١٨٧م، مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ٤٩١-٦٩٠هـ ج١، جامعة اليرموك ٢٠٠٠م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الإمبراطور فردريك الثاني والمشرق العربي، مجلد ١١، المجلة التاريخية المصرية، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
- شفيق جاسر أحمد محمود، الحروب الصليبية جذورها ودوافعها وأسباب ونجاح المرحلة الأولى، الدارة، العدد الثاني، السنة الخامسة، السعودية ١٤١٠هـ.

- عادل عبد الحافظ حمزة، دخول هنغاريا دائرة الكنيسة الغربية في القرن الحادي عشر الميلادي، مجلة التاريخ والمستقبل، المجلد الثالث، العدد الأول، كلية الآداب جامعة المنيا، يناير ١٩٩٣م.
- عبد الرحمن زكي، القلاع في الحروب الصليبية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، م(١٥)، القاهرة ١٩٦٩م.
- عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، الدوافع الدينية للحركة الصليبية، ضمن ندوة الإطار التاريخي للحركة الصليبية، إتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ١٩٩٦م.
- عطية القوصي، صلاح الدين واليهود، المجلة التاريخية، العدد٢٤، القاهرة ١٩٧٧م.
- عفاف سيد صبره، الإمبراطور والدولة في عهدي فردريك الثاني ولويس التاسع، عدد١، مجلة كلية الدراسات الإنسانية، السعودية ١٩٨٤م.
- ـــ الأمير مودودين التونكين أتابك الموصل ودوره في حركة الجهاد الإسلامي، مجلة الدارة، السنة١٢، العدد٢، السعودية ١٩٨٦م.
- علي أحمد محمد السيد، رحلة برنارد الحكيم إلى مصر وفلسطين عام ٨٦٧-٨٧٠م/ ٢٥٤-٢٥٧هـ "دراسة تاريخية نقدية"، مجلة بحوث كلية الآداب، العدد٢٢، جامعة المنوفية أغسطس ١٩٩٥م.
- ـــ أهم التطورات في أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين لها (١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٢هـ)، الإنسانيات، العدد الأول، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٨م.
- علي السيد علي، طريق القوافل القاهرة – دمشق في عصر الحروب الصليبية، ضمن ندوة طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، حصاد٨، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٠٠٠م.
- عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م(٢١)، ١٩٦٧م.
- فتحية النبراوي، حياة الإمبراطور الكسيوس كومينوس، المجلة التاريخية المصرية،

م(٢٧) عام ١٩٨١م.

- قاسم عبده قاسم، الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية، ضمن ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، ج٢، ط. القاهرة ١٩٨٣م.
- ـــ صورة المقاتل الصليبي، المجلة التاريخية المصرية، م(٢٧)، القاهرة ١٩٨١م.
- محمد الحافظ النقر، التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس، مؤتمر بلاد الشام فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ج٢، اليرموك ٢٠٠٠م.
- منال محمد السيد، تسليم بيت المقدس للصليبيين اتفاقية يافا ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، ضمن القدس عبر التاريخ، حصاد ١٨، ندوة اتحاد المؤرخين العرب ٢٠١٠م.
- نجلاء مصطفى شيحة، المزارات المقدسة في القدس من خلال كتابات الرحالة الأوربيين، ضمن القدس عبر عصور التاريخ، حصاد ١٨، ندوة اتحاد المؤرخين العرب، ط. القاهرة ٢٠١٠م.

ثامناً: الرسائل العلمية:

- أحمد عبد الله، التجارة في الساحل الشامي في القرنين ١٢، ١٣م/٦، ٧هـ رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٦م.
- أسامة سيد علي، الساحل الشامي في القرن الثاني عشر/السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٢م.
- ـــ الظهير الشامي ودوره في الصراع الإسلامي الصليبي في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٦م.
- إيمان ثابت كامل، القلاع في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٩م.
- جلال حسني عبد الحميد سلامة، الإستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة ١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٣هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٤م.
- حنان عبد الحميد محمد عبد الهادي، دور بيزة في العلاقات الصليبية الإسلامية في

مصر والشام حتى نهاية الدولة الأيوبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م.

- سر الختم عثمان، مدينة صور في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ١٠٩٧-١٢٩١م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧١م.
- سرور عبد المنعم، السياسة الداخلية والخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد فولك الأنجوي (١١٣١-١١٤٣م/٥٢٦-٥٣٨هـ)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠١م.
- سعيد محمد سعيد الغمري، الطب في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ١٠٩٩-١٢٩١م/٤٩٥-٦٨٧هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ٢٠٠٣م.
- سماح عبد المنعم السلاوي، الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٨م.
- سهير محمد مليجي علي، المرأة الصليبية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٢م
- صفاء عثمان محمد، عوامل فشل المشروع الصليبي في القرنين ١٢-١٣م/٦-٧هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠١٠م.
- صلاح الدين عبد المنعم، قلاع بيت المقدس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس ٢٠٠٠م.
- صلاح محمد ضبيع، دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام ٥٤٠-٦٢٣هـ/١١٤٥-١٢٢٩م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة أسيوط ١٩٩٣م.
- عبد الحفيظ محمد علي، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين بالشرق الأدنى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٥م.

- عبد السلام محمد زيدان، الدعوة للحروب الصليبية على بلاد الشام ١٠٩٥-١١٨٩م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة أسيوط ٢٠٠٤م.
- علي السيد علي، المجتمع المسيحي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٧٩م.
- فتحي عبد العزيز، دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية في عام ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٨٨م.
- ليلى محمد الطرشوبي، إقليم الجليل في عصر الحروب الصليبية - القرن الثاني عشر الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٧م.
- محمد السيد رشوان، منظمة الفرسان التيوتون في شرق أوروبا ١٢٢٦-١٤٦٦م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب سوهاج ٢٠٠٧م.
- محمد مؤنس عوض، التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٨٤م.
- مصطفى عبد العزيز العسقلاني، عسقلان ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٩٢م.
- مهجة السيد عبد العال، حارم ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الأسكندرية ١٩٩٥م.
- ـــ العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب المعاصرين للحركة الصليبية (٤٨٧-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م)، رسالة ماجيستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٨٧م.
- وفاء رفاعي عبد الحميد رفاعي، تدهور الاقتصاد الإسلامي في الشام في عصر الحروب الصليبية (٤٩٠-٥٦٥هـ/١٠٩٧-١١٧٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر ٢٠٠٨م.
- ياسر عبد المعبود عبد الله، جامعة باريس ودورها في النهضة الفكرية بأوروبا في

العصر الوسيط، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس ٢٠٠٢-٢٠٠٣م.

تاسعاً: دوائر المعارف العربية:

- دائرة المعارف الإسلامية، ت. الشنتاوي وآخرين، ج١، ط. القاهرة ب.ت.

عاشراً: دوائر المعارف الأجنبية:

- *The Crusades an Encyclopedia*, Vol. I, II, III, IV California 2006.
- *The Oxford Reference Dictionary*, London 1962.
- *The Oxford English Dictionary*, Vol. IX, Oxford 1973.

الفهرس



يتناول هذا الكتاب بالدراسة حركة الحج المسيحي إلي القدس خلال القرنين ٦ ، ٧ من الهجرة / ١٢ ، ١٣ من الميلاد ، أي خلال فترة الحروب الصليبية . وقد سعت الباحثة من خلالها إلي إلقاء الضوء على هذه الحركة قبل فترة الحروب الصليبية ، كما أوضحت تداخل مفهوم حركة الحج مع مفهوم الحروب الصليبية إلي حد كبير. وعرضت لجهود مملكة القدس الصليبية في تأمين حركة الحجاج خاصة طريق يافا القدس ، بجانب إقامة كثير من الحصون والقلاع لهذا الغرض ، وتناولت بتفصيل أهم المزارات التى توجه إليها الحجاج خاصة كنيسة القيامة ، وكنيسة المهد ونهر الأردن ، بجانب أهم طقوس الحج المسيحي . كما عرضت بتفصيل للآثار السياسية ، و الاقتصادية ، والاجتماعية ، والحربية ، والدينية لهذه الحركة.

الناشر

